المركز القومي للترجمة

فرسان الفن

قصص حياة الرسامين الإيطاليين

تاليف: إيمى ستيدمان

ترجمة: الحسين خضيرى

المشروع القومي للترجمة

1146

فرسان

الفـــــن

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٤٦
- فرسان الفن – قصص حياة الرسامين الإيطاليين
- إيمى ستيدمان
- الحسين خضيرى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب :

Knights of Art

Stories of the Italian Painters

By : Amy Steedman

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

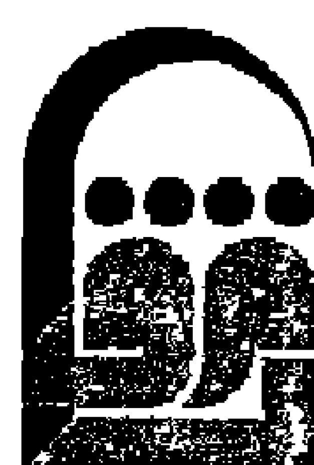
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

فرســان الفــن

قصص حياة الرسامين الإيطاليين

تألـيف : إيمى ستيدمان

ترجمة : الحسين خضيرى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستيدمان ، إيمى
فرسان الفن - قصص حياة الرسامين الإيطاليين
تأليف : إيمى ستيدمان - ترجمة : الحسين خضيرى :
القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ .
٢٩٦ ص ، ٢٤ سم ، المشروع القومى للترجمة .
١ - الرسامون الإيطاليون .
(أ) خضيرى ، الحسين (مترجم)..
(ب) العنوان .
(جـ) السلسلة ٩٢٧,٤٤٥

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٦٢٤
الترقيم الدولى 3 - 582 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات

مقدمة المترجم

يسعدنى أن أقدم للقارئ العربى ترجمة كتاب يحوى سير حياة فرسان تألقوا وحلَّقوا فى سماء الفن وحلَّقنا معهم ، هذا الكتاب الرائع الذى قدمته لنا الكاتبة الإنجليزية إيمى ستيدمان التى كتبت سير حياة هؤلاء العظام، وإننا لندين لها بهذا الفضل، ولقد اعتمدت على كتاب " حيوات الفنانين " للرسام جورج فاسارى، ومن الجدير بالذكر أنها قدمت قصص حياة القديسين للأطفال، واستُخدمت كتبها للتعليم المنزلى والأكاديميات الخاصة.

فمن ذا الذى لم تخلب لبَّه ابتسامة الموناليزا؟ ومن منا لا تبهره لوحة العشاء الأخير؟ هذان العملان قام برسمهما رجل من أعظم رجالات الفن الإيطالى، بل العالمى، ألا وهو ليوناردو دافنشى؛ فهل فكرنا يومًا ماذا كان وراء تلك الأعمال القديرة من آلام وآمال؟ وهل دار بخلدنا كيف سارت حياة ذلك العملاق ليوناردو ؟ وكيف كان حلمه بالطيران طوال حياته رفيقًا لروحه؟ وكم كانت أحداث الحياة المريرة مخيبةً لآماله فانطوى منعزلا بعد أن رماه الجميع بتهمة الفشل ؟

فما الذى فعله ليوناردو كى يدهم جنود الاحتلال الفرنسى إيطاليا، ويحيلوا أعماله التى أنفق فيها عمره إلى أطلال ؟

و كيف أنهم عاثوا فساداً وحطموا فى ساعات تمثالاً استمر العمل فيه لنحو ستة عشر عامًا ؟!

و كيف راحوا يشوهون الجدران التى رسمها فى لهوٍ غير برىء ؟

أما الرهبان فقد دمروا بجهلهم الجدران التى رسمها، وأقاموا بابًا فى وسط الجدار المرسوم !

و كيف كان مايكل أنجلو قامةً لا تبارى، وأن هذا المثّال العظيم بهى الروح رضخ لأمر البابا، ورسم سقف كنيسة سستين وكم تحمل من المشاق سنين عدة، وكم اضطر أن يرقد منبطحًا على سقالة خشبية، ويرسم السقف مع أن مجرد النظر إلى السقف لمدة عشر دقائق كفيل بأن يؤلم رأسك ورقبتك ؟

و كم كان فرافيليبو ليبى طفلا بائسًا حتى إنه كان يلتصق بالأحجار من فرط الجوع والبرد فى شوارع المدينة، وكيف مضت حياته من هروبٍ إلى هروبٍ، ومن مآسٍ إلى مآسٍ ؛ فتخفق معه قلوبنا وهو يضيق بحياة الرهبان فى الدير فينسل هاربًا فى منتصف الليل .. منتصف العتمة، وقد بدا له الشارع الذى لم يره منذ سنين طويلة صديقًا قديمًا !

و تخفق قلوبنا ثانيةً معه حين يأسره القراصنة المغاربة، ويباع كالرقيق .

و حين يهرب ثانية من الملك كوسيمو العظيم الذى سجنه فى قصره كيما يرسم له لوحةً ما ،ولقد فات الملك كوسيمو العظيم أن الطيور ليست تغرد إلا حين تحلق ، فينسل هاربًا، ويفر إلى الشارع المفتوح بعد أن حظى من الملاءات والأغطية بحبل نجاة !

وحين خفق قلبه للعذراء الجميلة التى كانت فى طريقها إلى أن تصير راهبةً فيسرق الحب قلبيهما، وينسلا هاربين إلى العالم الوسيع حيث يبتنيان عش سعادتهما!

ستنساب دموعنا مع دموع لوكريزيا حين يأتى الربيع ولا يأتى فيليبو الذى وعدها بالمجيء مع الربيع فيغيب عنها؛ فيغرب ربيع حياتها معه إلى الأبد !

العديد والعديد من قصص هؤلاء العظام وأسرار حياتهم أبسطها بين يديك أيها القارئ الكريم، ولقد راعيت أن آتى بلوحاتٍ وبورتريهات لهؤلاء الفنانين لم تكن فى متن الكتاب الأصلى للمؤلفة إيمى ستيدمان، ولم يضمها الكتاب بين دفتيه، وذلك لإبراز

تنوع هؤلاء الفنانين العظام ونبوغهم، وكيف تدفق عطاؤهم، ولترَ معى كيف تولد الأعمال العظيمة والرجال العظماء عبر الآلام والآمال، وكيف أنه قد يبدو ما يحدث لنا أحيانًا محض صدفةٍ ، ولكن يدًا قديرةً وراء كل هذا. إنها يد المبدع الأعظم لهذا الكون الجميل الذى أحسن كل شيء خلقه ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

تنويــه :

الترتيب الذى جاء عليه الكتاب هو الترتيب نفسه الذى أوردته المؤلفة، ولقد حرصنا أن يكون كما أرادت المؤلفة، وراعينا أن نأتى بسنى الميلاد والوفاة لكل فنان حيث أغفلت المؤلفة هذا الجانب .

شكر وتقدير

للصديق الشاعر الدكتور علاء الدين رمضان لقاء التشجيع الكريم والجهد المضنى الذى بذله معــى واقتراحاته البنّاءة وملاحظاته الرائعة التى لم يضن بها أبدًا.

فلا أقل من شكرٍ متواضع له أخطه هنا باليد التى تدين له بالفضل .

وشكرًا .

الحسين خضيرى

الأقصر : ٣١ / ٥ / ٢٠٠٧

إهـداء

إلى هؤلاء الفنانين الذين أثروا حياتنا بإبداعاتهم الرائعة، وألهموا وجدان الشعوب، فأضاءوا الدنيا بإبداعاتهم، و إلى محبى هذه الفنون وعشاقها .

الحسين خضيرى

To Francisca إلى فرانسيسكا

فرسان الفن
هذا الكتاب

ترى ما عسانا كنا نفعل دون الكتب المصورة ؟ إننى أتساءل . قبل أن نعرف القراءة بل حتى قبل أن نعرف كيف نتكلم .. تعلمنا أن نحب الكتب المصورة ، كنا نهلل من الفرحة حين نقلب صفحاتها ونرى البقرة الواقفة فى الروضة المرصعة باللؤلؤ والخروف المسن الغبى مع أحفاده المتواثبين .. والكلب الحكيم بعينيه الودودتين .

لقد كانوا جميعًا أصدقاء حقيقيين لنا .

ثم بدأنا بعد ذلك نسأل عن قصص هذه الصور وكيف عشقناها أكثر وأكثر !

هنالك الفتاة الصغيرة ذات المعطف الأحمر تتحدث للذئب الرمادى العظيم بعينيه الشريرتين ، والكوخ ذو الزهور الحمراء المشرقة تتسلق عريشة الشباك ، وحورية ذات شعرٍ ذهبى تقفز خارجة يتبعها الدب الضخم المسن ، والدب متوسط الحجم ثم الدب الصغير .

هذه القصص بحق مجلبة لسرورنا ولكننا لم نكن لنحبها كل هذا الحب لو لم نرها مصورةً أيضًا .

هل فكرتَ يومًا ما كيف صُنعت هذه الصور ؟

لقد كان لها بداية كما أن لكل شىء بداية ، ولكن بدايتها تعود إلى الوراء بعيداً حتى أننا بالكاد نقتفى آثارها .

لم يمتلك الأطفال فى الأيام الطويلة الغابرة كتبًا مصورةً، فمثل هذه الأشياء لم تكن معهودة فى تلك الأيام .

منذ آلاف السنين وبعيداً فى آشور تعلم الآشوريون أن يرسموا ويحفروا الصور على الأحجار وفى مصر أيضًا رسم المصريون على الجدران فى معابدهم وعلى صناديق المومياوات ثم جاء اليونانيون وصنعوا تماثيل وصوراً جميلةً من الرخام وأسموها الآلهة !

كان هذا فى العصور التى لم يكن الله الحق يُعبدُ فيها بعد، ثم أتى المسيح وتعلم الناس أن الآلهة المصورة لم تكن حقيقيةً .

وبدأ الاعتقاد أنها ابتُكرت لصنع صور جميلة أو لنحت تماثيل رخامية .

كانت الصور القليلة التى رُسمت جامدةً وقبيحة، فلم تكن الوجوه تشبه وجوه الناس الحقيقية، وبدلا من رسم السماء الزرقاء كما هى عليه صكوها أنموذجًا من الذهب وبمرور الوقت بدا كما لو أن فن رسم الصور ينقرض .

ثم أتى عصر يُسمى بـ " النهضة " "The Renaissance" والذى يعنى إعادة الولادة والصحوة الجديدة حين بدأ الرجال يرسمون صوراً حقيقيةً لأشياء حقيقية ويملأون العالم بصورٍ من الجمال .

و ها هى الآن قصص رجال ذلك الزمان والذين بثوا حياةً جديدةً فى الفن – والتى سوف أخبرك عنها – الرجال الذين تعلموا خطوةً خطوةً أن يرسموا الصور الأجمل فى العالم .

ساعدنى فى هذه القصص كتاب قديم اسمه "حيوات الفنانين" لـ جورج فاسارى والذى كان رساماً أيضًا والذى ابتهج كثيراً عند جمع هذه القصص معًا ؛ لذا فهو يعرض لنا حياة هؤلاء الرجال الحقيقية وليس فقط مجرد أسماء عظيمة تُعرف بلوحات مشهورة .

حين كنا أطفالا لم نكن نأبه إذا ما كانت صورنا جيدة أو رديئة مادامت ألوانها مشرقة زاهية مادامنا نعرف ماذا كانت تعنى .

وحين كبرنا وأصبحنا أكثر حكمة تعلمنا أيضًا أن نعرف ما الجيد وما الرديء بينما كان على ألسنتنا أن تتدرب كيف تنطق وأيدينا كيف تعمل وآذاننا كيف تحب الموسيقى الجيدة وعلى أعيننا أن تتعلم أن ترى ما هو جميل .

وربما مررنا بهذا دونما عنايةٍ به وفقدنا حينئذٍ بهجة رائعةً كنا حريين بها .

لذا إذا ما تعلمت شيئًا من هؤلاء الفنانين العظام وصورهم الرائعة فسوف يقوى ذلك عينيك .

ويومًا ما ستزور إيطاليا المشمسة حيث عاش هؤلاء الرجال وحيث عملوا ، وسوف تشعر أنهم أصدقاء قدامى وبأن لوحاتهم سوف لا تبهج عينيك فحسب بل سوف تعلم قلبك شيئًا أعمق وأروع أكثر مما توضح الكلمات !

إيمى ستيدمان

جيوتو Giotto

١٣٣٧ - ١٢٦٧

الفصل الأول

منذ أكثر من ستمائة عام ، حين وُلد طفل ريفى فى قرية صغيرة فى فيسبجنانو Vespignano بالقرب من مدينة فلورنسا Florence الجميلة بإيطاليا كان والده يسمى بوندون وكان ريفيا أمينًا يعمل بجد ولقد أسماه " جيوتو " Giotto .

كانت الحياة خشنة وصعبة فى ذلك الريف ، ولكن الطفل المزارع نشأ قويا وصلبًا ولقد عرف مبكرًا معنى الجوع والبرد .

رماديةً كانت التلال المحيطة بالقرية وشاحبة، حيث أشرقت فضة أشجار الزيتون تحت أشعة الشمس وأكسب محصول الذرة الأخضر الوادى جمالا فى ربيع مبكر .

قليلةٌ هى الظلال فى الصيف إثر توهج الشمس حيث ارتفعت عاليًا فى السماء الزرقاء بينما الحشائش التى نمت بين الصخور بنية اللون محترقة ومع ذلك تخرج قطعان الخراف لتجد طعامها، يرعاها ويراقبها ولد من أولاد القرية .

كان جيوتو فى العاشرة حينما أرسله والده ليرعى الأغنام على التل .

لم يكن للأطفال الريفيين فى تلك الأيام مدارس ليذهبوا إليها أو دروس ليتعلموها، وقضى جيوتو أيامًا سعيدة فى الشمس المشرقة والمطر بينما يتتبع الأغنام من مكان لآخر وحيث وجدت الحشائش لتطعم .

ولكن جيوتو فعل شيئًا آخر إلى جانب مراقبته للأغنام ، حقا، فقد كان أحيانًا ما ينسى أمرها كله وأمر جمعها إلى بعضها البعض ثانيةً ، فإلى جانب ذلك كله كان هنالك أمر أفضل هو أن يحاول أن يرسم صوراً لكل ما يراه حوله .

لم تكن المسألة سهلة للغلام الصغير الراعى ، لم يكن لديه أقلام رصاص أو أوراق وربما لم ير طيلة حياته صورةً !

تحت السماء الزرقاء هناك شكلت عيناه صوراً من السحب البيضاء بينما تتغير ببطء من شكلٍ إلى آخر .

لقد تعلم بالتحديد شكل كل وردة وكيف تنمو ولاحظ كيف أن أشجار الزيتون تضع أوراقها الفضية إلى الخلفية الزرقاء للسماء والتى لاحت بين الأشجار ، وكيف أن خرافه بدت وكأنها توقفت لتأكل أو ترقد تحت ظل صخرة .

لا شيء أفقده حماسة عينيه اليقظتين ثم إنه بيدين ولوعتين استن قطعة صخرٍ وانتقى أنعم صخرةٍ وحاول أن يرسم على سطحها المسطح كل هذه الأشكال الرائعة التى ملأت عينيه بجمالها ... أيضًا كان هناك أشجار الزيتون والأزهار والطيور والحيوانات وخرافه على الأخص لأنها كانت صديقة ورفيقة له ودائمًا ما كانت بقربه، ولقد استطاع رسمها بطرق مختلفة فى كل وقت تتحرك فيه .

ويومًا ما أتى رسام عظيم من فلورنسا عبر القرية إلى التلال حيث كان جيوتو يرعى أغنامه ، كان اسمه سيمابو Cimabue ولقد كان الأشهر فى العالم آنذاك ولقد قال الناس بأنه رسم صورةً جعلت كل فلورنسا تبتهج ولم ير الفلورنسيون Floren-tines شيئًا كهذا من قبل، ومع ذلك كانت هناك صورة غريبة لمريم العذراء Madonna والطفل، و بالكاد يبدوان امرأة حقيقية وطفلا حقيقيا .

فبدا ذلك لهم مثيراً للدهشة وأصبح سيمابو واحداً من أعظم رجالات فلورنسا .

كان طريق التلال هو الطريق الوحيد ولم يكن ثمة ما يُرى سوى موجة التلال الرمادية من كل جانب .

امتطى الغريب طريقه ويكاد يرفع عينيه وهو يمضى وفجأة أتى على قطيع من الأغنام يقرض الحشائش الشحيحة المحترقة وراعٍ صغير بنى الوجه حياه مبتهجًا :

– طاب يومك يا سيدى .

ثمة شيء مشرق ومرح كان فى ابتسامة الصبى جعل الرجل العظيم يتوقف ويحادثه .

ثم وقعت عينا الرجل على الصخرة الملساء المسطحة والتى أمالها الولد فبدأ الرجل فى دهشته !

وسأله بسرعةٍ مشيراً إلى النقش الذى على الحجر :

– من صنع هذا ؟

أجاب الولد مشيراً برأسه بوجه يملؤه الخجل :

– إنها صورة لأحد خرافى التى هناك رسمته بهذا !

وأخرج الولد للغريب الحجر الحاد الذى استخدمه ، فسأله الغريب وهو ينظر بإمعان إلى الرسم الذى على الحجر .

– من علمك هذا ؟ !

فتح الولد عينيه بدهشةٍ قائلا :

– لا أحد، فقط حاولت رسم الأشياء التى أراها .

رأى سيمابو أن الولد يملك قوة رائعة فى يديه الخشنتين لذا سأله :

– ماذا لو جئت معى إلى فلورنسا وتعلمت كيف تكون رساماً ؟

أحمرت وجنتا الولد خجلا ولمعت عيناه بالفرح وقال :

– سوف آتى حقا يا سيدى بكل إرادتى .

واستدرك الولد صارخًا :

– فقط إذا سمح والدى بذلك .

ثم عادا إلى القرية معًا ولكن ليس قبل أن يعيد الطفل أغنامه إلى الحظيرة حيث لم يكن ليترك عمله غير مكتمل .

تعجب بوندون Bondone حينما رأى ولده فى صحبة رجل عظيم كهذا وتعجب أكثر حين استمع لعرض الغريب !

بدت هذه الفرصة ذهبية فوافق الرجل بفرح .

لماذا ؟ بالطبع ، يجب أن يذهب الولد إلى فلورنسا إذا كان السيد الكريم سيأخذه ويعلمه ليصبح رسامًا .

سيكون البيت موحشًا بدون الولد بعد أن كان ممتلئًا بالمتعة ومشرقًا كشعاع الشمس .

ولكن مثل هذه الفرص لا تتأتى كل يوم ، و لقد كان يريد له أن يذهب .

غادر السيد ومعه الولد إلى فلورنسا ليبدأ الولد تدريبه ولم يكن المرسم Studio – حيث يعمل سيمابو – كحجرات الفنانين والذى نطلق عليه مرسمًا !

لقد كان شيئًا ما يشبه الورشة Workshop وكان الأطفال الذين ذهبوا هناك ليتعلموا أن يرسموا ويلونوا .. يتعلمون أولا كيف يسحقون ويعدون الألوان ثم يمزجونها ولم يكن مسموحًا لهم أن يلمسوا فرشاةً أو قلمًا لفترةٍ طويلة ولكن فقط يراقبون أستاذهم فى العمل ويتعلمون ما يستطيعون تعلمه مما يرونه يفعله .

لذا عمل جيوتو هناك وشاهد ولكن عندما أتى دوره ليستخدم الفرشاة أدهشهم ؛ فلم تكن كل صوره تشبه أىَّ شىء مما رُسم من قبل فى الورشة !

و بدلا من نسخ وجوه جامدة وغير حقيقية رسم أناسًا حقيقيين وحيوانات حقيقية ورسم كل الأشياء التى تعلمها جيدًا على التل الرمادى وعندما شاهد أغنام والده .

رسم فنانون آخرون السيدة العذراء والمسيح الرضيع ولكن جيوتو رسم أُمًا ورضيعًا.

الفصل الثانى

بدا أن تغيراً رائعًا قد حدث قبيل ذلك كما لو أن الفن قد وُلد من جديد، فبالنسبة إلينا فإن عمل جيوتو ما زال جامداً وغريبًا ولكن بداية الصور الجميلة كانت فيه .

لم يرسم جيوتو صوراً فحسب بل عمل أيضًا على الرخام، فإذا ما سرتَ عبر شوارع فلورنسا مدينة الزهور فلسوف ترى زهرتها الأجمل ... برج الجرس -Campa nile أو " برج يوتو" كما يسمى... واقفًا هناك بكل رشاقةٍ وجمال كسوسنة بيضاء يشير إلى السماء وإلى الولد الراعى بثقة كبيرة وعميقة !

يدعو إلى العمل الجيد يومًا بعد يوم مثلما حدث تمامًا مع جيوتو حين صممه وأسهم فى بنائه من مئات السنين .

عد البعض أعماله جامدة وقبيحة لأن الجميع لا يملكون العين البصيرة ليروا جمال أعماله ولكن جمال هذا البرج واضح فى سهولة للجميع .

هناك يحوم الحمام الأبيض ثم يحط على محاريبه التى حُفرت أقواسًا رقيقة، وهنالك عند نداء جرسه يهرع إخوان الرحمة ذوو الأردية السوداء إلى أعمالهم الرحيمة، وهنالك يلهو الأطفال الصغار أيضًا ويتوقفون حينًا ليحدقوا فى الصور الرخامية والتى أقيمت منخفضة مما يُسهل رؤيتها من الشارع وربما كانت الصورة المفضلة لهم لراعٍ يجلس تحت خيمته وأمامه أغنامه والكلب الصغير المضحك الذى يرقبها .

أحب جيوتو الحيوانات حبا عظيمًا وكان يضع واحداً منها فى ركن ما من صوره كلما تيسر له ذلك .

كان جيوتو فى الستين من عمره حين صمم بناء البرج وقطع بعض الصور الرخامية بيده، ويمكنك أن تلمح أن ذكريات الأيام الخوالى ما زالت معه حينما كان يجرى حافى القدمين على التلال يرعى أغنامه !!

و لكن جرواً صغيراً آخر - على الأغلب - كان يلهو معه فى تلك الأيام البعيدة قبل أن يُصبح رسامًا عظيمًا ، و ما زال الولد المرح ذو الوجه البنى يرسم الصور بحجر حاد على صخرٍ ناعم .

يذرع الرسام العظيم شوارع فلورنسا الضيقة جيئةً وذهابًا الآن يشاهد وجوه المارة وما زالت عيونه ترسم صوراً لهم ولحيواتهم الحافلة تماماً كما اعتاد أن يفعل مع أشجار الزيتون والأغنام والسحب .

لم يكن أحد من الناس فى تلكم الأيام يبالى بأن يمتلك صوراً فى بيته . كانت جدران الكنائس فقط تزدان بهذه الرسوم؛ لذا فقد كانت الصور أو التصوير على الحائط بالجص Frescoes، كما كان يسمى، من الموضوعات المقدسة إما قصصًا من الكتاب المقدس أو حياة القديسين .

و لندرة الكتب آنذاك حيث لم يتسن للفقراء أن يتعلموا القراءة .

كانت هذه الجدران المرسومة بالجص هى الكتب المصورة الوحيدة التى يعرفونها .

يا للبهجة التى أحدثتها صور جيوتو آنذاك لجمهور الفقراء ؛ لقد نظروا إلى المسيح الرضيع جالسًا على ركبة أمه ملفوفًا فى قماطٍ مربوط .. تمامًا كواحدٍ من صغارهم مما جعله رضيعًا حقيقيا .

أشار الحكماء والذين تحدثوا معًا إلى النجم المشرق فوق رؤوسهم والذى بدا كأى نبيل من نبلاء فلورنسا وفى الخلفية جوادان ينظران بعيون حكيمة شغوفة تمامًا كما تفعل جيادهم .

جعل ذلك قصة الميلاد كما لو أنها حدثت بالفعل بدلا من الحكاية البعيدة التى لم تكن تعنى لهم الكثير .

لم تكن السماء بعيدة قط ولا العذراء، مما أكد اعتقادهم بأن العذراء امرأة حقيقية مثل نسائهم ، و أن اليسوع الصغير سيتوقف ليباركهم تماماً كما توقف ليبارك الرجال الحكماء فى الصورة !

كم بدت القصة القديمة للقاء آنًا وجوتشيم Anna and Jochim عند البوابة الذهبية حقيقية حين استطاعوا أن يحدقوا فى وجهيهما المقدسين عبر ممر البوابة الضيق .. لا قديسين خياليين بل زوج وزوجة بسطاء ، يلقى كل منهما الآخر مبتهجاً بعد افتراقٍ حزين .

و مع ذلك أيضًا يحلق ملاك عاليًا ويضع يدًا على رأسيهما بلمسةٍ سماوية .

لم تكن أعمال جيوتو فى فلورنسا وحدها؛ لكن شهرته اتسعت وامتدت بعيداً ومضى من مدينةٍ إلى أخرى يرحب به الجميع بكل شوق .

يمكننا تتبع خطواته أينما ذهب عن طريق صوره القديمة والتى بسطها بكل عنايةٍ وحب على الحوائط العارية للكنائس، عاليةً كما لو كانت أستارًا تخفى السماء عن أنظارنا وتجلب بعض أفراحها إلى الأرض !

حينئذ غطى الحوائط فى أسيسى Assisi وغطى السقف برسوم الجص الرائعة لحياة القديس فرانسيس .

أيضًا التافهة الصغيرة آرينا تشابل Arena Chapel والتى تأنقت داخل صورةٍ لحياة المسيح .

عاشت المدن الإيطالية فى حياة جيوتو فى قتالٍ دائم ودائمًا ما دار قتالٌ ما فى مكانٍ ما .

لقد بُنيت المدن مسورةً وأُغلقت البوابات ليلا لحمايتـها من أعدائها ولكـن غالبًا ما دار القتـال بين العـائلات داخل المدينة وبُنيت القـصـور القـديمة العـابسـة فى الشـوارع الضيقة عاليةً قويةً ليسـهل الدفاع عنها .

عـاش جيوتو هادئًا آمنًا وصـديقًا للجـميع وسط هـذا القتـال والشـجـار ، و لم يكن عدوا لأحدٍ .

أرسلت له المدن المتنافسـة ليرسم لها كنائسـها برسـومـه السـماوية المقـدسـة ونسـى الذين كرهوا فلورنسا أنه فلورنسى ، لقد كان جيوتو فحسب بالنسبة إليهم ، ولقد كان ينتمى إليهم جميعًا .

لقـد كانت فرشـاته هـى راية الهـدنة البـيـضـاء التى جـعلت الرجـال ينسـون شـهـوة الغضب والقتال ، و حولت أفكارهم لأشياء مقدسة .

حتى أن الشاعر العظيم دانتى **Dante** لم يأنف أن يصبح صديقًا للرسام الريفى !

ومـا زالت لدينا الصـورة التى رسـمـهـا جـيـوتو له بالجص على حـائط قـديم فى فلورنسا .

وأخيرًا ، وحين افـتـقر الشـاعـر العظيم وابتـأس حـاله ونُفى قابله جيوتو فى مـدينة بادو **Padua** وحـاول أن يُسرى عنه ويُنسيه بعضًا من تلك الأيام الحزينة والمريرة والتى تضج بالظلم والكفاح .

الفصل الثالث

حين اتسعت شهرة جيوتو حدث أن أراد البابا أن يزين جدران كاتدرائية القديس بيتر Cathedral of St.Peter ؛ فأرسل رسلا إلى كل أنحاء إيطاليا لينقبوا عن أعظم فنانى إيطاليا ليدعوهم ليؤدوا هذا العمل .

ارتحل الرسل من مدينة إلى مدينة وطلبوا من كل فنان نموذجًا من أعماله ففعلوا بفرحٍ عظيم؛ لأن ذلك يُعد شرفًا عظيمًا لهم أن يجملوا كاتدرائية القديس بيتر .

وسرعان ما أتى رسل البابا إلى جيوتو وأخبروه بمهمتهم وأن البابا يرغب فى رؤية أحد رسومه ليحكم عما إذا كان جيوتو مناسبًا لهذا العمل ،كان جيوتو لطيفًا دائمًا ومجاملا فالتقط ورقةً وقلمًا من الرصاص ببطء وغمس القلم فى حبر أحمر وأراح كوعه إلى جنبه وبدورة واحدة من يده رسم دائرةً تامةً جدا وكانت أُعجوبة للنظر وقال مبتسمًا وهو يسلم اللوحة لرسول البابا :

- إليك هذا الرسم !

سأله الرجل وهو يحملق فى الدائرة الحمراء فى حيرةٍ وامتعاض :

- أهذا فقط ما يجب أن آخذه ؟

قال جيوتو وهو يناوله إياه براحته :

- هذا كافٍ ووفير !

اعتقد رسل البابا أن هذه مزحةٌ من جيوتو وقالوا :

– كم سنبدو أغبياء إذا ما أخذنا حرف (O) مستديراً لنريه لقداسته !

لكنهم لم يحصلوا على شيء آخر من جيوتو فكانوا مضطرين لأن يقنعوا برسمه ويرسلوه مع الرسوم الأخرى آخذين في الحسبان أن يشرحوا كيف حدث هذا ..!

فحص البابا ومستشاروه جميع الرسوم بعناية وحين أتوا على حرف (O) المستدير عرفوا أن يد رسام واحد تستطيع أن ترسم مثل هذه الدائرة الكاملة دونما استخدام البوصلة، و دونما لحظة تردد قرروا أن جيوتو هو الرجل الذي يريدون، وفي الحال وجهوا إليه الدعوة إلى روما ليزين حوائط الكاتدرائية .

و حين عرف الناس بالقصة أصبحوا أكثر فخراً من ذي قبل برسامهم العظيم وأضحى حرف (O) المستدير مضرباً للمثل في توسكاني **Tuscany** منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا !

" مستدير كحرف (O) هل ترى ؟ " مما كان يعني أنه هكذا تتم الأشياء .

حين كان جيوتو في نابلس **Naples** بعد ذلك وبينما كان يرسم في قلعة الكنيسة ذات يوم حار وأتى الملك ليشاهده أثناء عمله، وكان الجو حاراً بحيث لا تستطيع أن تتحرك تقريباً ومع ذلك كان جيوتو يرسم بشغفٍ كبير فقال له الملك :

– جيوتو ! لو كنت مكانك لأوقفت الرسم لبرهةٍ وأخذت قسطاً من الراحة فإن الجو حار جدا !

رد جيوتو :

كنت سأفعل بكل تأكيد لو كنت مكان جلالتكم .

ولقد كانت سرعة بديهة جيوتو وابتسامته المرحة التي فتنت الجميع ما جعله الرسام المفضل عند الغني والفقير على حدٍ سواء .

هنالك العديد من الحكايات العظيمة التي تُروى عنه والتي تبين كم كان لطيفاً .

يُحكى أنه وقف ذات يومٍ فى أحد الشوارع الضيقة بفلورنسا وهو يتحدث بحرارة إلى صديق حين أتى خنزير مندفعًا بسرعةٍ هائلة ودون أن ينظر إلى أين يندفع ولكنه اندفع يمينًا فى اتجاه أرجل الرسام فطرحه أرضًا على ظهره واضعًا نهايةً لحديثه !

حبا جيوتو على قدميه وابتسم آسفًا وأشار بإصبعه إلى الخنزير الذى اختفى بسرعة وقال :

– حسنًا إن له الحق مثلى تمامًا فى الطريق إلى جانب كم من الأشياء الثمينة تعلمتها من الخشنين ولم أنل شيئًا منها من الأسرة حتى ولا قطرة حساء كأجرة ..!

كان جيوتو يمضى راكبًا إلى الريف ذات مرةٍ بصحبة محام ليعتنى بأملاكه، حيث إنه عندما توفى والده بوندون ترك كل حقوله ومزرعته لابنه الرسام، فهبت عاصفةٌ فانصب المطر غزيرًا كما لو كان لن يتوقف أبدًا فاقترح عليه جيوتو قائلا :

– لنأوِ إلى هذا البيت الريفى ونستعر معطفًا !

فدخلا واستعارا معطفين من الفلاح صاحب البيت ولفا نفسيهما من الرأس إلى القدم ثم امتطيا جواديهما وعادا معًا إلى فلورنسا .

فنظر المحامى إلى جيوتو محدقًا واندفع ضاحكًا – فلقد انساب المطر من قبعة الرسام وكان ملطخًا بالوحل وجعله المعطف القديم يبدو كشحاذ جد بائس – وقال : هل يعتقد أو يصدق من يقابلك الآن أنك أفضل رسام فى العالم ؟!

لمعت عينا جيوتو وهو ينظر إلى المنظر المضحك للذى يركب بجواره حيث كان المحامى صغير الحجم وظهره منحنٍ وكان ملتفًا فى المعطف القديم حتى بدا كصرة أسمال بالية فأجاب جيوتو :

– نعم بالتأكيد كل واحد سيصدق أننى كنت رسامًا عظيمًا ولكن أولا فليقنع نفسه أنه لا يعرف " الحروف الهجائية " .

من كل هذه القصص نلمس لمحات من طبيعة الرسام اللطيفة وحبه للدعابة وإجاباته السريعة وسرعة بديهته ونتذكر دومًا أنه كان يملأ العالم بالجمال والذى مازالت كنوزه إلى اليوم تساعدنا لنبذر بذور هذه الشجرة العظيمة للفن ، التى تفتحت فى السنوات الأخيرة .

وحينما أنهى عمله الأرضى فى كاتدرائيته الخاصة "ST. Mary of the Flowers" "القديسة مارى المزهرة" وضعوه لكى يستريح، وحزن عليه الناس كصديق طيب وفنان عظيم .

هناك يرقد فى ظل برج السوسن ذى الرخام الذى يحفظ ذكرياته من مدينته الجميلة فلورنسا بكل رقة وخفة .



لوحة استراحة / من أعمال جيوتو

RELIEF IN MARBLE BY GIOTTO



دانتي أليجيرى / بريشة جيوتو ١٢٦٦ - ١٣٣٦

Dante Alighieri



تمثال جيوتو بالقرب من أوفيزى

Statue of Giotto di Bondone, close to the Uffizi

فرا أنجيليكو Fra Angelico

١٤٤٥ - ١٣٨٧

الفصل الأول

مر ما يقرب من مائة عام منذ عاش جيوتو فى فلورنسا، وفى ذات الريف ذى التلال حيث اعتاد أن يرعى أغنامه وُلد رسام عظيم آخر .

جاء العديد من الفنانين وذهبوا وأضافوا حلقات ذهبية من الجمال إلى سلسلة الفن التى ربطت كل هذه السنين .

يوما ما ستعرف أسماءهم وستعرف ما فعلوا ،و لكننا الآن سنعرض للقليل من هذه الأسماء والتى ربما كانت أعظم من غيرها .

عندما نجيل أبصارنا فى السماء المرصعة بالنجوم ذات ليلة صافية سيتداخل علينا الأمر إذا حاولنا أن نتذكر كل النجوم، لذا فإننا نتعلم أن نعرف هؤلاء الأكثر شهرة – المحراث The Plough أو الدب العظيم Great Bear – وهى تشرق بضوئها الدائم مقابل آلاف النجوم الأصغر من خلفها .

الرسام العظيم والشهير فرا أنجيليكو Fra Angelico ؛ ولكن هذا الاسم هو الذى عُرف به فى السنوات الأخيرة حيث كان يسمى جايدو Guido فى الصغر، و كانت قريته مجاورة للقرية التى ولد فيها جيوتو .

لم يكن فرا أنجيليكو فقيراً ولم يحتج إلى العمل فى الحقول أو رعى الأغنام على التلال ،و كان من الممكن فى الحقيقة أن يصبح غنياً ومشهوراً لموهبته فى الرسم والذى كان سيجلب له مزيداً من الشرف والثروة بسرعة لو أنه خرج للعالم .

و لكن بدلا من ذلك التحق بدير فى فيسول وهو بعد شاب فى العشرين من عمره ليصبح راهباً فى خدمة سانت دومينيك .

كل راهب أو أخٍ frate – كما كان يسمى – من الذين تركوا العالم ودخلوا حياة الدير Convent سمُوا بأسماء جديدة ؛ ولم يعد يعرف اسمه القديم ثانيةً .

فسمى الشاب جايدو بـ فرا جيوفانى أو الأخ جون ولكنه لم يُعرف بهذا الاسم قدر ما عُرف بـ فرا أنجيليكو أو الأخ الملائكى والذى عُرف به فيما بعد لحياته النقية والجميلة والصور المقدسة التى رسمها .

لقد ودع المتع الأرضية بكل الهدايا التى فى يديه ،بكل سنوات الشباب والسرور والتى امتدت خضراء صافية أمامه واختار أن يخدم سيده المسيح بالطريقة التى رآها .

كان راهبو سانت دومينيك Saint Dominic أعظم المبشرين آنذاك .. حاولوا أن يجعلوا العالم أفضل عن طريق إرشاد الناس إلى ما يجب أن يفعلوه وحاولوا تعليمهم إلى جانب إرشادهم وتبشيرهم .

وكان الراهب الشاب الذى قضى عمره منحنيًا أمام كتاب الصلوات المفسر بعينيه الحالمتين بمرأى الرهبان مكتسيًا لون الملائكة الأبيض، وكان يعد نفسه لأن يصبح معلمًا أعظم من الجميع .

مضت كلمات وتعاليم الرهبان المبشرين بعيدًا وأعارهم العالم قليلا من الاكتراث ولكن تعاليم فرا أنجيليكو ودروسه الصامتة من خلال صوره الرائعة حية وواضحة اليوم كما كانت فى السنوات البعيدة الماضية .

" كانت هناك مشكلة كبرى للرهبان فى الدير بمدينة فيسول Fiesole الذى دخله فرا انجيليكو وأخوه .. ثمة صراع عنيف كان يدور فى إيطاليا بين الجماعات الدينية ، واضطرت فرقة التبشير إلى أن تترك موطنها الآمن فى فيسول لتبحث عن مأوى آخر فى المدن الأخرى .

ولكنها كانت فرصة طيبة للراهب الرسام الشاب ليتجول فى المدن ذات التلال فى أمبريا Umbria حيث بحث الإخوة عن ملجأ وحيث كانت هناك صور تُدرس أبهجت عينيه بجمالها ،وعلمته العديد من الدروس التى لم تتسن له على المنحدرات الهادئة فى الجبال .

لا تزال مدن التلال فى إيطاليا على ما كانت عليه فى الماضى ... طرق طويلة ملتفة تقود إلى أعلى من أسفل السهل إلى بوابات المدينة ، و هناك بُنيت المدينة الصغيرة على التل وتجمعت البيوت الصغيرة مكوِّنة عنقوداً وبدت رفارف الأسطح كأنها تتلاقى عبر الشوارع المرصوفة ودائمًا ما يوجد الميدان الكبير والكنيسة التى تتوسط الجميع .

كانت رحلة يومية تقريبًا للرسام أن يتبع الطريق الأبيض الذى يقود من بيروجيا Perugia عبر السهل إلى مدينة التل الصغيرة فى أسيسى Assisi ولقد شهدت صباحات ربيعية عديدة راهبنا الرسام خارجًا على حماره من ديره قبل شروق الشمس وعائداً حين تغرب .

كان الراهب يسلك طريقه صاعداً بين أشجار الزيتون حتى يصل إلى بوابات المدينة داخلا إلى المدينة الصغيرة دونما أى عائق .

أما هؤلاء التابعون من سانت فرانسيس فى زيهم البنى فلقد كانوا مسرورين لدى ترحيبهم بالراهب الغريب مع أن رداءه الأسود يوضح أنه يخص طائفة أخرى ولم يكن يُمنع من الدخول كل من أتى ليرى مجد المدينة وكنيستها حيث يرقد قديسهم والتى غطاها جيوتو بصوره الرائعة .

كم مرة كان على فرا أنجيليكو أن يجثو على ركبتيه فى العتمة فى تلك الكنيسة فى أسيسى مُلقيًا دروسه تمامًا كما كانت عادته ، ثم يسلك طريقه عائداً إلى موطنه ، وقد امتلأت عيناه بمرأى الصور الجميلة وتاقت يداه إلى القلم الرصاص والفرشاة لعله يضيف جمالا جديداً إلى عمله مما تعلمه .

مرت سنوات عدة حتى سُمح فى النهاية للإخوة بالعودة إلى موطنهم بدير سان دومينيك St.Dominic فى فيسول وعاشوا هناك آمنين لزمن طويل .

لا يمكننا أن نجزم ما هى الصور التى رسمها راهبنا الرسام أثناء تلك السنوات الآمنة ولكننا نعرف أنه لابد وأنه كان ينظر بعين حكيمة متشربًا كل هذا الجمال الذى امتد حوله .

الفصل الثانى

حين وطأت أقدامه فلورنسا بأبراجها وقلاعها كان نهر أرنو Arno يجرى خلالها كخيط من الفضة وبعيداً كانت التلال الأرجوانية لتوسكان ، كان كل ما رآه حول مأواه في التل كروماً خضراء وأشجار فاكهة وزيتون وأشجار سرو ، تبرق الحقول فى الربيع بشقائق النعمان القرمزية أو الذهبية مع أزهار التيوليب Tulips Yellow الصفراء وحواف أغصان الورد مغطاة بعناقيد من الزهور الوردية .

لا غرو أن يتعمق هذا الجمال في قلبه ونرى فى صوره ألوان أزهار الربيع النضرة بلا أى ظلال لظلمة أو شرور .

وسرعان ما بدأ الهمس بشهرة الرسام خارج جدران الدير حتى وصلت إلى آذان كوزيمو دى ميديسى Cosimo da Medici أحد الحكام الأقوياء لفلورنسا فعرض موطناً جديداً على الرهبان وعندما استقروا فى دير سان ماركو فى فلورنسا دعا فرا أنجيليكو ليرسم الجدران بالجص .

رُسمت الصور المقدسة صورةً بعد صورة على حوائط الدير وصوامع الموطن الجديد.

ولكم تجمع الإخوة الرهبان والتفوا حوله ليشهدوا كل رسم جديد بمجرد أن ينتهى ،وكم كانوا قلقين لمعرفة أيِّ الصور ستكون الأقرب إلى فُرشهم من الرسوم الجصية وعما إذا كان قد رسم العذراء اللطيفة منحنيةً أمام الملاك الرسول، أو هل حاول أن يبين مجد الإله الصاعد .

كان الراهب الفنان دائمًا ما يقدم واحدًا أو أكثر من قديسى الدير الخواص مما جعل الإخوة الرهبان يشعرون بأن الصور تخصهم جميعًا .

كان فرا يتحدث بلطف ويبتسم دائمًا للإخوة الرهبان وكان صبوراً ولم يُر غاضبًا أبداً لتواضعه ولطفه تماماً كالقديسين الذين أحب صورهم ورسمهم .

يُحكى أنه لم يمسك بالقلم والفرشاة دونما صلاة لأن عمله من أجل الرب وغالبًا ما كانت تُرى الدموع على وجنتيه وهو يرسم معاناة المسيح .

تُحكى أسطورة قديمة عن راهب كان يُفسر صفحةً من كتاب صلوات القداس إذ نودى أن يفعل شيئًا من أجل الفقراء ثم ذهب دونما إرادة منه - كما تقول الأسطورة - ليضع اللمسات الأخيرة على الصورة المقدسة التى كان يرسمها ، و لكنه عندما عاد وجد أن عمله قد تم على يدى ملاك !

غالبًا ما نتذكر هذه الأسطورة عندما ننظر إلى أعمال فرا أنجيليكو ونشعر أن يدى هذا الملاك ربما ساعدته كثيراً !

تُرى هل لامست عينيه اللتين التقطتا لمحات من السماء حيث كان القديسون يؤرجحون مباخرهم الذهبية والملائكة ذوو الأردية البيضاء يرقصون فى رياض الجنة المزهرة !

لا يمكننا أن نجزم ولكننا نعرف أنه لم يعرض لنا رسام آخر مثل هذه الأشياء السماوية المجيدة !

كان عشق الرسام الأثير هو أن يرسم لنا صوراً من حياة المسيح !

وفى الصورة التى نعرضها لك سوف تلحظ العناية الحنون التى رسم بها رأس المسيح الوليد مع هالته الذهبية الصغيرة بينما العذراء مريم فى حلتها الصافية الزرقة ممسكة بالرضيع بين ذراعيها وكان البستانى سان جوزيف يمشى إلى جانبها والأزهار والأشجار من حولهم تلك التى أحبها كثيراً فى منزله الهادئ فى فيسول .

لم يأبه رسام الملائكة الحالم بالشهرة أو القوة وحينما دعاه البابا إلى روما لكى يرسم جدران الكنيسة لم يعبأ بالمجد والشرف أكثر من لو أنه دُعى ليرسم صومعةً فى سان ماركو !

و لكن عندما رأى البابا صنيعه هذا استدعاه إليه وقال له :

– الرجل الذى يستطيع أن يرسم هذه الصور لابد وأن يكون رجلا صالحًا وسيفعل كل ما يُعهد به إليه ، هل تؤدى لى عملا آخر من أجلى وتصبح مطرانًا Arch-bishop فى فلورنسا ؟

و لكن الرسام أجفل قائلا :

– لا يمكننى أن أعلم أو أُبشر أو أحكم !

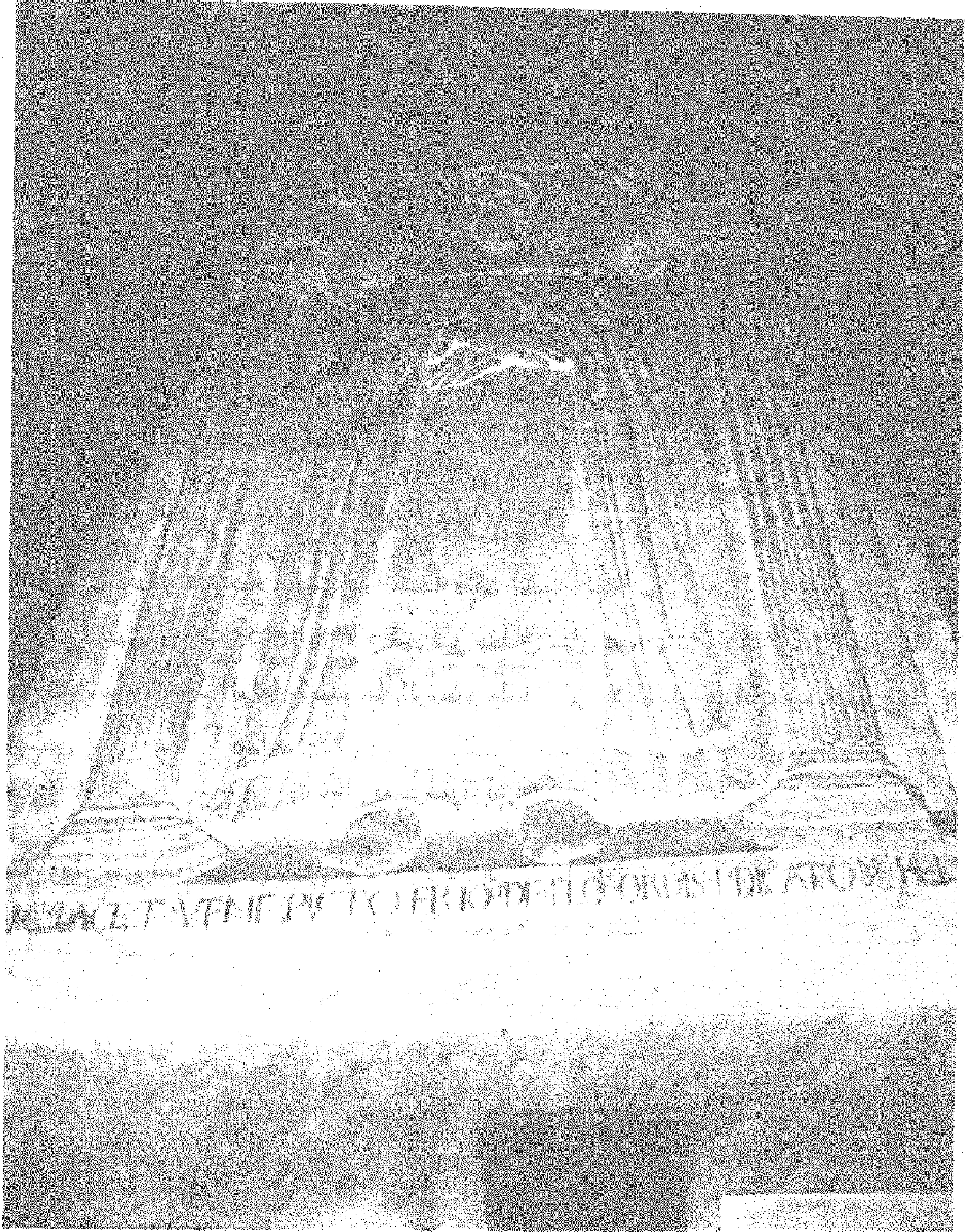
و مع ذلك لم يحظ بالشرف لنفسه فلقد أخبر البابا عن راهبٍ متواضع وصديق له – فرا أنتونيو Fra Antonino – فى دير سان ماركو San. Marco وكان هذا العمل يناسبه جدا فأخذ البابا بنصيحة الرسام ولقد كان الاختيار صالحًا وحكيمًا وما زال الناس إلى يومنا(١) هذا يتحدثون بكل الحب عن مطرانهم الصالح أنتونيو .

مات فرا أنجيليكو بينما كان يواصل عمله فى روما لذا فلم يرقد جسده فى محبوبته فلورنسا ، ولكن حتى لو كان يرقد فى روما فإن روحه ما تزال تحلق حول الدير القديم فى سان ماركو وهناك نتعلم كيف نعرفه ونحبه أكثر .

العجيب أنه بعدعصور قد نقبوا عنه كقديس ومنحوه اسم " بيتو " Beato أو الملاك الرسام المبارك .

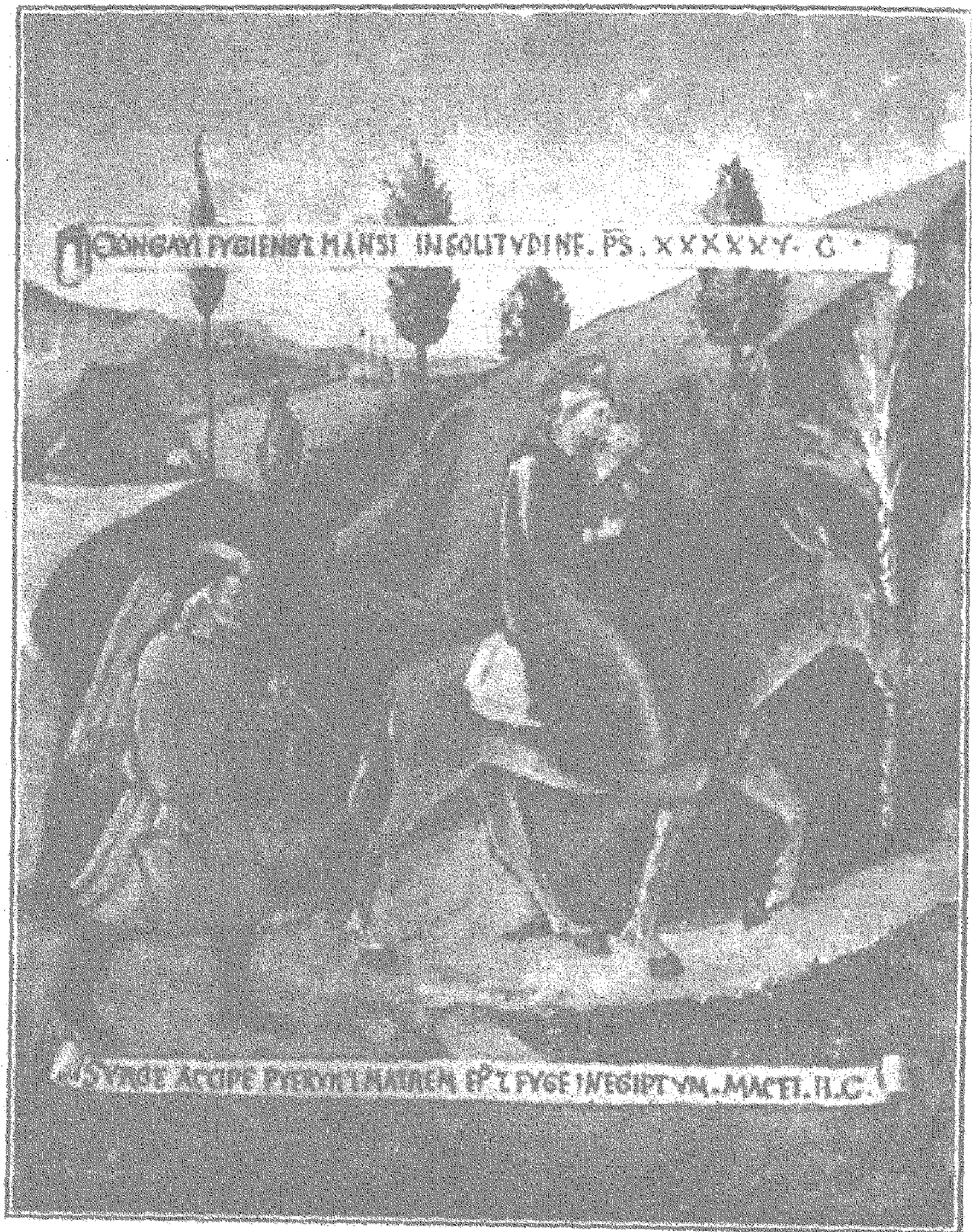
---

(١) تعبير يومنا هذا تكرر ويتكرر فى الكتاب، لذا نشير فى الهامش إلى أن الزمن حاضره وماضية يرتبط بزمن الكتاب الأصلى وينص على تاريخ طبع الكتاب للمرة الأولى ، فيومنا هذا ليس هو اليوم الآن بل هو يوم المؤلفة .(المترجم)



صورة لمقبرة فرا أنجيليكو في سانتا ماريا سوبرا منيرفا

Rome، Santa Maria sopra Minerva ،Tomp of Fra Angelico



الرحلة إلى مصر

Flight to Egypt

ماساتشو Masaccio

١٤٠١ - ١٤٢٨

لابد وأنه فى ذات الوقت الذى كان فيه فرا أنجيليكو يغطى جدران سان ماركو بصوره الملائكية ، كان رسام آخر من طراز مختلف يعمل فى كنيسة كارمن Carmen Church فى فلورنسا.

لم يكن راهبًا مهذبًا ولطيفًا ولكن رجلا عاديًّا ذا طبيعةٍ طيبة وصعبة كما يبدو من صوره التى رسمها .

اهتم بالقليل فقط حيث كان ينسى حتى أن يطلب أجره حين كان عمله ينتهى، ليعتنى بملابسه أو نظامه الشخصى، فتلك أشياء لم يعرها تفكيره ولم يرهق فيها ذهنه .

و يا للمتاعب التى سببها لأمه حين كان صبيًّا !

فلم تكن هناك فائدة من إرساله فى مهمة ؛ حيث إنه ينسى تلك المهمة قبيل أن يبتعد مائة ياردة !

لقد كان مهملا جدا وغير منظم إلى حد يفقد معه أىُّ شخص صبره ،و لكن فقط أعطه قلمًا رصاصًا وسطحًا رقيقًا ليرسم عليه ؛ إنه ولدٌ مختلف .

فى المدينة الصغيرة كاستيللوسان جيوفانى Castello San Giovanni وعلى بعد ثمانية عشر ميلا من فلورنسا Florence حيث وُلد توماس ما زالت هناك أشكال رائعة مرسومة بيده وهو بعد ولد صغير تمامًا .

و من المؤكد أن عمله لم يعرف الإهمال ولا عدم النظام .

يقولون : اذهب وشاهد الرسام توماس والشكل الكبير الصعب يجتاز الشوارع وشاهد طريقته فى العمل ، إنه لا يلتفت إلى مظهره حقًّا ، انظر إلى شعره الأشعث وحذائه ذى الثقوب !

و يقول رجل آخر :

– إذا ما دفع الناس ما يدينون به له سيملك الذهب الذى يكفيه ولكن الذى يعنيه أن يملك أدوات الرسم !

إن اسم ماساتشو Masaccio يناسبه أكثر من توماس ، لذا فإن اسم ماساتشو أو توم القبيح هو الذى عُرف به الرسام .

لم يخطر ببال أحد هذا المعنى غير اللطيف لاسمه اليوم ؛ حيث إن اسم ماساتشو يُعد شرفًا كواحدٍ من أعظم الأسماء فى تاريخ الفن .

هذا الرسام مهمل فى أشياء عديدة؛ فلقد أعار قلبه وروحه لعمله الذى اختاره ، وبدا له أن الرسامين دائمًا يفشلون فى أن يجعلوا حياتهم جميلة كصورهم .

كانت الصور التى رسموها مسطحة ، و ليست مستديرة كما يجب أن يكون الوجه، وغالبًا ما كانت الأقدام لا تبدو كما هى عليه عندما تكون واقفة ولكنها رُسمت متدليةً كما لو أنها معلقة فى الهواء، لذا فلقد عمل بالضوء والظلال ورسم الوجوه بعنايةٍ حتى بدت مستديرة بدلا من كونها مسطحةً وكانت الأقدام التى يرسمها مزروعةً بثبات على الأرض، ولقد أخذ نماذجه من شبان فلورنسا المألوفين والذين كان يراهم يوميًا فى مرسمه ولكنه رسمهم كما لو أن أحداً لم يرسمهم من قبل .

أيضًا بدت المبانى التى رسمها حقيقيةً وليست مسطحةً كما هى فى الصور .

كذلك رسم بالجص فى فلورنسا وروما .

هذا هو توم القبيح ، و لكن الناس أولوه كثيراً من الشرف آنذاك ؛ لقد اعتبروه رفيقًا صعبًا وكبيراً برأسه التى كانت دائمًا فى السحب .

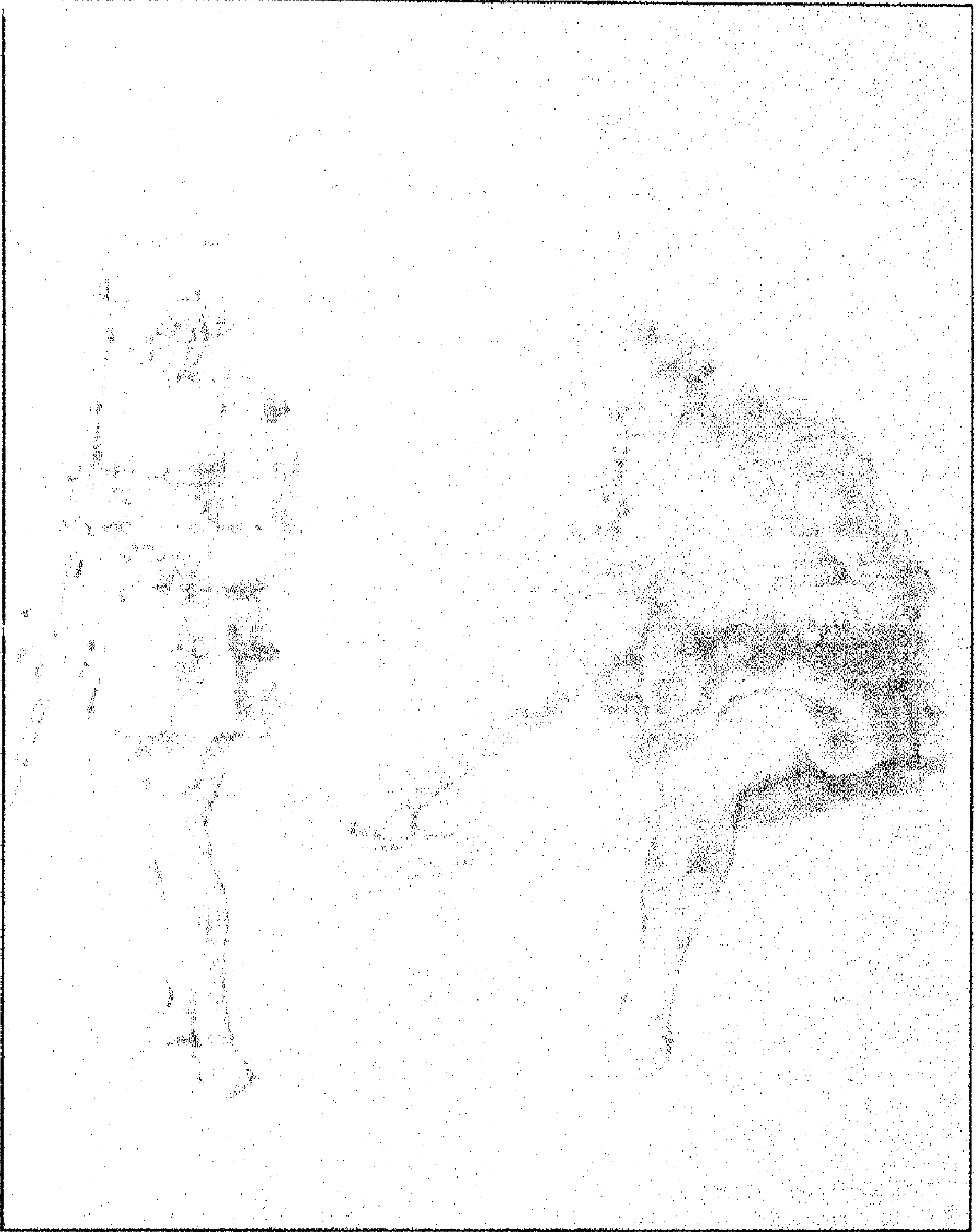
ربما لو عاش أطول لعُرف واشتهر وأثرى أكثر، لكنه مات ولم يزل شابًا صغيراً .

القليلون فقط هم الذين عرفوا كم كان عظيمًا !

و لكن بعد سنوات، سنة تلو سنة سيأتى كل الفنانين العظام إلى الكنيسة الصغيرة كارمن ليتعلموا دروسهم الأولى من هذه الوجوه التى تبدو حيةً... لا سيما إذا ما توقفوا أمام صورة الجص التى تعرض قسيسًا يُعمِّد جمعًا من الناس، وفى هذا

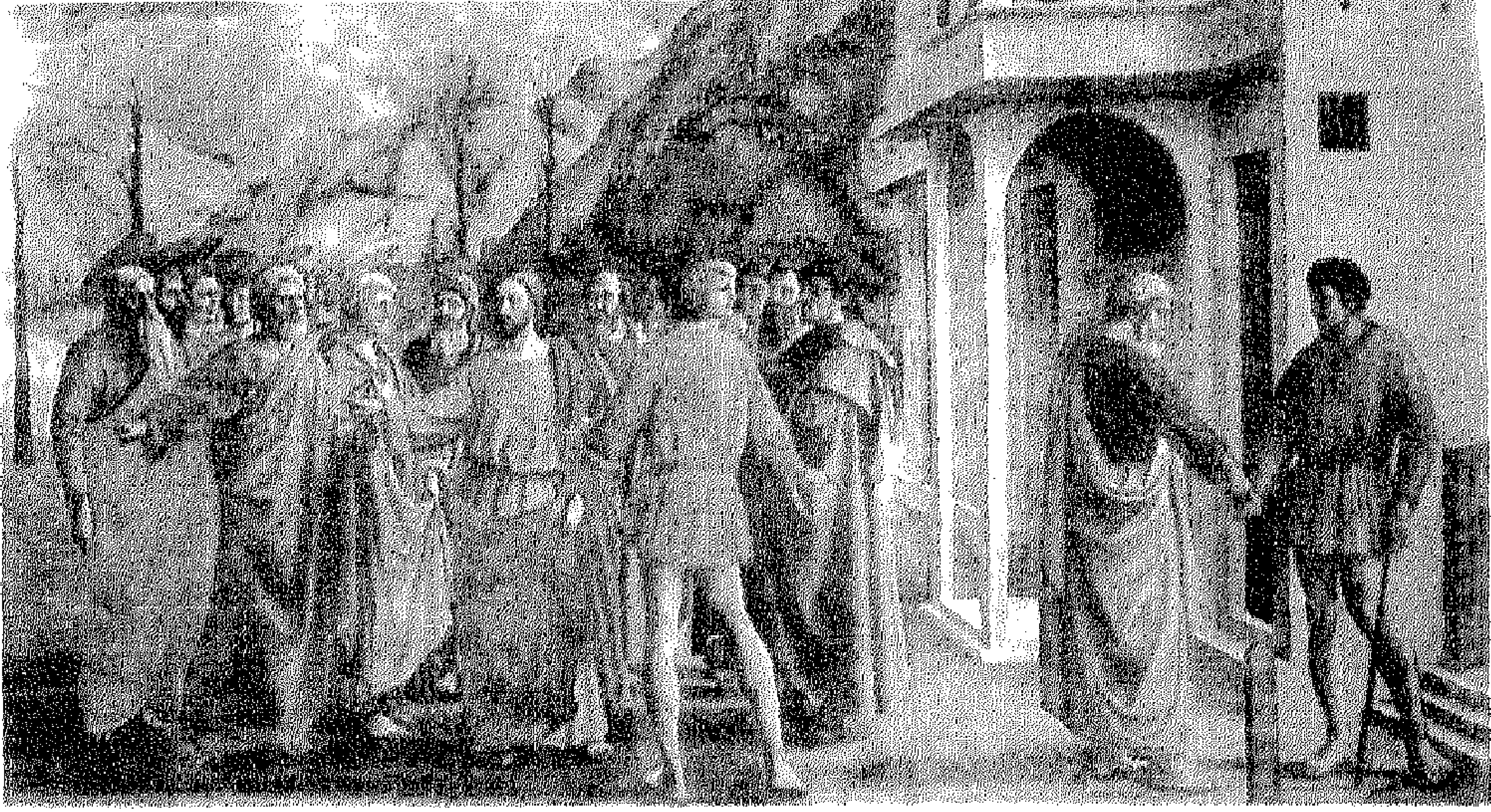
الرسم سيدرسون أكثر وجه الولد الذى يخرج من المياه مرتعداً من البرد ، إنها أكثر الأشياء طبيعةً فيما رُسم إلى الآن!

إن كل الأشياء تُعلمُ شيئًا فشيئًا وكل شيء نتعلمه هو خطوة للأمام ،لذا فإن شكل الولد المرتعد من البرد خطوة كبيرة فى السُلم الذهبى للفن أكثر من أىٍّ الأشكال التى لمسناها من قبل وهذا الشكل وحده جعل اسم ماساتشو يستحق أن يوضع فى قائمة أعظم الرسامين فى العالم .



لوحة لماساتشو

Drawing by Masaccio



لوحة الجزية من أعمال الفريسكو لماساتشو فى سانتا ماريا وفيها نرى القديس بيتر أقصى اليمين يدفع الضريبة لجامع الضرائب .

The Tripute money Fresco in Santa Maria Brancacci chapel in Santa Maria del, Carmen , Florence

فرا فيليبو ليبى Lippi Fra Filippo

١٤٠٦ - ١٤٦٩

الفصل الأول

كان الوقت شتاءً فى فلورنسا وهبت الريح الثلجية من فوق الجبال جارفةً الجليد إلى الشوارع الضيقة باحثةً فى كل زاويةٍ وركن بنسيمها الجليدى ولف الرجال معاطفهم حولهم جيداً وأدلوا قبعاتهم على أعينهم ولم يتركوا سوى أطراف أنوفهم مكشوفةً للريح لتجمد .

أما النساء فأقمن قدوراً صغيرةً من الفحم النباتى بالقرب من شيلانهن، وحتى الكلاب كانت لها نظرة نصف حزينة متجمدة، وتاق الجميع إلى رياح الربيع الدافئة وحرارة الصيف التى أحبوها ، لقد كان هذا الشتاء سيئًا بما يكفى بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم ملابس شتوية ووافر من عصيدة الذرة ولكن بالنسبة للفقراء فلقد كانت الحياة صعبة جدا فى تلك الأيام الشتائية الباردة .

فى أحد الشوارع الضيقة وفى مدخل بيت عظيم كان ولد صغير يجثو خلف حجرٍ من أحجار الأعمدة ممسكًا به ليفلت من قبضة الريح وقد التف معطفه حوله ولكنه كان ممزقًا ومهترئًا وبالكاد يغطى الصبى النحيل .

كانت شفاه الولد زرقاء ترتعد برداً وامتلأت عيناه بالدموع .

لم يلق فيليبو Filippo العالم بوجه حزين دومًا، فعادةً ما كانت عيناه السوداوان تتلألآن بالمتعة والأذى وامتد فمه فى استهزاء مرح .

و لكن كانت هناك أشياء تستحق أن يتذكرها اليوم أكثر من ذى قبل ، و كان فى وسعه تذكر الأوقات العصيبة أيضًا إذا ما حاول .

كان لدى الأطفال الآخرين آباؤهم وأمهاتهم الذين وفروا لهم الطعام والملابس ، ولكنه بدا مختلفًا تمامًا فلم يكن لديه أبدًا من يهتم به كسائر الأولاد .

عمته العجوز كانت تُدعى منى لاباتشيا Mona Lapaccia والتى قالت إنه كان لديه أبٌ وأمٌ كالأولاد الآخرين .

لكنها تضيف بايماءةٍ مُحزنة من رأسها أنها وحدها تحملت كل المتاعب والآلام فى تربيته حتى بلغ الثانية من عمره ، و كانت تقول وهى تجيل ناظريها فى السماء :

– القديسون وحدهم يعلمون ما الذى تحملته مع ولد جائع لأطعمه وأُلبسه .

بدا لـ فيليبو – فى تلك الحالة – أن القديسين يجب أن يعرفوا كم كان عليه أن يأكل وكم كان يشعر بالبرد فى هذه الأيام الشتائية ولكنهم بالطبع أكبر من أن يهتموا بطفلٍ صغير .

كانت الأحوال مختلفة فى الصيف ؛ فيمكن للمرء أن يمضى مرحًا فى شروق الشمس طوال اليوم ، و فى الليل يأوى إلى ركن بارد فى أحد الشوارع ، و عندما تُصبح الفرصة مواتية لالتقاط ما يؤكل فهناك الوفير من قشر الشمام الملقى فى الشوارع حين تتوافر الفاكهة وحيث يرمى الناس بقايا عناقيد العنب .

لقد كان رائعًا أن يقرأ فيليبو وجوه الناس ويعرف من الذى سيأتى على عنقوده إلى آخره ومن الذى سيُبقى فيه القليل !

كان البعض يبتسم حين يلتقط نظرات ترقب فيليبو ويصرخون قائلين : أمسك وهم يلقون عنقودًا جيدًا بين تلك الأيدى البنية الصغيرة والتى لن تدع شيئًا يفلت من بين أصابعها !

لقد كان الصيف جيدًا ولكن دائمًا ما كان هناك الشتاء واليوم هو جائع جدا وقشر الترمس الذى جمعه لإفطاره قد تناوله كله منذ وقت طويل .

لقد تعلق بالمحال التجارية الصغيرة – التى فتحت أبوابها – ليشم رائحة عصيدة الذرة المشوية ولكن أحداً لم يُعطه شيئًا ،وكل ما ناله هو العبوس فى وجهه كلما جازف بالاقتراب من الطعام المغرى .

كان يبلى بلاءً حسنًا إذا كان اليوم فقط يوم عيد، فحين يحمل القساوسة والناس شموعهم المضاءة حول الكنيسة يغدو إلى داخل الكنيسة وخارجها بمجرفته الحديدية الصغيرة ويرفع الشموع التى سالت على أرضية الرخام ويبيعها مرةً أخرى لصانعى الشموع .

ولكن لا مواكب اليوم وليس أمامه سوى أن يذهب للبيت ويرى إذا ما كان لدى منى لاباتشيا فائض من الطعام ، و ربما لاحظ القساوسة أنه جائع !

جرى فرا إلى الشارع لائذاً بالحوائط تمامًا كما تفعل الكلاب عند المطر حيث تأوى إلى ظل رفارف الأسطح المعلقة كما لو كانت مظلات فى الشارع العريض الذى يجرى إلى جانب النهر حيث تشرق الشمس بدفئها حتى فى الشتاء !

توقف فيليبو عند ركن بونت كاراجا Ponte alla Carraja ليشهد كفاح بغل يحاول أن يجر عربة أخشاب ضخمة ليصعد بها منحدراً مائلا على الكوبرى ؛ أثاره المشهد إلى حد أن أنساه للحظةٍ كم كان شعوره بالجوع والبرد حتى أنه صاح وصرخ فى الزحام واندفع داخلا إلى الزحام فى توق إلى المساعدة !

انتهت لحظة الإثارة فارتفعت معنويات فيليبو وجرى عبر الكوبرى وسلك طريقه إلى شارع فقير قاده إلى إحدى بوابات المدينة حيث بدا كل شىء أكثر قذارة وأشد كآبة وحيث لم يتوقع الترحيب .

صعد السلم ودفع الباب بحذرٍ ونظر خلسةً ، بدا وجه عمته غاضبًا ومعتمًا ، لقد كانت فقيرة مسكينة ولم يكن ثمة إفطار ولا طعام لديها إذ لم تنه عملها ،وها هو الولد المسبب للمتاعب قد عاد ثانيةً وقد ظنت أنها تخلصت منه اليوم ، فصاحت به :

– ابتعد .. لماذا عدت مبكرًا .. ابتعد وابحث عن معيشتك فى الشوارع !

قال الولد وهو يزحف على الحجرة الجرداء :

– الجو بارد جدًا وأنا جائع !

مدت ناظريها إلى السماء كما لو أنها تخاطب القديسين إذا ما أدهشتهم كلمة جائع ، إنها ذات القصة مع الطعام :

– والآن فليساعدنى القديسون فلقد تحملت هذا بما فيه الكفاية ، سأرى إذا ما كنت لا أستطيع أن أنقل هذا العبء إلى أكتاف أخرى !

ثم نهضت وربطت منديلها وأمسكت فيليبو من كتفه وهزته جيداً لتعلمه كم هو من الخطأ أن يتحدث عن كونه جائعًا ودفعته أمامها وهبطا السلم معًا .

راح الصبى يلهث وهى تجره بخفةٍ عبر الشارع ...

– انظر وسترى وأعمل عقلك واستخدم وسائلك !

جرى فيليبو قُدُمًا وأسرع قليلا مستمعًا إلى نصيحتها وهو يخمن ولكن ليس لديه فكرة عن هذه الوسائل .

هنا فى ميدان كارمن الكبير كثيراً ما زحف فى الكنيسة باحثًا عن الدفء وليرى تلك الصور الرائعة على الحوائط .

ومالت خطوات منى لاباتشيا تجاه الدير، وعندما دقت الجرس هزت كتف فيليبو هزةً أخيرةً ودفعت معطفه للأمام ومسّدت على شعره .

الفصل الثانى

سمح لهما راهب طيب وبدين بالدخول وقادهما عبر الممرات إلى حجرة رئيس الدير حيث كان جالساً يتناول غداءه فثبتت عينا فيليبو الجائعتان على قطعةٍ من الخبز على المنضدة وابتسم له رئيس الدير وهو يومئ له برأسه .

و لم يحتج فيليبو لدعوة أخرى فحط كطائرٍ على قطعة الخبز الأبيض ثم خطفها، وأمسكها فيليبو بين يديه وراح يمضغها بقلب راضٍ ؛ فمنذ متى لم يذق شيئًا كهذا ؟

لقد كان الخبز لذيذًا إلى حدٍ أنساه أين هو الآن؛ لقد نسى عمته والرجل العظيم الذى كان ينظر إليه بلطف .

ولكنه سمع اسمه واستدرك وانتبه لرئيس الدير الذى قال :

– إذن فهل يريد فيليبو أن يُصبح راهبًا ؟ لنر كم يبلغ من العمر إذن ؟

قالت منى لاباتشيا قبيل أن يجيب فيليبو الذى ما يزال فمه ممتلئًا بالطعام :

– ثماني سنوات .. قداستكم !

واستكمل رئيس الدير حديثه قائلا :

– هل ستتخلى عن كل شيء وتصير خادمًا للرب ؟

قبضت الأيدى البنية القذرة على الخبز فى فزعٍ ؛ فهل كان الرجل اللطيف يعنى أن يتخلى فيليبو عن رغيفه وهو بعد لم يأكل سوى نصفه ؟

صاح رئيس الأساقفة بإيماءةٍ مفهومة :

لا .. لا .. تناول الخبز يا صغيرى ولكننا سنجعل منك راهبًا طيبًا !

ومن ثم بدأت بالفعل أيام سعيدة لفيليبو؛ فلا معاطف رثة بعد الآن ولكن حلة من الصوف بنية دافئة مربوطة حول الوسط بحزام يقصر ويطول حسب الحاجة ، و لا قشور ترمس بعد الآن ولا روائح عصيدة ولكن طعام كافٍ ويفيض ، طعام لم يحلم به من قبل ومتوافر دومًا وليأكل قدر استطاعته !

كان فيليبو سعيداً طوال اليوم وذا روحٍ مرحة وحتى حين كانت الحياة صعبة والطعام نادراً، والآن لم يتغير وهو مع القديسين فى الجنة !

و بدا للإخوة الطيبين أنه قد آن الأوان لأن يفعل فيليبو شيئًا بالإضافة إلى اللعب وتناول الطعام ، فقالوا : لنر ما يناسب الطفل !

ثم دُعى فيليبو للجلوس مع الأولاد على أريكة الدرس ليتعلم الحروف الهجائية ، وكان ذلك عملا كئيبًا إلى درجةٍ مرعبة بالنسبة له ؛ فلم يستطع تذكر أسماء الإشارات الشاذة ولكن عرف أشكالها جيداً واستطاع رسمها بعناية فى كراسته ولكن أسماءها كانت كثيرةً جدا عليه، وكما حاول الرهبان الطيبون تعليمه اللاتينية فلقد حاولوا أيضًا تعليمه الرهبنة .

غابت كل الإشراقات عن وجه فيليبو لحظة وُضع أمامه كتاب وبدا كئيبًا وغبيًّا حتى يئس الرهبان منه وحينئذٍ بدأت الأمور تتحسن وفجاةً فقد فيليبو سمته الغبى بينما هو يقلب الصفحات ولمعت عيناه بالاكتراث !

صاح أخٌ راهبٌ لآخر وهو يلكزه قائلا :

– آها ... لقد وجد الفتى عقله أخيراً !

و لكن حنقهم وخيبتهم كانا كبيرين عندما نظروا من فوق كتف الفتى فبدلا من تعلمه دروسه .. راح يرسم أشكالا شاذةً حول هوامش الصفحة ؛ وأصبح للحروف الهجائية أنوف وعيون ، و نظرت بوجوهٍ عابسةٍ !

فالنوتة الموسيقية أصبح لها أرجل وأذرع وصارت ترقص كعفاريت سوداء صغيرة، أضحى كل شيء مشوهاً بالرسوم التى رسمتها أصابع فيليبو الصغيرة .

زاد ذلك عن الحد بالفعل وكان من المحتم أن يُؤخذ فيليبو إلى رئيس الدير فى الحال وقال الرجل اللطيف المسن :

– يا للعار ماذا أيضاً ؟! ماذا فعل الطفل ؟

قال الراهب وهو يهز إصبعه بعنف تجاه فيليبو الذى طأطأ رأسه :

– إننا لا نستطيع تعليمه شيئًا ، إنه لا يستطيع حتى تعلم الحروف الهجائية، إنه يتلف كتبه، نعم، بل يتلف الحوائط والمقاعد برسم مثل هذه الأشياء !

ثم أخرج الراهب الساخط الكتاب حيث كل الأشكال الشريرة التى تتراقص على الصفحة.

تناول رئيس الدير الكتاب وقرَّبه إليه ثم سأل الولد الذى وقف أمامه على قدمٍ واحدةٍ ثم على الأخرى وهو يلف رداءه بأصابعه :

– ما الذى يجعلك تصنع هذه الأشياء ؟!

نظر الولد وانفرجت أساريره عن ابتسامة وقال بصوت لطيف :

– فى الحقيقة .. لا أدرى إنه خطؤها ! ثم بسط أصابعه العشرة الصغيرة .

ضحك رئيس الدير وقال :

– إنهم يقولون بأنهم لن يصنعوا منك راهبًا ، ربما استطعنا أن نعلم هذه الأصابع المحتالة عملا صالحًا حتى لو لم نستطع أن نضع العلم فى رأسك المستدير هذا !

وهكذا فبدلا من الكتب والدروس اللاتينية جرب الرهبان الطيبون خُطةً مختلفة ، وعُهد بفيليبو إلى راهب صالح اسمه أنسيلمو Anselmo يرسم الصور الرقيقة والحروف لكتب صلوات الدير .

كان ذلك – فى الواقع – نوعًا مختلفًا من الدروس فأشرقت عينا فيليبو بحرارة حين انحنى على عمله وحاول أن ينسخ الخطوط والمنحنيات الجميلة التى رسمها له أستاذه ، وهناك أولاد آخرون فى الفصل بطبيعة الحال، ونظر فيليبو إلى أعمالهم بعظيم الإعجاب، وعلى الأخص الولد الذى كان يكبره وكان ذا وجهٍ مرح رسم ذات النسخ الجميلة حتى أن فيليبو كان دائمًا يحاول أن يجلس إلى جواره ما أمكنه ذلك ، وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين .

كان أكثرهم خبرة يُدعى ديامنتى Diamante، وكان مسروراً لإعجاب التلميذ الصغير الجديد به ،ولكن بمرور الوقت قلَّ افتخاره بعمله وهو يرى بدهشةٍ كيف أن أصابع فيليبو البنية الصغيرة تعلمت كيف ترسم الخطوط المستقيمة ومنحنيات أكثر جمالا مما رسم أىٌّ شخص آخر .

و كان الراهب أنسيلمو أيضًا يشاهد الولد فى أثناء عمله وقد شع وجهه القديسى المسن بالسرور وهو يشاهده ، و قال ووجهه يشرق ببهجة تخلو من الأنانية :

– سيجتازنا جميعًا هذا الطفل – الذى هو أغبى من أن يتعلم الحروف الهجائية – ويتركنا خلفه !

حين يكبر الأولاد سيسمح لهم أن يدخلوا الكنائس ويشاهدوا رسوم الجص التى رسمتها يد الرسام الكبير المتعب " توم القبيح " Ugly Tom – كما كان يُسمى .

وقف فيليبو وديامنتى معًا يشاهدان بوقار تعلم الدروس التى لم يستطع الأب الطيب أن يعلمها لهما هناك .

و بدأ يتدربان على كل ما تعلماه وحاولا نسخ صور الرسام العظيم .

قال ديامنتى بحسدٍ وهو يرقب الأشكال التى رسمها فيليبو بسهولة :

– يالبراعتك فى هذا !

أجاب فيليبو :

– الصور أيضاً جميلة ! إنها أروع من أىّ صورٍ أخرى فى الدير !

لا شكوى الآن من حماقة فيليبو ؛ لقد تعلم كل ما لقنه الرهبان الرسامون له !

و بمرور السنوات فرك رئيس الدير يديه فى سرور حيث أدرك أنه يوجد فنان فى الدير، واحد من الذين سيستطيعون فى القريب رسم جدران الكنيسة والدير ويجعلونهما مشهورين مثلما اشتهر دير سان ماركو **San Marco** على يد الرسام الملائكى .

الفصل الثالث

ذات يوم استدعى رئيس الدير فيليبو وقال له :

– لقد تعلمت جيداً يا بنى وآن الأوان لأن تجعل من عملك هذا شيئًا ذا أهمية .. ادخُل إلى الدير حيث تم تبييض الجدران ولنر أىَّ الصور يمكنك رسمها .

و بدأ فيليبو عمله بعينين مشرقتين ووجنتين خجلتين ويومًا إثر يوم راح يقف على سقالة البناء يحرك ذراعه العارى بخفةٍ وهو يرسم شكلا إثر شكل على الجدار الأبيض الناعم .

لم يتوقف فيليبو ليفكر ماذا سيرسم وبدت الأشكال مسحورةً كأنها تكبر تحت لمساته .

كان الرهبان فى أزيائهم البنية والبيضاء يضحكون أو ينحنون بقلق وثمة من يصلون فى الكنيسة والأطفال متعلقون بجونلات أمهاتهم .. والشحاذون والأثرياء بل حتى الكلب الضال، نعم والبنات الجميلات اللاتى ضحكن وتحدثن فى همسٍ ، لقد رسمهم جميعًا تمامًا كما رآهم وحين تم رسم آخر جزء فى الجدار توقف عن العمل .

انتقلت الأنباء وامتدت عبر كل الأديرة التى انتهى فيليبو من رسم صورها وهُرع الرهبان جميعًا ليروا ،و أُنزلت سقالة البناء ووقفوا حينئذ يحملقون بعيون مشدوهة وأفواه مفتوحة ؛ فلم يروا من قبل شيئًا مثل ذلك ، صمتوا جميعًا فى البداية ثم راحوا يضحكون واحداً تلو الآخر ويتحدثون ويشيرون بأصابع منقطة توافة وصاح واحد منهم :

– انظروا هذا هو الأخ جيوفانى Giovanni إننى أعرف ابتسامته من بين المئات .

و صاح آخر :

ذلك الشحاذ الذى يأتى كل يوم ليطلب الحساء أيضًا .

و صاح ثالث :

– وهذا كلبه أيضًا !

و صاح فرا ديامنتى بصوتٍ خافت :

– انظر إلى الحورية التى تجثو على ركبتيها من المقدمة .. أليست طاهرةً كقديسة ؟!

ثم ساد الصمت فجأةً وخجل الرهبان من الجلبة التى أحدثوها بينما نظر إليهم رئيس الدير من أعلى وسألهم :

– ما كل هذا ؟

و بدا صوته رصينًا غير سعيد بينما ينقل بصره من الحائط إلى زحام الرهبان ، ثم استدار إلى فيليبو قائلا :

هل أمرتك أن ترسم هذه الصور ؟ هل هذا النوع من الرسم لمجد الرب ؟ ومن أجل كنيستنا ؟ هل هذه الأشكال البشرية تجعل الناس يتذكرون القديسين وتعلمهم أن ينظروا للسماء أو تساعدهم فى صلواتهم ؟

امحها بسرعة وارسم صوراً للسماء لا الأرض !

مد فيليبو رأسه واختفى جمع الرهبان المندهش وتُرك فيليبو ليبدأ عمله كله من جديد !

لقد كان صعبًا على فيليبو أن يركز أفكاره على السماء وألا يفكر فى الأرض، فلقد أحب العالم المرح جدا وأصابعه العشرة الماكرة هى ذاتها التى أوقعته فى المتاعب حين كان طفلا ودائمًا ما كانت تتوق إلى رسم الوجوه التى رآها كل يوم .

بدا وجه الحورية الصغيرة الجاثية على ركبتيها فى صلاتها حقيقياً ومبهجاً للغاية ومشهد العذراء والملائكة وقوراً وقصياً .

صارت صور القديسين والملائكة لدى جميع الناس، لذا فلقد كان عليه أن يرسم الأفضل .

كان من السهل ارتداء الأجنحة والهالات الذهبية حتى تأخذ الأرض مرأى سماوياً .

أضحت حياة الدير مملةً يوماً بعد يومٍ بالنسبة لفيليبو وبدا العالم – الذى أراد أن يتخلى عنه وهو فى الثامنة من العمر من أجل قطعة خبز بيضاء صالحة – مليئاً بأشياء أحبها جدا .

لقد اشتاق أكثر للأشياء التى خارج جدران الدير وتاق إلى وجوه أخرى إلى جانب وجوه الرهبان وزوار الكنيسة .

و هكذا وفى ليلةٍ مظلمة وجميع الرهبان نائمون وبينما تدق الأجراس معلنةً انتصاف الليل انسل فرا فيليبو من صومعته **Cell** وفتح باب الدير وجرى بخفةٍ خارجاً إلى الشارع الهادئ !

كم كان جميلا أن يتحرر، لقد بدا الشارع نفسه مرحباً به بأذرع مفتوحةٍ كصديق قديم!

و هكذا جرى حتى وصل إلى بوابات مدينة سان فريديانو **San Frediano** وانتظر حتى ينسل متخفياً حين فُتحت البوابات فجراً حتى ترك فلورنسا والدير والعالم كله من خلفه .

لم يجد فيليبو صعوبةً فى المعيشة لأن الناس قد أعطوه الطعام والنقود وأوقف الريفيون الطيبون عرباتهم وأقلوه طيلة الطرق البيضاء المستقيمة ذات الغبار، وسرعان ما وصل أنكونا **Ancona** ورأى البحر لأول مرة .

وراح فيليبو يحدق فى البحر ناسياً كل شىء وهو يتشرب هذا الجمال الممتد من الزرقة المرتعشة .

ودوت فى أذنيه كلمات شبه منسية كانت تتلى فى صلوات الصباح والمساء Matins or Vespers ولم تكن تعنى له شيئًا "وأمام العرش كان بحر من الزجاج الكريستال".

ظل فيليبو واقفًا لدقائق ثم خفت المشهد السماوى وكأى ولد آخر نسى كل شىء عن الجمال واللون وتاق فقط لأن يكون على متن قارب يتمتع بالسرور الجديد الغريب !

اعتقد فيليبو أنه محظوظ جدا حين وصل إلى الشاطئ ووجد قارباً موضوعاً وحين دُعى لأن يقفز إلى القارب من قبل الأولاد المبحرين .

لقد ذهبوا بعيداً بعيداً عن الشاطئ يتحدثون ضاحكين وكانوا جد مشغولين بقص حكايا البحر على الشاب الغريب حتى أنهم لم يلحظوا كم أوغلوا فى البحر !

وفجأةً نظروا وجلسوا صامتين خائفين؛ لقد حملت عليهم سفينة مغربية(٢) عملاقة great Moorish galley، لمعت مجاديفها تحت أشعة الشمس وأظلهم شراعها العملاق المرسوم ، و لم تك ثمة جدوى من الهرب ؛ لقد باغتتهم مجاديفها بسهولة وفى دقائق رُفع فيليبو ورفاقه على متن السفينة المغربية ؛ كان كل شىء مباغتًا بحيث بدا كحلم

---

(٢) ليس المقصود باللفظ هنا المغاربة كجنس أو أهل هذا القطر العربى بعينه، بل هو لفظ يطلق على فئة الموريسكيين وهم المسلمون الذين طردوا من الأندلس ، يذكر أن الموريسكيين تعرضوا للطرد من إسبانيا، وخاصة من الأندلس، بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، واستغرقت عملية الطرد والتطهير أكثر من قرن فكان التهجير النهائي هو الذى حدث ما بين سنتى ١٦٠٩ - ١٦١٠ فى عهد فيليب الثالث الذى طرد جميع المسلمين، و حتى من تنصر منهم ظل يطلق عليه موريسكي، وبالمناسبة منهم برنارد شو، ثم إن هذه الخرافة الأسطورية التى تحكيها المؤلفة عن فيليبو تبقى عرضةً للشك حيث إن هؤلاء الصعاليك كانوا يحضرون إلى الشرق بملء إرادتهم تحدوهم آمال زائفة فى استغلال الثروات أو الكشف عن الكنوز والخبايا ولم يأتوا كعبيد بل هربوا بحثًا عن جنة الشرق، ولقد وجد فيليبو فى الشرق محرراً لروحه التى ضاقت بالحياة الرتيبة وتاقت للتحليق فى سماء الشرق، والمؤلفة تناقض نفسها وتستخدم لفظ الهارب فيما سيأتى من سرد لقصة فيليبو و لم تستخدم لفظ المخطوف . (المترجم)

ولكن القيود كانت حقيقية جدا حيث تمكنت حول أرجلهم وأيديهم وبدت وجوه المغاربة القاسية القاتمة مؤكدة وليست حلماً وهم ينظرون مبتسمين !

وتتابعت الأيام البائسة الطويلة ، و تعب العبيد الجدد من التجديف تحت الشمس الملتهبة والليالى الباردة المملة .

ولطالما تاق فيليبو إلى الدير الهادئ ، والشبان الطيبين والأيام الآمنة .

ولطالما تاق إلى سماع الأجراس تناديه إلى الصلاة والتى جعلته ذات مرة يمتلئ ضجراً وقلقاً .

وأخيراً وصلت السفينة إلى ساحل باربارى Barbary وحُرر العبيد من قيودهم ومجاديفهم وأُخذوا إلى البر .

فى كل مأساته كانت عيون فيليبو لا تزال تواقةً لمشاهدة الناس من حوله بشغف، ولم يكل من دراسة الوجوه السمراء وحُلل القراصنة المغاربة العجيبة !

" الفصل الرابع "

يوما ما حين اقترب فيليبو من حائط أملس تناول عصا متفحمةً من نار قريبة وراح يرسم وجه سيده .

يا لسروره حين يرسم بهذه الضربات السريعة ويشعر بالصورة تكبر تحت أصابعه !

لقد استغرق إلى درجةٍ جعلته لا يشعر بالزحام الذى تجمع حوله تدريجياً، ولكنه عمل بثبات حتى اكتملت الصورة !

ومثلما توقف فريق الرهبان صامتين حول أول صوره فى الدير فى كارمن، ظل المغاربة السمر يحدقون متعجبين مندهشين من الشكل الأسمر الذى رُسم على الحائط الأبيض الأملس .

لم ير أحدٌ من قبل شيئًا كهذا على الأرض وبدا لهم أن هذا الرجل يتعامل بالسحر، وتهامسوا معًا وهُرع أحدهم ليحضر الربان وعندما أتى السيد كان مندهشاً تماماً كبقية الرجال وبالكاد صدق عينيه حين رأى نسخةً طبق الأصل من صورته على الحائط، تماماً كظله . والحقيقةُ أن هذا الرجل لابد أن يكون غير عادى، وأمر السيد بأن تُحل قيود فيليبو فى الحال وأن يُعامل باحترام وشرف .

لا شيء أفضل للرجل الساحر من وضعه على متن سفينة وأن يُحمل آمنًا عائداً إلى إيطاليا .

وضعوه على شاطئ نابلس ومكث هناك قليلا يرسم الصور للملك ولكن قلبه كان فى مدينته المحبوبة، وسرعان ما عاد إلى فلورنسا .

ربما لا يستحق الترحيب به ولكن الجميع كان سعيداً بعودة " الهارب "حقاً حتى رئيس الدير – رغم أنه هز رأسه – مرحباً بعودة الأخ الذى جلب الشرف والشهرة للدير بفضل اسمه .

ورغماً عن المتاعب التى اجتازها فيليبو فقد ظلّ يحب العالم المرح ومسراته !

ثم ألقى فيليبو بفرشاته وأقلامه وترك لوحاته مبعثرة حوله ومضى فى إجازة، وتوقف العمل وكان على الناس أن ينتظروا حتى يشعر فيليبو بميل للعمل من جديد .

كان كوسيمو العظيم The great Cosimo صديقاً دائماً للرسامين ورغب فى أن يرسم له فيليبو صورة وقد سمع حكايات عدة عن أساليب الأخ المتكاسل عن العمل، ولقد عزم على أن تُرسم له صورة دونما أى تأجيل وقال وهو يتحدث إلى رئيس الدير :

– يجب ألا ينال فرا فيليبو أيّة أجازة أثناء عمله لى !

فرد رئيس الدير الذى يعرف فيليبو أكثر من كوسيمو العظيم :

– إن هذا ليس سهلا كما تعتقد .

ولكن كوسيمو لم يجد صعوبةً فى هذا على أية حال؛ فأعد حجرةً عاليةً فى قصره للرسام ويسر له كل ما يحتاجه فيها ولم تنقصه أيّة وسيلة للراحة، وحين أتى فيليبو عُومل كضيف مجيد عدا شيء واحد أنه حين كان يغلق باب غرفته كان يسمع صوت صرير وكان يدور المفتاح من الخارج ليغلق الباب، لذا فلقد كان فيليبو أسيراً فى سجنه الجميل .

كان ذلك كله جيداً لأيامٍ قليلة، وضحك فيليبو بينما يرسم ورقد فى حُلة فيرجن الرقيقة ورسم فى عينيها النظرة الوقورة والتى طالما رآها على وجه فلاحة فقيرة وهى تنحنى فى صلاتها، ولكن بعد فترة أصابه الملل وضجر من عمله وصرخ :

– خذوا هذا الرجل العظيم وأساليبه الجميلة .. هل يعتقد أنه يمسك قُبّرة ويدربها على الغناء فى قفص كما أمر ؟

لقد مللت من القديسين والملائكة، يجب أن أخرج وأستنشق الهواء السماوى الطلق .

ولكن الباب مغلق دائمًا وقوى وهناك شباك ولكنه عالٍ عن الشارع وقد بُنيت الجدران بأحجار رمادية عملاقة وربما قُصد بها بناء سجن لا أن تُلحق بقصر، إلى أن كانت ليلة مظلمة والهواء ساخن حين انحنى فيليبو خارجًا من الشباك ويكاد النسيم يحرك الهواء الساخن وكل الأصوات تُسمع بوضوح ،وبعيداً من أسفل الشارع يُسمع وقع خطى الناس، والتقط فيليبو كلمات أُغنية فرحة من صحبة أولاد وبنات يرقصون بمرح : " إذا ما كنت سعيداً فبمن أبالى إذن ؟ "

كل ذلك أغراه فنظر حوله في الحجرة ووقعت عيناه على السرير فجرى ناحيته وهو يصيح منتصراً مبتهجًا ثم أمسك باللحاف ومزقه إلى مِزق ثم عمد إلى البطاطين ثم الملاءات وضحك لنفسه ضحكة مكتومة وهو يربطها جميعًا معًا وقال:

– من رأى حلةً أكبر من هذى ؟!

وكما فكر سريعًا ربطها إلى قضيب الحديد بالشباك وانسل خارجًا وبدأ يهبط يداً بعد يد متدليًا متأرجحًا جيئةً وذهابًا .

كان الحبل قويًّا وجيداً ولقد ثبَّت فيليبو نفسه بأن أمسك بأصابع قدميه فى الحلقات الحديدية التى ثبتت فى الجدار ثم هبط لاهثًا أسفل الشارع .

حين أتى كوسيمو فى اليوم التالى ليرى كيف مضى أمر الرسم رأى الصور وأدوات الرسم ولكن لم يكن هناك رسام فأسرع وخطا ناحية الشباك المفتوح ورأى حبل الملاءات المتدلى هناك وخمن فى الحال كيف حلق الطائر !

لقد بحثوا عن الرسام المفقود عبر الشوارع وقبل أن يمضى وقت طويل عُثر عليه وأُعيد ثانيةً .

حاول فيليبو أن يبدو قانعًا ولكن عينيه كانتا ترقصان مرحًا واضطر كوسيمو أن يضحك فقال فيليبو :

– على أية حال إن موهبتى ليست عبء مزارع مضطر لأن يتحمله، إن ذلك يشبه إلى حدٍ كبير واحداً من هؤلاء الزوار الأجلاء والذين نُسرى عنهم بإرادتنا حين تنازلوا ليزورونا ولكننا لا نستطيع مواجهة مجيئهم ولا ذهابهم .

فأجابه الرجل العظيم :

– أيها الصديق الرسام إننى حين أفكر كيف تسنى للرجل الموهوب أن تكون له أجنحة .. إذا لم يكن الحبل مربوطًا جيداً ، أعدك ألا أحملك على ما لا تريد .

و هكذا مع الأبواب المفتوحة والحرية فى المجىء والذهاب لم يتُق فيليبو للهروب ولكنه عمل من صميم قلبه وانتهى من رسم مريم الجميلة والملاك، علاوةً على أنه رسم صورةً رائعة لسبعة قديسين ويتوسطهم سان جون St.John .

وجاءت طلبات رسم الصور من كل حدبٍ وصوب إلى فيليبو ليبى لمختلف الكنائس والأديرة ولكنه تذكر محاضرة القس وظل يرسم القصص للقديسين والأجلاء ومريم الجميلة وكتاب صلواتها المقدس Scarlet Book والحمامة التى ترفرف بالقرب منها والملاك ذا الأجنحة المشرقة يحمل غصن السوسن .

كان القديسون يرقبون صوره التى كانت تحمل وجوه بعض أصدقائه ولكن بدا أن أحداً لم يلحظ ذلك .

على كلٍّ لقد عاش فيليبو حياةً سعيدةً وكان على استعداد دائم لأن يرسم كل من يطلب منه أن يرسمه .

" الفصل الخامس "

تملك الفخر العديد من الناس الذين عرفوا الرسام الشاب الشهير ولكن رفيقه القديم فرا ديامنتي كان أفضل من أحبهم، و ظلا يعملان معًا كلما عنَّ لهما ذلك ولقد عَظُمَ سرورهما حين أتى الأمر من براتو Prato أن يذهبا معًا ويرسما جدران سان ستيفانو St. Stefano .

صاح فيليبو بمرارةٍ وهما ينطلقان معًا :

– الوداع يا فلورنسا العجوز إلى حين !

و نظر وراءه – وهو يتحدث – حيث البرج والأسطح التى لفحتها الشمس وحيث المرمر الأبيض فى سان مانياتو وشجر السرو الداكن الواقف فى مواجهة السماء الصافية الدافئة فى ربيع مبكر وقال :

– إننى متعب من الرجال العظام ومن كل عظمتك وبهائك وإن شيئًا ما يشعرنى أننا سوف نقضى وقتًا ذهبيًا بين العامة فى براتو.

ربما هو الربيع ، ذاك الذى جعله مبتهجًا ذلك الصباح وهو يمتطى دابته عبر الطريق الترابى الأبيض !

وجاء الربيع باندفاعةٍ مبهجة مثلما يحدث دومًا فى إيطاليا ينثر زهوره ونكهاتها فى كل ناحية، ورفعت زهور البنفسج رؤوسها من تحت أوراق الخريف الميتة وعبقت الجو كله .

ومدت الذرة الوليدة خضرتها الرقيقة من أسفل الزيتون الرمادى ، و لوَّحت شقائق النعمان برايات أجنحتها القرمزية والأرجوانية قريبًا وبعيدًا ، لقد كان جميلا أن نحيا فى يومٍ كهذا !

وصل الرسامان إلى براتو مع تلميذهما المفضل بوتشيللي Botticelli وعملا معًا وبجد وغطيا الجدران برسوم الجص جدارًا إثر جدار وبدت الأعمال كما لو أنها لن تتم، ففي كل كنيسة وكل دير كان هناك عمل ينتظرهما .

بينما كان فيليبو يضع اللمسات الأخيرة لصورة لفرا ديامنتي الذى رسمه فى صورة لموت سان ستيفانو قال :

– سوف لا أتعهد ثانية بالفعل بعمل لفترة، فلقد مضى وقت طويل لم ننل أجازة معًا .

و بينما هو يتحدث جاءته رسالة من رئيس الدير الطيب فى سان مارجريتا St. Margherita راجيًا إياه العودة لكى يرسم هيكل كنيسة الراهبات ؛ فقال فيليبو لفراديامنتى التى وقفت مبتسمة بالقرب منه :

– حسنًا الذى يجب أن يكون ... يجب أن يكون ! سأبذل ما فى وسعى لأسعد هؤلاء النسوة الجليلات ولكن لا مزيد بعد ذلك !

استقبله رئيس الدير الوقور الرصين عند باب الدير وقاده بهدوء عبر الحديقة المشمسة ذات الأزهار المتفتحة حيث تندفع السحالى يمنةً ويسرة وهما يمشيان عبر النافورة ويدخلان إلى الكنيسة اللطيفة المظلمة .

و فى صوت عذب خفيض أخبرته بما يريدونه أن يرسم وأرته المكان أعلى المذبح العالى حيث تُوضع الصورة وقالت :

– رغبتنا عظيمة أن ترسم لنا العذراء المقدسة والطفل المبارك فى ليلة الميلاد .

بدا الرسام مصغيًا ولكن ذهنه كان شاردًا !

لقد مَنَّى نفسه طيلة الوقت أن يعود إلى الحديقة المشمسة حيث رأى وجهًا صغيرًا جميلاً وينظر عبر الزخات الوردية لزهر اللوز المزهر ،بينما تنساب فى أذنيه موسيقى تراتيل المساء عذبةً صافية .

وحين توقف الصوت الهادئ لرئيس الدير قال فيليبو :

– سوف أبدأ غداً فى رسم مريم العذراء والطفل كرغبتهن وبدأ العمل فى اليوم التالى ، وفى كل مرةٍ يدخل رئيس الدير دونما صخب إلى حجرة الرسام ، حيث عمله ، ليشاهد الصورة تكبر تحت يدى الرسام ويتيقن أكثر وأكثر أنها فعلت الصواب حين طلبت إليه أن يزين كنيستهم المحبوبة، كان الجميع يقولون إن الفنان الشاب رجل ذو عقلية عالمية ولا يشبه فرا أنجيليكو Fra Angelico الرسام المقدس المبارك لسان ماركو .

ولكن عمله بدا رائعًا بحق ولاح وجهه الوسيم طيبًا حتى أن ابتسامته المرحة لم تغادر شفتيه ولا عينيه !

ودخلت عليه رئيسة الدير ذات صباح لتجد فيليبو واقفًا متكاسلا وبعينيه نظرة غير قانعة؛ لقد كان يحدق فى لوحته غير المكتملة ولوهلةٍ لم يلحظ أن أحدًا ما قد دخل إلى الحجرة، و سأله الصوت الجميل إلى جانبه :

– أثمة خطأ ما ؟!

فالتفت فيليبو ورأى رئيسة الدير وقال بابتسامته السريعة المشرقة :

– فى الواقع إن شيئًا ما يبدو خطأ فى أصابعى الخمس ؛ لقد حاولت مرارًا رسم وجه العذراء وفى كل مرةٍ أحتاج إلى أن أرسمه ثانيةً !

وهنا التمعت فى رأسه فكرة فقال :

– لقد رأيت وجهًا وأنا أعبر حديقة الدير .. هذا هو الوجه الذى أريده بالتحديد ، إذا ما تركوا العذراء تجلس حيث رأيتها لساعات كل يومٍ يمكننى أن أعِد أن صورة العذراء مريم ستكتمل كرغبة الأخوات !

استغرقت رئيسة الدير فى تفكير عميق للحظات وتحيرت ؛ ما الذى يجب أن تفعله وقالت لنفسها :

– إنها الطفلة لوكريزيا Lucrezia إنها التى أرسلها أبوها دوق بيوتى Buti فى فلورنسا Florence ، إنها لا تزال راهبة تحت التجربة ، و لا ضرر إذا ما سمحوا لها أن تعيره وجهها الجميل كنموذج لسيدتنا !

فأخبرته بأنها ستحقق رغبته .

كئيبٌ هو الدير ولوكريزيا السعيدة الوحيدة لقضائها ساعاتٍ كل صباح جالسةً بكسل على الكرسى العظيم بينما يتحدث إليها الرسام الشاب ويقص عليها الحكايات وهو يرسم .

كانت تعد الساعات حتى يحين وقت العودة إلى الرسم وأصبحت أسعد حالا يومًا بعد يوم بينما يبدو وجه العذراء أكثر جمالا .

لم يك ثمة أحد فى طيبة هذا الفنان الرائع ولا وسامته، ولم تتخيل لوكريزيا كيف ستكون حياتها كئيبة إذا ما رحل !

وذات يومٍ استُدعيت رئيسة الدير وأصبحا وحدهما فيليبو ولوكريزيا ، أخبرها فيليبو أنه أحبها ولن يستطيع العيش بدونها ورغم خوفها فى بادئ الأمر فإنها سعدت وأخبرته فى الحال أنها جاهزة لأن تذهب معه إلى حيث يريد ..

ولكن ماذا ستعتقد الراهبات فى هذا ؟ وهل سيسمحن لها أن تغادر ؟

لا ! فلابد إذن أن يفكرا فى خطةٍ ما !

غدًا العيد الكبير لبراتو ، حين تمشى الراهبات فى الموكب لرؤية الرداء المقدس والذى أعطته مريم العذراء Madonna للقديس توماس St. Thomas على لوكريزيا أن تحذر كى تمشى خارج الموكب وأن تتطلع للمسة من الذراع التى ستعبر بها .

أشرق يوم العيد بهيًّا صافيًا واستيقظت كل براتو باكرًا وعرفت المواكب طريقها إلى الكنيسة – حيث تُعرض الذخائر – موكبًا إثر موكب وتزاحمت الجماهير فى

الكنيسة وأُحضرت راهبات سانتا مارجريتا، فاقترب موكب ما وضغط الزحام، فأحست لوكريزيا بوخزة فى ذراعها وأمسكت بيدها يدٌ قوية وترنح الزحام جيئة وذهاباً وتوارى الاثنان فى لحظة !

لم يلحظ أحدٌ أن الراهبة التى تحت التمرين قد ذهبت، وقبيل أن تفكر الراهبات فى البحث عن لوكريزيا كانت هى فى طريقها إلى فلورنسا يقود جوادها الرسام الذى أحبته بينما صديقه المخلص فرا ديامنتى راكب إلى جوارها .

ثم هبت عاصفة ...

تميز أبو لوكريزيا غيظاً وفزعت الراهبات الطيبات وتعجب الجميع من هذه المغامرة الأخيرة للرسام الفلورنسى !

" الفصل السادس "

ولكن لحسن حظ فيليبو أن صديقه كوسيمو العظيم وقف إلى جانبه وساعده فى كل هذا؛ فلقد توسل إلى البابا ليسمح لفرا فيليبو أن يتزوج من لوكريزيا "حيث إن زواج الراهبات لم يكن مسموحًا به بالطبع" ولقد تعطف البابا وأجابه إلى طلبه، وهكذا مضى كل شىء على ما يرام .

وسعدت لوكريزيا طوال أيامها وأتى الربيع مرةً أخرى إلى فلورنسا وأشرق طفل فيليبو مع زهر السوسن والبنفسج !

وسأل الأب الفخور زوجته :

– ماذا لو أسميناه فيليبو ؟

فردت لوكريزيا بسرور :

– إنه صغير يا فؤادى الغالى سنسميه فيليبينو Filippino ولا غضاضة فى هذا !

لا حاجة الآن بفيليبو لأن يبحث عن السعادة خارجًا ، لقد رسم صوره وعاش حياته المنزليه دونما بحث عن مزيد من المغامرات .

ظلت عذراوات فيليبو أجمل دائمًا؛ فلقد مستهم جميعًا لمحات جمالية أشرقت من وجه لوكريزيا الجميل .

و صارت دومًا للمسيح ابتسامة الرضيع فيليبينو وشعره الذهبى المعقوص .

وسرعان ما أقبلت ابنتهما الصغيرة لتسعد قلبيهما فامتلأ كأسهما بهجةً وسرورًا .

سأل فيليبو :

- ماذا سنسمى الحورية الصغيرة ؟

فأجابت الأم :

- لقد فكرت فى اسم لوكريزيا .

فأردف قائلا :

- توجد لوكريزيا واحدة فى العالم أجمع بالنسبة لى ولن تحمل واحدة أخرى هذا الاسم .

و بينما هما يتحدثان سمعا طرقةً على الباب وسرعان ما دخل تلميذه المفضل ساندرو Sandro، فصاح فيليبينو فرحًا ورفعه الشاب بين ذراعيه وابتسم ابتسامة من يعشق الأطفال .

قال فيليبو :

- تعال يا ساندرو وشاهد الوردة الصغيرة الجديدة !

أليست جميلة كالزهرات التى تحب أن ترسمها ؟

نظر الشاب الصغير بشغفٍ إلى الوجه الصغير فربت فيليبو بيده على كتفه وصاح :

- وجدتها، سنسميها أليساندرا Alessandra ويومًا ما ستفخر أنها تحمل هذا الاسم !

فلقد تنبأ فيليبو بأن هذا التلميذ سوف يُوقظ العالم على أُعجوبةٍ جديدة .

الغمامة الوحيدة التى حجبت الشمس عن حياة لوكريزيا حين اضطر فيليبو إلى أن يغادرها لفترة ويرسم صوره فى مدن أخرى ودائمًا ما كانت لوكريزيا حزينة كلما أشرف عمله فى فلورنسا على الانتهاء ؛ حيث لم تكن تعلم قط أين عمله المقبل .

وذات ليلة حين عاد فيليبو إلى بيته والتقط صغيره فيليبينو بين ذراعيه قال :

– حسنًا لقد انتهت صورة راهبات سان أمبروجيو Ambrogio أخيراً !

إن لديهم حقاً قديسين وملائكة بما فيه الكفاية الآن ، صفوفًا وراء صفوف من الوجوه الجميلة والسوسن الأبيض ، و أجمل الوجوه فيهم جميعًا وجهك أيها القديس لوسى Saint Lucy وانحنى للأمام واضعاً يده تحت ذقن الطفل الصغير الجميل .

سألته لوكريزيا ونبرة تفكير تنساب فى صوتها :

– هل انتهت بالفعل ؟

فأجابها فيليبو :

– نعم وغداً علىّ أن أمضى إلى سبوليتو Spoleto لأبدأ عملى فى كنيسة "سيدتنا" Chapel of our Lady و لكن لا تحزنى حبيبة القلب ؛ فقبل أن تمضى ثلاثة أشهر وقبل أن يُجمع العنب سأعود !

و لكن هذا جزء محزن من العمل رغم كونه لثلاثة أشهرٍ فحسب، حتى أن طفلها الصغير لم يجعلها تبتسم، رغم أنه قد رسم صوراً رائعةً لها من الطيور والحيوانات وأخبرها أنه قد عمد إلى أن يصبح رسامًا عظيمًا كوالده حين يكبر !

فى اليوم التالى رحل فيليبو ورحل معه صديقه المخلص ديامنتى .

و بكت لوكريزيا :

– وداعًا فيليبو .. اعتن به أيها الصديق ديامنتى .

وظلت واقفةً ترقبهما حتى اختفيا عن ناظريها فى الطريق الأبيض الطويل ثم دخلت إلى البيت تنتظر بصبرٍ عودتهما .

مرت أيام الصيف بطيئة، فرقّت وجنات الخوخ وتوردت تحت قبلات الشمس، وبدا التين ناضجًا وأرجوانياً تحت الأوراق الخضراء .

وتعلقت عناقيد العنب واضحةً جليةً أرجوانيةً وذهبيةً مع الداليات التى تأرجحت بين أشجار الخوخ .

ثم أتت الأيام المرحة لخمر العام وعصر العنب الناضج .

قالت لوكريزيا :

– الآن سوف يعود لأنه قال " قبل أن يُجمع العنب سوف أعود " .

بطيئة مرت الأيام وكانت لوكريزيا تقف كل مساء فى إيوان الدار وتحدق عبر التلال مشيرةً إلى الدرب الأبيض الطويل قائلة للصغير فليبينو ونبرة فرح فى صوتها :

– الأب سوف يعود عبر ذلك الطريق الطويل أولا .

وذات مساء وبينما هى كعادتها ترتقب ، تسارعت دقات قلبها ، مؤكد أن هذا الراكب الذى يمشى الهوينى عند الطريق هو فرا ديامنتى ولكن أين فيليبو ولماذا يمتطى صديقه جواده بهذا البطء ؟

وعندما اقترب ودخل إلى البيت نظرت إلى وجهه فخفتت كل البهجة فى عينيها وبكت قائلةً :

– لست فى حاجة لأن تخبرنى ، أعرف أن فيليبو قد مات !

لقد كان ذلك حقاً بالفعل ؛ لقد جاء الصديق المخلص بالنبأ بنفسه ، و لا أحد يستطيع القول كيف مات فيليبو .

ساعات قليلة من الألم ثم انتهى كل شىء ، كان البعض قد تحدث عن السم ولكن من ذا الذى يستطيع أن يجزم ؟

كان أمامه من الوقت ليرسل وداعه إلى لوكريزيا وليرجو صديقه أن يرعى فيليبينو الصغير .

وهكذا ،كما عرفنا ، ماتت الفرحة فى حياة لوكريزيا .

ربما قد أتى الربيع ثانيةً وجعل شروق الشمس من البعض سعداء ولكن بالنسبة إليها لم يكن هناك سوى الشتاء البارد الشاحب ؛ حيث إن قلبها لن يدفئه شروق شمس ابتسامة فيليبو – هذا الشروق الذى جعل الجميع يحبه رغم أخطائه منذ كان صبياً صغيراً رثاً يجرى عبر شوارع المدينة القديمة فى فلورنسا .



بورتريه لرجل وامرأةٍ عند النافذة / من أعمال فرا فيليبو ليبى

Portrait of a Man and Woman at a Casement , c. 1440



بورتريه لفرا وسط تلاميذه

Selfportait with pupils

ساندرو بوتيشيللى Sandro Botticelli

مارس ١٤٤٥ - مايو ١٥١٠

" الفصل الأول "

علينا الآن أن نرجع إلى الأيام التى رسم فيها فرا فيليبو ليبى صوره وجلب الشهرة إلى دير كارمن .

فى تلك الأيام كان هناك مواطن صالح يُدعى ماريانو فيليبيبى Mariano Filipepi وهو رجل أمين ولديه العديد من الأبناء وقد تلقى جميعهم قسطًا وافرًا من التعليم وتدربوا جيداً على الأعمال التى اختاروها .

ولكن الابن الرابع أليساندرو أو ساندرو كما كان يُدعى مثل محنة كبرى لوالده !

لم يستقر له قرار على تجارة أو عمل ، وكان كسولا وغير واثق من نفسه ويتحول دائمًا من عمل إلى عمل !

أحيانًا ما تراه يعمل بكل رغبة وأحيانًا ما يتقاعس رغم كونه جيداً وسريع التعلم حين يشاء ذلك ،و اختار أشياء قليلة كى يتعلمها ،كالموسيقى التى أحبها ولقد عرف كل أغانى الطيور وكان كل ما يتعلق بالزهور يجلب البهجة إلى نفسه ،و ليس ثمة أحد أفضل معرفةً منه بأنواع الزهور المختلفة وكيفية نموها وكيف كانت أزهار السوسن تتعلق فى أعوادها !

دائمًا ما تساءل والده فى غير صبر :

– ما فائدة كل ذلك مادمت لا تجتهد أن تقرأ أو تكتب وتحل المسائل الحسابية ؟ ماذا علىَّ أن أفعل مع مثل هذا الولد ؟

ثم قرر الرجل الفقير يائسًا أن يرسل ساندرو إلى ورشة جار له ليرى ما إذا كانت يداه سوف تُحسن عملا أفضل من رأسه ؟

جاوره رجل يُدعى بوتيتشيللى وكان صائغًا متقنًا لعمله، ولقد وافق أن يقبل ساندرو كتلميذ له ولقد عُرف التلميذ باسم أستاذه وسُمى ساندرو بوتيتشيللى Sandro Botticelli .

عمل ساندرو لبعض الوقت مع أستاذه فى رسم تصميمات لصائغى الذهب .

فى تلكم الأيام عمل الرسامون والصائغون صفقات عمل كبيرة معًا وراقب ساندرو دومًا وأصغى لحوارات الفنانين الذين جاءوا لمتجر أستاذه .

واتسع عقله تدريجياً وهو ينظر ويستمع ليصبح رساماً .

ولقد توجه قلقه وأحلام يقظته إلى أن يصبح رسامًا، والتقط كل الموسيقى التى ملأت الأجواء وهو يصغى إلى أغانى الطيور والنسيم العليل والمتراقص بين الأشجار وكل ألوان الزهور ذات الأعواد الرشيقة الملتفة ، التقط كل هذا ونسجه فى صوره، ولقد تعلم أن يرسم الموسيقى والإيماءة وأصبح سعيداً بينما تنهد أبوه فى يأسٍ وقال له:

– إذن ستصبح رسامًا ؟

باتت المتاعب التى يسببها لوالده أكبر من كل المتاعب الأخرى مجتمعة !

ولقد استقر على أن يتعلم كيف يُصبح صائغًا ماهرًا للذهب ، و يأمل الآن فى أن يجرب يديه فى شىء آخر .

حسنًا لا فائدة من قول لا ، فلن يتعلم الصبى شيئًا إلا برغبته .

هناك الراهب فرا فيليبو ليبى والذى تحدث عنه الناس جميعًا ؛ لقد قيل بأنه أعظم رسام فى فلورنسا !

يجب أن يتلقى الصبى أفضل تعليم قدر الإمكان وربما يواظب على عمله هذه المرة .

لذا فلقد أُرسل ساندرو بوصفه تلميذاً إلى فرا فيليبو وسرعان ما أضحى المفضل لدى أستاذه اللطيف السعيد .

سرعان ما أدركت العين الفاحصة للرسام أنه ليس تلميذاً عادياً ؛ ثمة شيء مختلف فى رسومات ساندرو لم يعرفه فيليبو من قبل ، بدت الشخصيات التى يرسمها وكأنها تتحرك ويكاد المرء يسمع حفيف الهواء يُحرك ملابسها، و كأنها لا تمشى بل تتراقص بخفةٍ مترنحةً كما لو أن وقعاً موسيقياً يحركها !

و بدت الأزهار - التى جعلت الصبى يعشق الرسم - وكأنها تخفق لموسيقى أغنية جميلة .

افتخر فيليبو بتلميذه وردد :

- يوماً ما سيسمع العالم أكثر عن تلميذى ساندرو بوتيتشيللى !

و كان يأخذه إلى أماكن مختلفة ليساعده فى عمله .

و هكذا حدث فى ذلك الربيع الرائع من حياة فيليبو ، كان ساندرو أيضاً فى براتو وعمل مع فرا ديامنتى وبعد سنوات وحين ولدت ابنة أستاذه الصغرى سُميت بأليساندرا نسبة إلى التلميذ المفضل له .

لم يعد والد أليساندرو يشكو من ابنه فلقد وجد الفتى العمل الذى يناسبه أكثر وأصبح اسمه مشهوراً فى فلورنسا !

كان عهد الحكم عهد سرور فى فلورنسا فى ذلك الوقت فلقد كان لورينزو العظيم Lorenzo the Magnificent - ابن كوسيمو دى ميديسى Cosimo de Medici - حاكماً فى ذلك الحين .

وبلاطه يمثل مركز الجمال والروعة حيث الفساتين الثمينة وأطايب الطعام والموسيقى المرحة وكل ما يجلب السرور ، خيراً أم شراً ، كل ذلك متاحاً ووفيراً!

كان لورينزو كوالده يسره أن يكتشف رسامًا جديداً وسرعان ما أضحى بوتيتشيللى المفضل عنده .

ولكن صور القديسين والملائكة لم تعد تلائم العصر إلى حدٍ ما ولم يعبأ الناس سوى بالمباهج الأرضية لذا فلقد اختار بوتيتشيللى مواضيعه ليبهج الحاكم وكفَّ لفترة عن رسم عيون العذراء الحزينة !

ما الذى أهمَّه وما هو موضوعه ؟

لقد رسم أشكاله الراقصة تمشى بخفةٍ فى حللها الخفيفة الفضفاضة ، محتفظًا بوقتٍ للموسيقى فى أفكاره !

وربما كان الموضوع حكاية يونانية قديمة أو قصة أخرى تخدم غرضه .

ساعدت كل حلل الحاكم المرح ،و الثياب الأنيقة للسيدات الجميلات، جميعها ساعدت خيال الرسام الشاب أن يتدرب على رسم خفقان الحلل والثياب والبراقع الرائعة من أنسجة الحرير الشفاف .

" الفصل الثانى "

ثمة سيدة جميلة واحدة عشق ساندرو أن يرسمها هى سيمونيتا Simonetta الجميلة – كما ظلت تُسمى – فى البداية رسمها كفينوس والتى ولدت من زبد البحر .

ولقد طفت على الشاطئ واقفةً فى صدفة وقد التف شعرها الذهبى حولها وهبت الرياح من خلفها فبعثرت الأزهار الوردية والحمراء عبر الهواء .

وقف الربيع صامداً بمعطفه على الشاطئ وقد استقر الورد فى طياته كيما يغطى الإلهة المعشوقة إذا ما هبت الريح وأطاحت بها إلى الأرض !

ثم إننا نراها ثانية فى صورته الرائعة " البيع " وفى أخرى " مارس وفينوس " Mars and Venus لقد كانت عظيمة بحيث لم تخضع للرسام المتواضع وربما تطلع إليها كنجمة مشرقة فى السماء بعيداً عن متناول حبه ،و لكنه لم يكف قط عن عبادتها من بعيد .

إنه لم يتزوج قط ولم يبال بوجه جميل آخر – تماماً كالشاعر الكبير دانتى والذى أُعجب به بوتيتشيللى أيما إعجاب والذى حلم فقط بحبه الوحيد بيترسى !

لكن ساندرو لم يذهب فى حزنه، فلقد كان ذا طبيعة لطيفة وطيبة مليئة بالمرح ولقد كان مرحاً مع تلاميذه فى مرسمه .

حدث ذات مرةٍ أن أحد تلاميذ ه ويسمى باجيو Biagio قد قام بصنع نسخةٍ من صورة لساندرو ومريم الجميلة محاطة بثمانية من الملائكة .

وقلق بشأن بيعها ولقد وعده أستاذه بأن يساعده، وفى النهاية رتب الأمر مع مواطن من فلورنسا والذى عرض عليه ست قطع ذهبية لشراء اللوحة .

وحين أتى التلميذ إلى المرسم فى اليوم التالى قال له ساندرو :

- حسنًا يا باجيو لقد بعتُ اللوحة هيا نعلقها تحت إضاءة جيدة كيما يتسنى للرجل الذى سيشتريها أن يراها فى أحسن حالاتها وعندها سيدفع النقود .

صرخ التلميذ :

- كم حدث هذا بسرعة يا أستاذى !

ثم وضع الصورة بأيدٍ مرتعشة تحت أجمل إضاءة وذهب لإحضار البائع .

ومنذ تلك اللحظة صنع بوتيتشيللى وتلاميذه الآخرون ثمانية أغطية للرأس من الورق المقوى ذى اللون القرمزى- تمامًا كما كان يرتدى أهل فلورنسا - وثبتوها بالشموع على رؤوس ثمانية من الملائكة فى الصورة .

وعاد باجيو للعمل والرسم مبتهجًا وأحضر معه المواطن الذى عُرف بالمرح، ونظر الطفل المسكين إلى الصورة فأخذت عينيه، فما الذى حدث ؟ وأين ملائكته ؟ لابد أن الصورة قد فتنته فبدلا من الملائكة رأى ثمانية مواطنين فى أغطية رأس قرمزية !

فنظر حوله ونظر إلى الرجل الذى وعد بأن يشترى الصورة ويرفض بالطبع أن يأخذ شيئا كهذا ، ولكن من دهشته بدا المواطن مسرورًا وامتدح العمل .

قال الرجل :

- إنها تستحق النقود ، و إذا ما عدت معى إلى منزلى سأدفع لأجلها ست قطع ذهبية .

وعرف باجيو فى الحال ما الذى يفعله ، لقد كان متحيرًا مرتبكًا وشعر كما لو أنه فى كابوس بمجرد أن استطاع واندفع عائدًا إلى المرسم لينظر ثانية إلى اللوحة فاكتشف أن المواطنين الذين يرتدون أغطية رأس حمراء قد اختفوا وكان هناك ثمانية من الملائكة بدلا منهم !

لم تكن هذه مفاجأة بالطبع ، فلقد قام ساندرو وتلاميذه بإزالة الشمع وأغطية الرأس القرمزية بسرعة .

نادى التلميذ المتحير أستاذه قائلا :

– سيدى أخبرنى إذا ما كنت أحلم أو إذا ما كنت قد فقدت عقلى ؟

فعندما عدت الآن كان هؤلاء الملائكة مواطنين ذوى أغطية رأس حمراء والآن هم ملائكة مرةً أخرى فما معنى هذا ؟

قال بوتيتشيللى بوقار :

– أعتقد يا باجيو أن النقود قد أدارت عقلك ، فلو أن الملائكة تبدو هكذا أتعتقد أن المواطن سيشترى الصورة ؟

قال باجيو وهو يهز رأسه بوقار :

– هذا حق وأقسم لك أننى لم أر شيئًا أوضح من هذا .

و لم يعد الولد المسكين يثق بعينيه لأيام عدة مذ خدعته ، و لكن ما حدث بعد ذلك فى المرسم لم يبد مبهجًا للأستاذ حيث إن حائكًا للثياب أتى ليسكن على مقربة منه وكان نَوله يسبب ضوضاء تصم آذان ساندرو وكان المنزل يهتز بشدة وأضحى من المستحيل مع كل هذه الضوضاء أن يرسم ساندرو .

وعلى الرغم من أن بوتيتشيللى قد ذهب وتحدث إلى الرجل بلطف فإن الرجل أجابه بغلظةٍ قائلا:

– ألا أستطيع أن أفعل ما أريد فى بيتى ؟!

فغضب ساندرو وخرج فى الحال وأمر بحجر ضخم على شكل مربع – حتى أنه ملأ عربة – ووضعه على قمة الحائط الأقرب لبيت الحائك ممنيًا نفسه أن أقل هزةٍ يمكن أن تسقط هذا الحجر الضخم داخل ورشة العدوّ .

و عندما رآه الحائك ارتعد رعباً وذهب فى الحال إلى المرسم وصاح :

- أنزل هذا الحجر الضخم فى الحال ، ألا ترى أنه سيحطمنى ويحطم ورشتى إذا ما وقع ؟!

فقال بوتيتشيللى :

- عفواً لماذا أُنزله أوَلا أستطيع أن أفعل ما أريد فى بيتى ؟!

و هكذا تعلم الحائك الدرس فلم يعد يسبب الكثير من الضوضاء !

لم يعد هناك المزيد من أيام الكسل الحالم في حياة ساندرو ؛ فبمجرد أن تنتهى صورة يبدأ في رسم أخرى ، و تدفقت النقود فى يديه وامتلأ كيسه بالذهب، لذا فقد كان ينفق بذات السرعة التى كان يمتلئ بها كيسه !

كان البابا فى روما Romeالوحيد الذى يجزل له العطاء نظير عمله حيث إن النقود التى أعطاها له كانت تدوم لزمنٍ طويل .

ولكن لإهماله المعتاد قد أنفقها جميعًا قبيل عودته إلى فلورنسا .

" الفصل الثالث "

ربما كانت حياة الحاكم لورينزو Lorenzo الرابع المرحة هى التى علمته أن ينفق ببذخ وألا يفكر فى شىء سوى أن يأكل ويشرب ويمرح ، و لكن سرعان ما طرأ تغيير بدأ يسطو على حياته .

كان هنالك رجل ذو عينين حزينتين ومحرومتين وسط هذا الزحام اللاهى والسعيد الذى ملأ بلاط لورينزو العظيم .

ففى دير سان ماركو الآمن والذى غطت جدرانه صور الرسام الملاك " كنوافذ فى السماء " حزن الراهب ذو الوجه العابس جرَّاء الآثام والباطل الذى استشرى حوله ، فلقد أحب فلورنسا بكل قلبه ولم يتحمل أن تنسى مدينته في ديمومة متعتها كل ما هو طاهر وخيِّر ويستحق الفوز به .

ثم انطلق كصرخة الحرب عبر المدينة وأيقظ الناس من أحلامهم الغبية للراحة والمتعة وتجمع الجميع فى الكاتدرائية الكبيرة ليستمعوا إلى الراهب سافونارولا Sa-vonarola وترك ساندرو بوتشيللى مرسمه ورسوماته لبرهةٍ وأصبح تابعًا للراهب العظيم ولم يعد يرسم صوره ذات الموضوعات الأرضية والتى أبهجت لورينزو كثيراً .

وحين عاد ذات مرةٍ إلى عمله لم يكن ذلك إلا ليرسم عينى العذراء الحزينتين .

وأضحت الموسيقى التى ما زالت تتدفق عبر مشاهده تمامًا كأغنية الملائكة .

فى هذا العهد من الترف والمتعة نشأ أبناء فلورنسا شرسين خشنين وظلوا مرعبين أثناء احتفالات المدينة .

لقد حملوا عصياً طويلة وهراوات وراحوا يعترضون المارة طالبين منهم دفع نفقات لأجل عبورهم الشوارع وأنفقوا هذه الأموال فى شرب الخمر وإقامة الولائم، وأقاموا أشجاراً ضخمة فى الشوارع والميادين ليلا وأشعلوا المشاعل والنيران من حولهم ثم راحوا يبدأون قتالا عنيفاً بالأحجار مما تسبب فى أذى كثير منهم حتى أن البعض قُتل إثر هذا !

لم يستطع أحد أن يوقف كل هذا حتى أعمل سافونارولا عقله بأن هذا الأمر يجب أن يبطل ثم تغير كل شىء كما لو أن الأمر سحر!

فبدلا من لعبة التحطيب بالمدرات الخشنة أقيمت مذابح القرابين الكنسية فى زوايا الشوارع وتسول الصبية الأموال من العابرين لا لاحتفالاتهم ومجونهم وإنما لأجل الفقراء فقال سافونارولا لأحدهم :

– لن تفقد شعلتك ولكن بدلا من أن تشعل شجرة سوف تحرق الغرور والأشياء الغير نافعة وهكذا ستطهُر المدينة .

وانطلق الأطفال يجمعون كل الأشياء الباطلة – كما أسموها – كالشّعر المستعار والأقنعة وفساتين الاحتفالات والأغانى الغبية والكتب الرديئة والصور الشيطانية وكُوِّمت كل هذه الأشياء ثم أُضرمت فيها النار لتصنع ناراً عظيمة .

اعتقد البعض أن ساندرو ربما قد ألقى ببعض صوره الجميلة فى هذه النار ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا .

ثم جاء زمن حزين حين انقلب الناس على سافونارولا ملكهم الذى أجمعوا عليه بنفس طريقة الاحتشاد تلك وعندئذٍ أُحرق الراهب العظيم – والذى قضى معظم حياته جاهداً أن يعلمهم ويساعدهم ، ويحسن إليهم – فى الميدان الكبير فى تلك المدينة التى أحبها كثيراً .

مرّ وقت طويل بعد ذلك قبل أن يهتم بوتشيللى بأن يرسم مجدداً، كان عجوزاً وسئماً، فقيراً وحزيناً، ناقماً على هذا العالم الذى عامل السيد الذى أحبه بكل تلك القسوة .

صورة واحدة أخيرة رسمها ساندرو تُظهر كيف يتغلب الخير على الشر ، ليس بالسيف وحده ولا بالقوة العظيمة يكون النصر كما يقول لنا ساندرو بصوره التى رسمها ولكن باليد الصغيرة للمسيح الطفل Christ Child التى تقهر بالحب وتُقرب جميع الناس إليه .

هذه السجدة لماجى Magi فى معرضنا الدولى فى لندن هى الوحيدة التى وقعها بوتشيللى بإمضائه :

– أنا أليساندرو، رسمت هذه الصورة أثناء الاضطرابات فى إيطاليا حين تُرك الشيطان طليقًا لثلاثة أعوام ونصف ، فهل بعد ذلك سيقيد ونراه مطروحًا تدوسه الأقدام كما فى هذه الصورة ؟

إنه من الواضح أن بوتيتشيللى عنى بكلماته تلك السنين الحزينة من الكفاح ضد الشر الذى انتهى باستشهاد الراهب العظيم ولقد وضع سافونارولا بين حشد العابدين مسحوبًا على أقدامه بواسطة المسيح الطفل .

إنه لمن المحزن أن نفكر فى تلك الأيام الأخيرة حين أصبح ساندرو مسناً جدا ولم يعد قادراً على الرسم وهو الذى أحب لشخصياته التى رسمها أن تتحرك بأقدامٍ راقصةٍ ، إنه مضطر الآن إلى أن يمشى على عكازين .

ذبلت أزهار الربيع وذبل السوسن الآن وبدلا من موسيقى شبابه كان يسمع فقط الأصوات الخشنة والناكرة للجميل فى أيام الفقر والكهولة المجدبة .

دائمًا ما كان هناك شىء حزين بشأن صوره أيضًا، ولكن رغم الحزن فإننا إذا ما أصغينا فسنستمع إلى أغنية ملاك ونعيها أكثر إذا ما كان فى أذهاننا ذلك العابد الذى تركه لنا بوتيتشيللى .

" آه يا ملك الأجنحة وسيد الآلهة ويا حاكم الأبدية الوحيد والذى يهدينا فى كل ضلالاتنا يا ملهم جوقة الملائكة لحنها العذب .. أصغِ قليلا إلى حزننا المر وتعال واحكمنا آه يا ملكنا الأعلى بكل الحب العذب " .



self-portrait of Botticelli

بورتريه شخصي لساندرو بوتيتشيللي



بورتريه لرجل وميدالية من الملك كوسيمو العظيم
بمعرض أوفيزى من أعمال ساندرو بوتيتشيللى ١٤٧٤
Portrait of a Man with a Medal of Cosimo the Elder , 1474

DOMENICO GHIRLANDAIO دومينيكو غرلاندايو

١٤٩٤ - ١٤٤٩

" الفصل الأول "

غـرلانـدايو GHIRLANDAIO ... يا لـه من اسم صـعب على آذاننا ولكن له مـعنى يسير، وحين تفهمه ستتلاشى صعوبته .

وهكذا حدث كل هذا .. كان والد دومينيكو صائغًا وواحداً من أمـهر الصاغة فى فلورنسا يشتهر بصوغ الأكاليل والأطواق الذهبية منها والفضية .

ومن المعهود آنذاك عند جميلات فلورنسا أن يرتدين هذه الأكاليل - كما سميت - على رؤوسـهن، ولأنه برع فى صنعها أكثر من أى شخص آخر فلقد أضفوا عليه هذا اللقب " غرلانداير " والذى يعنى صانع الأكاليل ، ثم أصبح هذا الاسم لقبًا للعائلة .

وحين حان للفتى دومينيكو أن يتعلم التجارة أُرسل - بالطبع - إلى ورشة والده ، ولقد تعلم بسرعة وعمل بأصابع ماهرة وقوية مما أسعد والده .

ولقد قال والده بفخرٍ وهو يشاهده يلف السلك الذهبى الرقيق ويُخرج تصميماته من الفضة المطروقة :

- سيصنع الولد أجمل حُلى فى حياته !

لذا فلقد جلس ليضع الأكاليل ولقد كان قانعًا وسعيداً بعمله النفيس وهو أن يلف الأوراق الذهبية الرشيقة من هنا وهناك، أو سوسنة من الفضة أو زهرة من المجوهرات وأن يحلم بالرأس الجميل الذى سوف يستقر عليه الإكليل .

و لكن صنع الأكاليل لم يُرض دومينيكو طويلا، وكما فعل بوتشيللى بدأ يحلم بأن يُصبح رسامًا " عليك أن تعرف أنه فى تلكم الأيام كان لدى صانعى الحلى والأكاليل

الكثير ودائمًا ما عملوا معًا ، فصانع الأكاليل يصنع صورة بالذهب والفضة والمجوهرات بينما يرسم الرسام ألوانه وكلاهما فنان " .

و هكذا شاهد غرلانداليو هؤلاء الرجال يرسمون تصميماتهم العظيمة واستمع إلى أحاديثهم وبدأ يشعر بأن عمل صانع الحلى ضيق ومحدود ، و تاق إلى عملٍ أوسع وأكبر، و يومًا إثريوم أضحى صانع الحلى أكثر إهمالا وراح يقضى كل لحظات فراغه فى رسم الوجوه التى تأتيه فى متجره أو تلك الوجوه العابرة .

و رغم ذلك ترك متجر والده وتعلم أن يصنع الصور بالألوان بدلا من الذهب ، والفضة والمجوهرات وظلت ممارسته لعمل صانع الحلى تظهر فى عمله وصوره إلى النهاية .

لقد رسم أصغر الأشياء بدقةٍ عالية ، و لم يكل قط من بسطها بزينة رقيقة .

ظل قسم كبير من العمل مع غرلانداليو عن الخارج وليس عن داخل الروح الأمر الذى يختفى فى صوره مع أنه كان يمتلك موهبة رسم البورتريهات Portraits، هذه البورتريهات التى رسمها كانت رائعةً جدا وأدهشت الفلورنسيين Florentines .

وظهرت فى لوحاته وجوهٌ عرفوها وتعرفوا عليها فى الحال ، فى مجموعة القديسين ، أو فى زحام الأشكال حول المسيح الطفل، كانوا يرون الوجوه المألوفة للنبلاء الفلورنسيين والسيدات العظيمات فى القصور ، حتى رجال السوق والمزارعة الفقيرة التى تبيع البيض والخضروات فى الشوارع، وذات مرةٍ رسم أُسقفًا يرتدى نظارة تستقر على أنفه، و لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تُرسم فيها نظارة فى صورة .

ثم كان عليه أن يذهب إلى روما كأىٍّ شخص آخر ليضيف مساهماته إلى رسامى الجص فى الفاتيكان ولكن معظم عمله قد تم فى فلورنسا .

هنالك معبد في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا يخص عائلة ريتشي ،و لقد غُطي برسوم الجص الجميلة والآن قد تلفت هذه الرسوم بفعل الرطوبة والمطر الذي تسرب عبر السقف .

كانت عائلة النبيل التي ينتمي إليها المعبد فقيرة ولم تُطق أن تُعيد طلاء المعبد ولكنهم لم يسمحوا لأحدٍ أن يزينها ؛ لئلا تخرج من أيديهم والآن عندما سمعت عائلة نبيل آخر تسمى عائلة تورنا بوني ، بشهرة الرسام الجديد أرادوا بقوة أن يحظوا بشرف رسمه للمعبد كيما يعود هذا الشرف إليهم وإلى اسم عائلتهم، بناءً على ذلك ذهبوا إلى عائلة النبيل ريتشي وعرضوا أن يرسموا المعبد ويدفعوا للرسام بأنفسهم، علاوةً على هذا .. قالوا بأن أذرع أو قمة عائلة ريتشي يجب أن تُرسم على أشرف مكان في المعبد حتى يعلم كل من يراه بأنه يخصهم .

لذا وافقت عائلة ريتشي سعيدةً وجلس غرلاندايو للعمل، ليغطي الجدران برسوم الجص . قال جيوفاني تورنا بوني :

– سأعطيك ألفًا ومائتي قطعة ذهبية حين يتم العمل،وإذا أعجبني سأمنحك مائتين على ذلك .

كان هذا يعد مبلغًا جيداً بالطبع ،فعمد غرلاندايو GHIRLANDAIO إلى العمل بكل سرعة ويومًا فيومًا كبرت الرسوم ؛ فلقد عمل بجد لأربعة أعوام من الصباح إلى المساء حتى غُطيت كل الجدران بالرسوم .

قصة العذراء واحدة من القصص التي اختارها لرسومه والتي طالما رسمت بأيدي فناني فلورنسا .

هذه القصة التي سأخبرك بها الآن، ولسوف تمتلئ عيناك بهجةً بالصور حين تراها .

قصة العذراء ماري في الكتاب المقدس تبدأ حين جاء الملاك جبريل ليخبرها عن ميلاد المسيح ،ولكن هناك قصصاً عديدة أو أساطير عنها قبل ذلك الوقت وهذه واحدة كان الإيطاليون يحبون أن يرسموها على الأخص :

بين التلال الزرقاء فى الجليل Galilee فى المدينة الصغيرة نازاريث Nazareth، عاش جوتشيم Joatchim وزوجته آنًّا Anna، ولقد كانا ثريين ويمتلكان عدة قطعان من الأغنام والتى طعمت فى المراعي الخصيبة من حولهم .

ثمة شيء واحد لم يمنحهم الله إياه وتاقت نفساهما إليه أكثر من أى شيء ، إذ لم يكن لديهما طفل ، ولكنهما أملا أن يمنحهما الله طفلا ولكنهما الآن قد كبرا وبدأ يخفت لديهم الأمل .

كان جوتشيم رجلا صالحًا ومنح ثلث ما لديه هبةً للمعبد ولكن ذات يوم حزين رفض الكاهن العالى للمعبد أخذ هبته وقال له :

– إن الله لن يقبل هذا مادام ليس لديك طفل !

" الفصل الثانى "

امتلأ جوتشيم بالحزن والخجل ولم يذهب إلى البيت حيث زوجته، ولكنه تسكع فى الحقول البعيدة حيث رعاته يرعون القطعان وظل هناك أربعين يومًا برأسٍ منحنيةٍ وعينين حزينتين وحيدًا، وركع وابتهل إلى الله أن يخبره ماذا فعل كيما يستحق هذه النقمة، وبينما هو يصلى أرسل الله إليه ملاكًا ليريحه .

وضع الملاك كلتى يديه على الرأس المنحنية للرجل المسكين المسن وأخبره أن يبتهج وأن يعود إلى زوجته فى الحال وقال الملاك :

– لأن الله سيرسل الطفل فى الحال .

وهكذا وبقلب شاكر لم يشك جوتشيم لحظة فى كلمة الملاك ويمم وجهه شطر البيت .

فى تلك الأثناء وفى البيت كانت آنًا أسيفةً وحيدة وذهبت فى نفس اليوم إلى الحديقة، وبينما هى تتسكع بين الزهور راحت تبكى بمرارة وصلَّت للرب ليرسل الراحة إليها ؛ وحينئذٍ ظهر هناك ملاك أيضًا وأخبرها بأن الله قد استمع إلى صلواتها ولسوف يرسل الطفل الذى تاقت إليه، وأضاف الملاك :

– اذهبى الآن وقابلى زوجك جوتشيم العائد إليك الآن وستجدينه عند مدخل البوابة الذهبية Gold Gate .

وهكذا فعل الزوج والزوجة ما أمرهم به الملاك وتقابلا معًا عند البوابة الذهبية وحلَّق وعد الملاك فوقهم ووضع يد التوفيق على رأسيهما معًا .

لم تكن هناك حاجة للكلام بينما ينظر كل من جوتشيم وآنًا إلى عينى الآخر ويقرأ البهجة الوقور من رسالة الملاك ، امتلأ قلباهما بالسلام والراحة .

ولم يمض من الوقت الكثير حتى تحقق وعد الملاك وولدت بنتٌ جميلة لآنًا وجوتشيم فقالت آنًا فى بهجتها وفرحتها إنها يجب ألا تكون كسائر الأطفال ولكن يجب أن تخدم فى المعبد كما فعل صامويل الصغير ولم يكن الاسم الذى منحاها إياه – مارى Mary – معروفًا آنذاك حتى أنها كانت أم سيدنا Lord Our .

كانت الصبية الصغيرة فى الثالثة من العمر حين أخذها والداها ليهدونها إلى المعبد، كانت صغيرة حتى أنهما خشيا عليها أن تخشى الصعود إلى المعبد الكبير وتلتقى الكاهن العالى وحدها .

لذا سألاها أن تذهب فى صحبة الأطفال الذين كانوا فى طريقهم أيضًا إلى المعبد ولكن حين وصلت الجوقة الصغيرة إلى المعبد خطت مارى للأمام وبدأت تصعد خطوةً خطوةً وحيدةً بينما والداها والأطفال الآخرون يتعجبون فى الأسفل ! .

لقد تسلقت قُدمًا نحو المعبد ووقفت برأسها الصغير المنحنى لتتسلم مباركة الكاهن الأعظم .

وتُركت الطفلة هناك لتتعلم كيف تُطرز الأرجوان وترتق التيل لثوب الكاهن Priest 's Vestments ولم يحدث قط من قبل أن رُتق ثوب الكاهن كما رتقته أصابع مارى برقة عميقة ؛ لأن عملها عضدته يد ملاك وكانت الملائكة المباركة لا تبرحها نائمة كانت أم مستيقظة .

وحين حان الوقت لكيما تتزوج الفتاة تقدم إليها الكثير من طالبى الزواج وصعب عليها أن تختار، وكيما تحسم الأمر أخبرتهم أن يُحضروا براميلهم أو عصيان الصولجان ويتركونها فى المعبد طيلة الليل لعل الله يبين لها بعلامة من الشخص الأكثر أحقية بها ليكون قيمًا بأمر الفتاة النقية الصغيرة .

كان من بين المتقدمين نجار فقير من نازاروث Nazareth يُسمى يوسف Joseph والذى كان أكبرسناً وأكثر فقراً من أىٍّ من المتقدمين .

كانوا يعتقدون أنه من الغباء أن يُحضر عصاه ومع ذلك وُضعت مع عُصى الآخرين فى المعبد .

وحين طلع الصباح ودخل الكاهن إلى المعبد أمسك عصا يوسف التى نما فيها الورد والأوراق من بين الزهور وطارت عليها حمامة بيضاء كالثلج .

فعرف أن يوسف قد اختير ليقوم بأمر الفتاة !

أما بقية المتقدمين للزواج فاختطفوا عِصيَّهم وكسروها على رُكبهم فى حدةٍ ويأس !

واستمرت القصة إلى ميلاد المخلص كما رُويت لك فى الكتاب المقدس The Bible .

كانت هذه هى القصة التى رسمها غرلاندايو على جدران المعبد حسب تاريخ يوحنا المعمدان John The BaPtist .

ثم رسم أذرع تورنابيونى Tournabuoni على أستار متعددة فى كل أنحاء المعبد، ورسم معطفًا صغيراً من أذرع عائلة ريتشى فى مظلة العشاء الربانى فى المذبح العالى .

انتهى العمل فى المعبد فى النهاية وهب الجميع لرؤيته، وجاء ريتشى Ricci – صاحب المعبد – أول الجميع .

ونظروا أسفل وأعلى لكنهم لم يجدوا أذرع عائلتهم، بل وجدوا أذرع تورنابيونى فى جميع انحاء المعبد !

فهرعوا إلى القنصل فى هياج عظيم وطلبوا أن يعاتب جيوفانى تورنابيونى ولكنما

حـين تم شـرح الأمـر تبـين أن أذرع ريتـشى وُضـعت فى الواقع فى أشـرف مكان واضطُّروا أن يقنعوا مع أنهم تعهدوا بالثأر من تورنابيونى .

ولم يحصل غرلاندايو على المائتين الإضافيتين من القطع الذهبية، ورغم ذلك كان جيوفانى مسروراً برسوم الجص التى لم يأخذ ثمنها الذى وُعد به .

لم يعشق غرلاندايو شيئًا فى حياته قدر أن يعمل من الصباح إلى المساء .

ولم يدع شيئًا صغيراً للغاية أو حقيراً حتى رسمه ... كأطواق سلال النساء ولم يأنف من أن يقوم بأىٍّ من الأعمال وصاح يومًا :

– آهٍ كم كنت أتمنى أن أرسم الجدران حول فلورنسا بقصصى .

ولكن لا وقت ليفعل هذا كله؛ فلقد كان فى الرابعة والأربعين من عمره حين وافته المنية وأرقدته تحت فرشاته وقلمه لأن عمله تم .

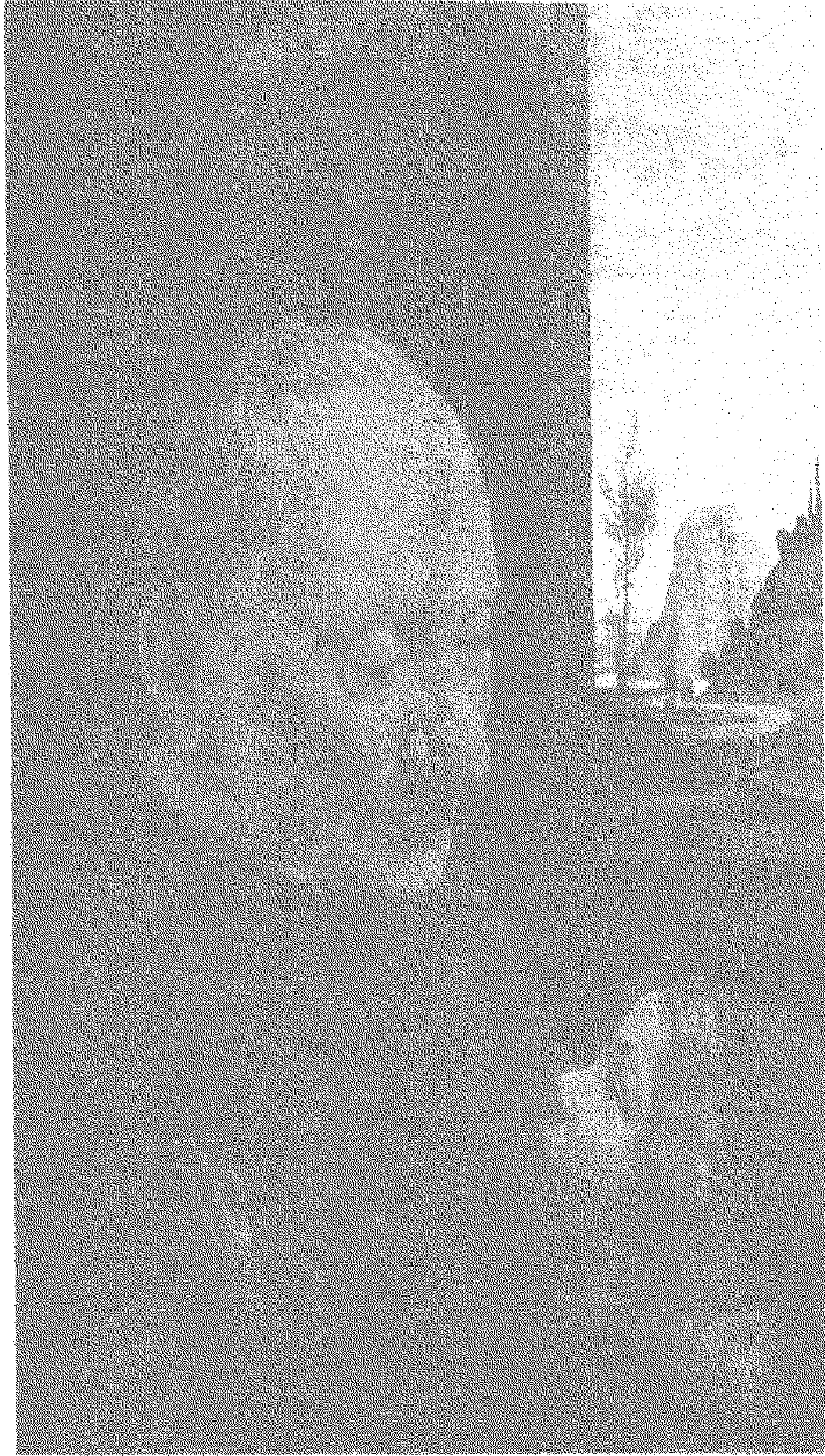
وتحت رسومات الجص التى رسمها وضعوه لكى يرتاح هناك فى كنيسة سانتا ماريا نوفيلا **Santa Maria Novella** .

ورغم أننا أحيانًا نفتقد الروح فى صوره ونكل من الزينات الخارجية الزاهية فى عمل الصائغ، فإن هناك شيئًا ما يجعلنا نحب العرض الكبير للسيدات الجميلات والرجال الأشداء فى العمل التام بعناية لهذا الفلورنسـى "صانع الحُلى" **Maker of Garlands** .



لوحة من أعمال غرلاندايو

DRAWING BY GHIRLANDAIO



جد مع حفيده / رسم على الخشب / لدومينيكو غرلاندايو ١٤٩٠ وهى معروضة بمتحف اللوفر بباريس / فرنسا .

An Old Man and His Grandson by Domenico Ghirlandaio (c.1490) Tempera on wood, 62 x 46 cm Musée du Louvre, Paris



ليوناردو دي ميديسي بين أنتونيو بوتشي وفرانسيسكو ساسيتي وجيوليو دي ميديسي / من أعمال الجص لغرلاندايو .

Ghirlandaio-a-pucci-lorenzo-de-medici-f-sassetti

FILIPPINO LIPPI فيليبينو ليبى

١٥٠٤ - ١٤٥٧

" الفصل الأول "

تُرك فيليبينو الصغير Filippino ذو الشعر المجعد فى رعاية فرا ديامنتى Dia-mante، و سرعان ما أبدى رغبته فى أن يُصبح رسامًا كوالده ،و عندما رسم صوره كأى طفلٍ صغير وعرضها بفخرٍ على والدته أخبرها أنه أيضًا سيتعلم ليصبح فنانًا عظيمًا ذات يومٍ؛ ربتت على شعره المجعد وأخبرته أنه يمكنه هذا وعليه أن يبذل قصارى جهده .

وبعد ذلك اليوم الحزين الذى سمعت فيه لوكريزيا Lucrezia نبأ وفاة فيليبو وتحطم البيت السعيد ،بدأ فرا ديامنتى فى تدريب فيليبينو الذى تُرك فى عنايته بهمةٍ وحماسةٍ .

لقد كان لديه الكثير من النقود ولقد أُجزل له العطاء لأجل فيليبو نظير عمله فى سبوليتو Spoleto ، ولقد تقرر أن يقيم الطفل فى مرسمٍ ما Studio حيث يتعلم كل ما هو ضرورى ليصبح فنانًا عظيمًا .

لم يكُ ثمة خوف لدى فيليبينو من التسكع فى شوارع فلورنسا عاريًا جائعًا كما حدث مع والده ،ولقد كان تدريبه مختلفًا أيضًا وبدلا من أن يوضع فى الدير Convent مع الرهبان الطيبين تُرك تحت رعاية فنان عظيم وعمل فى المرسم مع الأولاد الآخرين .

كان أستاذه هو ساندرو بوتشيللى Sandro Botti-celli وهو فنان فلورنسى ، كان تلميذًا من تلاميذ فيليبو Filippo وعمل معه فى براتو Prato .

عرف فرا ديامنتى أن ساندرو هو أعظم فنان فى فلورنسا فى ذلك الحين وأن لديه المقدرة أن يعلم الطفل أفضل من أىّ فنانٍ آخر .

كان فيليبينو مجتهدًا ولم يكن لديه أىٌّ من أخطاء والده ،والتى كانت تقوده فى الغالب إلى كثير من الأذى والمغامرات الغريبة .

مرت أيام صباه هادئةً وتعلم كل ما استطاع معلمه أن يلقنه إياه ثم بدأ يرسم صوره الخاصة .

كان عمله الأول أن يرسم جدران كنيسة كارمل Carmille Chapel والغريب أنها ذات الكنيسة التى تعلم فيها فيليبو وديامنتى دروسهما ، و لقد تطلع برهبة واحترام إلى أعمال ماساتشو Masaccio !

مات الرسام العظيم توم القبيح Ugly Tom ومازالت أجزاء من الكنيسة لم ينته العمل بها بعد .

لذا فلقد دُعى فيليبينو ليملأ هذه المساحات الفارغة بعمله ورسومه .

لم تك ثمة حاجة برئيس الدير إلى أن يحذر الرسام الشاب من إثم رسم الصور الأرضية؛ فلقد كانت رسوم الجص التى تمت يومًا بعد يوم تحت يدى فيليبينو قدسيةً وجميلة .. الملاك الطويل فى الثوب الأبيض الفضفاض – والذى يقوم القديس بيتر بدفعه برقةٍ خارج باب السجن – مشرقٌ بالضوء النقى الجميل والذى يتحدث من السماء، والجندى النائم والذى يبدو على النقيض قاتمًا وثقيلا ، بينما القديس بيتر يوجه عينيه حيث المرشد اللطيف ويطوى يديه فى توقير وتبجيل ويلفهما تحت الضوء الشفيف المنعكس عن ذلك الوجه الجميل .

وعلى الجدار المقابل الوجه الحزين للقديس بيتر ينظر من خلال قضبان السجن بينما يقف من خارجه قديس يواسى السجين المسّكين ويداه مرفوعتان، وشيئًا فشيئًا تم العمل فى جدران الكنيسة .

وأصبح هناك من العمل الكثير الذى ينتظر يدى الرسام الصغير .

يقال بأنه كان مولعًا بدراسة الزخارف الرومانية القديمة ورسمها فى صوره متى كان ذلك ممكنًا ،و أضحى جد شهير بهذا النوع من الفن .

و لكن ما جعلنا نحب صوره هو جمال ملائكته وعذراواته وجعلنا أيضًا نتذكر أمه الجميلة الرقيقة والتى علمته كيف يرسم تلك الوجوه الجميلة .

ربما كانت واحدة من أجمل صوره فى كنيسة باديا Badia فى فلورنسا ، تلك التى تحكى لنا قصة القديس المبارك برنارد وتُظهره جالسًا فى صحرائه بين الصخور يدون تاريخ العذراء ، لكنه لم يستطع أن يكتب شيئًا فى ذلك اليوم ؛ فربما كان يشعر بالكآبة وواحد من كتبه مبعثر حوله بينما هو شاردٌ فى أفكاره وقلمه فى يده !

وقفت العذراء بنفسها أمامه – وعلى الجانب الآخر ملاك صغير من خلفها – وهى تضع يده الرقيقة على كتابه فبدت وكأنها تخبر القديس برنارد كل الكلمات الذهبية التى لم يستطع قلمه الأرضى المسكين أن يدونها حتى تلك اللحظة .

كان من تقاليد إيطاليا القديمة أن توضع الصور والأشكال المقدسة فى شوارع إيطاليا كيما يراها العابرون ليتذكروا الأشياء المقدسة ويتلون صلواتهم فى أثناء عبورهم .

ولايزال هذا التقليد إلى الآن فى عديد من المدن حيث تجد فى ركن قديم يعلوه الغبار صورة جميلة رسمتها يد فنان حيث بريق الألوان يخطف بصرك وحين تنظر أعلى يمكنك أن ترى صورةً أو حرمًا صغيرًا من الفخار المطلى بالأزرق والأبيض حيث كانت العذراء تركع وتسجد وحيث المسيح الطفل راقد بين أزهار السوسن عند أقدامها ، وما زال المصباح المعلق أمام هذا الحرم مضيئًا بواسطة يدٍ وفية .

سيأتى الأطفال فى الربيع غالبًا وسيضعون أغصان الأزهار البرية على الحافة فى الأسفل .

" الفصل الثانى "

سيقولون من أجل يسوع الصغير Jesu Bambino وسيغشى وجوههم الوقار والتبجيل وهم يركعون يبتهلون بصلواتهم ثم يعاودون لهوهم .

فى جانب صغير من شارع براتو وليس بعيداً عن الدير حيث رأى فيليبو وجه لوكريزيا Lucrezia الجميل لأول مرة فى الحديقة المشمسة ، يوجد جانب من الممرات رسمه فيليبينو Filippino وهو واحد من أجمل ما رسم ويبدو وجه مريم فى الشارع المزدحم ،والطفل المقدس يرفع يده الصغيرة يبارك القديسين الذين يقفون فى كل جانب .

كان الزجاج الذى يغطى الصورة سميكًا ويعلوه الغبار، والقليلون فقط من العابرين هم الذى يتطلعون إليه فالعالم بأجمعه فى شغل هذه الأيام ، فالأقدام المسرعة تعبر والعيون اللامبالية تزداد أكثر وأكثر ،و لكن عذراء فيليبينو تبدو هادئةً وحزينة العينين والمسيح الطفل المحاط بسحابة من أوجه الملائكة الجميلة البيضاء ما زال يبارك بيده المرفوعة هؤلاء الذين ينتظرون مباركته .

وكسائر فنانى فلورنسا العظام ما إن ذاع صيت فيليبينو حتى دُعى إلى روما ورسم العديد من الصور هناك وتوقف فى طريقه عند سبوليتو Spoleto وصمم هناك نُصبًا من المرمر على قبر والده .

لم يكن فيليبينو مولعًا كوالده بالسفر أو المغامرة وكان يسعده دومًا أن يعود إلى فلورنسا وأن يعيش حياته الهادئة هناك، وحتى دعوة ملك هنغاريا Hungary لم تُغره ليترك وطنه !

وكانت كنيسة العظيم سانتا ماريا نوفيلا Santa Maria Novella فى فلورنسا هى آخر رسوم الجص Frescoes التى رسمها فيليبينو؛ لقد كانت رسوماً حقيقية وحية حتى أن واحداً من تلاميذه تعلم خبرته، ولقد كان له العديد من التلاميذ الذين كانوا يعملون ويتعلمون على يديه وكانوا يسحقون الألوان له ويشاهدونه وكان يعهد إليهم أحياناً بإعداد الأجزاء الأقل أهمية فى الصورة .

حدث ذات مرةٍ حين انتهى الأستاذ من عمله وغادر الكنيسة أن أحد تلاميذه تباطأ وراءه ولمحت عيناه الحادة كيساً من الدراهم ممتلئاً فى ركنٍ ما مظلم وقد سقط من أحد الزائرين أو ربما من الأستاذ نفسه .

اندفع التلميذ والتقط الكنز ولكن فى هذه اللحظة التفت الأستاذ للوراء ليحضر شيئاً ما قد نسيه ، وبحث الولد بسرعة أين يخفى كنزه وفى لحظة وقعت عيناه على حفرة فى الحائط أسفل رسم بالجص لفيليبينو ... – لقد كان هذا المكان مناسباً جدا – وجرى الولد بسرعة للأمام ليدفع بالكيس إلى داخل الفتحة بالحائط ولكن واحسرتاه !

لقد كانت الحفرة مرسومة فقط وضُبط الولد واضطر خجِلا أن يعترف ويتخلى عن الكنز !

لم يكد فيليبينو ينهى رسوم الجص حتى أصابته الحمى وتوفى بغتةً مثل والده .

فى تلكم الأيام حين كانت جنازة أمير فلورنسا ، اعتاد الفلورنسيون أن يغلقوا متاجرهم وكانت هذه دلالة عظمى على الاحترام .

وكان ذلك من أجل الدم الملكى فحسب ولكن يوم أن مرت جنازة فيليبينو عبر شارع باى دى سرفى أُغلقت جميع المحال التجارية وبكته فلورنسا كلها، ويقولون :

يولد بعض الرجال أمراء ويسعى بنفسه ومواهبه ليصبح ملكاً بين الناس .

لقد كان فيليبو أميراً للفن ونحن نشرف باسمه كذلك .



بيتر فى السجن / من أعمال فيلييينو ليبى

ST. PETER IN PRISON. BY FILIPPINO LIPPI



بورترية ذاتى لفيليبينو ليبى

و هو عمل من الفريسكو فى سانتا ماريا / فلورنسا

Self-portrait. Detail from The Dispute with Simon Magus (1471-1472) Fresco. Brancacci Chapel, Santa Maria del Carmine, Florence Italy.

بياترو بيروجينو Pietro Perugino

١٤٤٦ - ١٥٢٤

" الفصل الأول "

لم تكد أشعة الشمس تعلو أسطح البيوت فى مدينة بيروجيا Perugia فى الصباح الباكر حتى عبر رجل وصبى الطريق الملتف الذى يؤدى للسهل بخطًى ثابتةٍ إلى المدينة التى تتوج التل من الأمام .

كان الرجل يرتدى ملابس مزارع فقير خشنة من أمبريان Umbrian وقد أحنى الفقر والكد كتفيه ورسما خطوطهما العابسة على وجهه، ولكن علاوة على ذلك كانت عزة نفسه مما يميزه ،وكان للولد الذى يخب على قدمين حافيتين إلى جوار أبيه وجه صغير جلد وجاد ،ولكنه بدا متعباً وجائعاً وبالكاد يتحمل هذا المسير القاسى الطويل .

لقد انطلقا من بيتهما فى كاستيللو ديل بييفو Castello delle Pieve مبكرين جدا ولقد كانت قطعة الخبز الأسود التى تناولاها فى الصباح صغيرة ،وامتد الطريق أبيض أمامهما وطويلا لا ينتهى، وكان على الأقدام الصغيرة المتربة التى خطت بشجاعة للأمام أن تسرع من الآن فصاعداً كيما تساير الخطى المسرعة للرجل ،بينما ثبتت عيونهما التواقة على هذه المدينة القصية وراحت تتساءل عما إذا كانوا حقاً سيصلون إلى نهاية رحلتهم !

وأخيراً سأل الأب ابنه وهو يستمع إلى تنهيدته الصغيرة :

– هل أنت متعب بالفعل يا بياترو Pietro ؟ لماذا ولم نبلغ منتصف الطريق بعد إلى هناك ؟ يجب أن تخطو بشجاعة وتكون رجلا ؛ فمن اليوم ستبدأ الحياة العملية ولم تعد طفلا كسولا لا عمل له !

عدَّل الولد من كتفيه وأشرقت عيناه وقال :

– لست أنا المتعب يا والدى إنها ساقاى .. لا يمكنهما أن تخطوا مثل خطوتك الطويلة ولا أن تمشيا الطريق الذى يبدو وكأنه لا يلتف ويمضى أبعد للأمام كالخيط الأبيض الساحر الذى لا نهاية له .

ضحك الأب وربت على رأس الصبى بلطف .

قال الأب :

– النهاية سوف تأتى ، فلتر أين يرقد الضباب عند أقدام التل ، هناك سوف تبدأ التسلق بين أشجار الزيتون وتترك الطريق الترابى ، إننى أعرف طريقًا أسرع يوصلنا إلى المدينة ، سوف نتسلق الصخور الكبيرة التى تميز طريق جدول الماء وقبل أن تشتد حرارة الشمس ستصل إلى بوابة المدينة .

كم كان مريحًا للأقدام الصغيرة المتعبة الحارة أن تشعر ببرودة الحشائش من تحتها وأن تترك الطريق الترابى .. ونسى الولد تعبه تقريبًا وهو يتسلق من صخرةٍ إلى صخرةٍ يجمع بيديه أزهار البنفسج وفى النهاية أتوا إلى نهاية الطريق الترابى وقبل بوابة المدينة كان أمامهم الكثير ليحدقوا فيه ويتعجبوا منه ؛ حيث لم يعد هناك مجال للتفكير فى التعب أو الجوع .

وهناك حيث رعاة النار البيضاء العملاقة وقفوا ينتظرون العبور ، و تساءل بياترو عما إذا كانت أبواقهم الواسعة تصل من جانب إلى جانب فى الشوارع الضيقة – داخل البوابة – هناك كان الأولاد الرعاة يلهون بمزاميرهم وهم يمشون أمام قطعانهم ويقودون خرافهم المرعوية السخيفة خارج طريق عبور العربات .

ازدحمت النسوة ذات المناديل الملونة المشرقة على رؤوسهن وهن يحملن سلال الفاكهة والخضروات من الريف ، وكانت العربات الممتلئة بالبنجر الأصفر والقرمزى تمر

بصخب ، و دوت السياط وصاح الناس وتحدثوا كثيراً ورغب الجميع فى عبور بوابة أتروسكان العملاقة التى وقفت طويلةً وعابسةً قبالة سماء الصيف الزرقاء .

كانت هذه البوابة تؤدى خدمة جليلة ولقد كانت قويةً حين بُنيت أول مرةٍ منذ مئات السنين ، و كانت لا تزال قادرةً على أن تصد جيشًا من الأعداء إذا ما احتاجت بيروجيا أن تدافع عن نفسها .

انسل بياترو ووالده فى طريقهما بسرعة عبر الزحام وعبرا البوابة إلى الشارع المنحدر الضيق البعيد ..

كان الجو هادئًا وجميلا هنا ؛ فلقد حُجبت الشمس بالبيوت العالية ، و رقد الظل عميقًا حتى أن المرء يظن أنها ساعةٌ من ساعات السحر إلا إذا نظر إلى السماء الزرقاء المشرقة التى بدت مشرفةً على رفارف الأسطح .

لقد وصلا حالا إلى ميدان السوق حيث الشمس والضوضاء فى كل مكان ، ويصيح الناس ويبيعون بضائعهم التى بسطوها على الأرض حتى مبنى الكاتدرائية ، فامتدت كلها أمام الميدان العام Palazzo publico .

هنا توقف الرجل وسأل أحد العابرين أن يرشده إلى متجر نيكول Niccolo الرسام .

فأجابه المواطن وأشار إلى متجر متواضع فى ركن من السوق وسأله :

– أترى أحضرت الطفل ليكون موديلاً للرسام ؟

فرفع بياترو رأسه متفاخراً وأجاب بسرعة :

– أنا لم أعد طفلا ولقد جئت لأعمل لا لأمكث بلا عمل !

فضحك الرجل ومضى فى طريقه بينما أسرع الأب وابنه صوب المتجر الصغير ودخلا إليه .

كان الرسام الشيخ مشغولا، فكان عليهما أن ينتظرا حتى يفرغ من عمله ليرى ما يريدان .

قال الأب وهو يدفع بياترو من كتفه :

– هذا هو الولد الذى حدثتك عنه إنه لم يكبر بعد ولكنه قوىٌ ولقد تعلم كيف يتحمل المشاق ، و أدرك أنه سيخدمك جيداً إذا ما استخدمته .

ابتسم الرسام للوجه الصغير التواق والذى كان ينتظر بقلقٍ رد الرسام .

ثم سأله الرسام :

– ما الذى تستطيع فعله ؟

فأجابه الولد فى التو :

– كل شىء ، أستطيع أن أكنس المتجر وأطهو العشاء ، و سأتعلم كيف أطحن الألوان وأغسل فُرش الرسم وأؤدى أعمال رجل !

ضحك الرسام وقال :

– أثق بذلك وإذا لم تستطع أن تؤدى كل شىء لصغر سنك فإنك سرعان ما ستصبح أعظم رجل فى بيروجيا ، و تجلب الشهرة لهذه المدينة الجميلة ، و عندها سندعوك بـ بياترو فانوتشى Pietro vanucci ، ولكنك ستأخذ اسم المدينة وسنسميك بيروجينو Perugino .

" الفصل الثانى "

كان الأستاذ يمزح حين قال له بأنه سيصبح رسامًا عظيمًا، ولكن بمضى الوقت تعجب حين كان يراقب الولد من سرعة تعلمه وسرعة إنجازه لمهامه وبدأ يعتقد أن المزحة ربما تتحول يومًا ما إلى واقع ملموس .

لم يكن بياترو كسولا ، فلقد كان يعمل من الصباح الباكر حتى غروب الشمس ، وحين كان ينجز عمله الشاق كان يقف ليشاهد أستاذه وهو يرسم ويصغى إلى الحكايات التى أحب نيكول أن يقصها .

كان الأستاذ يقول :

ليس ثمة شيء أجمل من فن الرسم إنه السُلم الذى يقود إلى السماء ، والنافذة التى ينسل منها الضوء إلى الروح ، يحتاج الرسام ألا يكون فقيراً ولا وحيداً ؛ إنه يخلق الوجوه التى يحبها بينما يبقى الضوء والألوان والجمال ملء يديه ، فإذا ما أردت أن تصبح رساماً يا بيروجينو الصغير فإننى لا أتمنى لك ثروة أعظم من هذه .

حين كان ينتهى العمل اليومى ويحين وقت السحر كان الفتى يترك المتجر ويخف إلى الشارع الضيق حتى يأتى إلى البوابة العابسة القديمة للمدينة ، وذات مرةٍ فى الهواء الريفى الطلق وتحت السماء الوسيعة الزرقاء استنشق طويلا طويلا شهيق البهجة وسرعان ما وجد ركنًا مختفيًا فى شق جذعٍ أشيب فى شجرة زيتون فجلس هنالك حيث لا يراه العابرون .

وراح يتشرب هذا الجمال بعينيه الجائعتين مستنداً بذقنه على يديه محدقًا أعلى السهل الممتد من تحته .

كم أحب بياترو هذا الفضاء الرحب الفسيح وهواءه المنعش فى الضوء الهادئ النقى فى ساعة المساء !

ذلك الضوء الأبيض الذى بدا سماوياً أكثر ، و أشرق فى كل شيء حوله ، بعيداً حيث التلال القرمزية الخافتة تحت سماء الغروب .

وامتد السهل تحت أقدامه لبعيد حتى التقى بالجبال هنا وهناك رافعًا نفسه على تلٍّ صغير متوج بمدينة وحيدةٍ أمسكت أسطحها بأشعة الشمس الغاربة !

رقدت شبورة المساء كحجاب رقيق على الأراضى المنخفضة الراقدة والطريق المستقيم يبدو ملتفًّا تمامًا كشريطٍ مزركشٍ ما بين الرمادى والفضى بين المدن الصغيرة، ولاحت أشجار السرو وأشجار الحور من هنا وهناك .

والبريق الأزرق دومًا حيث راح نهرٌ أو جدول ماء يعكس صفحة السماء بودٍ كأنه مرآةٌ بين الصخور .

ولكن لم يكن أمام بياترو متسعٌ من الوقت للحلم الكسول فلم تكن حياته بالسهلة؛ حيث لم يربح نيكول الكثير من المال فى عمله ؛ وكان على الولد أن يؤدى كل أعمال المنزل بالإضافة إلى حضوره للمتجر ولكنه كان يكنس وينظف طيلة الوقت وتطلع سعيداً للأيام التى سيصبح فيها رسامًا وفنانًا شهيراً .

كان بياترو يصغى بشغفٍ إذا ما أتى زائرٌ للمتجر ويحاول أن يتعلم شيئًا فى عالم فن الرسم .

وأحيانًا ما كان يغامر ويسأل إذا ما كان الزائر قد سافر وأتى من بعيد .

وحين أتى رسام من فلورنسا للمتجر الصغير ووصف المجد الذى رآه فى مدن أخرى سأله بياترو :

– أين توجد أجمل صورة ؟ وأين يوجد أعظم رسام ؟

فقال الرسام الفلورنسى :

– هذا سؤال سهل الإجابة يا ولدى ؛ فكل ما هو أجمل يوجد فى فلورنسا ، المدينة الأجمل فى العالم وهى مدينة الزهور ،وهناك يمكن للمرء أن يجد الأفضل فى كل شىء وفوق كل ذلك يجد أجمل صور وأعظم رسامين ولا أحد هناك يتحمل إلا أن يفعل الأفضل ويجب أن يبلغ المرء القمة قبل أن يدعوه الفلورنسيون عظيماً .

لقد غُطيت جدران الكنائس والأديرة بصور القسيسين والملائكة ولا تستطيع الكلمات أن تصف جمالها !

قال بياترو لنفسه :

– أنا أيضاً سأذهب إلى فلورنسا !

ويوماً بعد يوم ازداد توقًا على توقٍ لرؤية تلك المدينة الرائعة .

لم تك ثمة فائدة من الانتظار حتى يتوافر المال الكافى ؛ لقد كان بالكاد يكسب قوت يومه ليعيش به يوماً بعد يوم .

وفى النهاية ، انطلق ذات صباحٍ باكر وودع أستاذه وودع العمل الشاق فى المتجر الصغير فى بيروجيا .

واندفع فى نفس الطريق الأبيض الطويل والذى بدا كما لو كان بلا نهاية بالنسبة لطفلٍ صغير مثله .

لقد جاء أولا إلى بيروجيا وحتى حين أضحى شاباً قويًّا ظل الطريق طويلا متعباً عبر ذلك السهل العظيم وغالبًا ما تقرحت قدماه وقد كانتا غير جسورتين !

مضى بياترو فى سفره يوماً إثر يوم ،عابراً البحيرة الكبيرة التى رقدت كياقوتةٍ زرقاء فى حضن السهل ،لقد عبر مدناً عدة وقرى صغيرة حتى أصبح على مرأى من مدينة الزهور .

كانت لحظةً رائعة لـ بيروجينو فأمسك أنفاسه وهو يتطلع إليها !

لقد عبر حافة التل ووقف إلى جوار جدول ماء محاط بأشجار السرو الطويلة المستقيمة والتى بدت بيضاء فضية إلى السماء الزرقاء .

هناك بعيداً ترقد مدينة أحلامه وسط التلال التى تطوقها أبراج وقلاع تتزاحم معًا والأسطح ذات الحمرة الشاحبة التى لفحتها الشمس مع القبة الكبيرة للكاتدرائية فى الوسط ويلف الخيط الفضى طريقها من المنتصف، كل هذا رآه ولكنه رأى أكثر منه ، لذا فلقد بدا له أن روح الجمال تحلق فوق هذه المدينة الجميلة .

ولقد أصغى إلى حفيف أجنحتها ولمح خيوط قوس قزح الملونة فى ضياء السماء المسائى .

مسكين بياترو! ها هو العالم الذى تاق إلى أن يظفر به ، ولكنه ما زال طفلا ريفيًّا فقيراً فأنَّى له أن يتسلق هذا السُلَّم الذهبى للفن والذى قاد الكثير من الرجال إلى الشهرة والمجد ؟

حسنًا ، لقد استطاع أن يعمل وهذه دومًا هى البداية .

كان الكفاح شاقًّا فلطالما ظل جائعًا لعديد من الأشهر ولم يكن له سرير يرقد عليه ليلا ولكنه كان يكور نفسه على سطحٍ خشبيٍ خشن ثم بدأ الحظ يبتسم له .

بدأ الفنانون الفلورنسيون يلحظون عمله الجاد ورأوا فى عمله ثمة شيئًا ساميًا يُسمى العبقرية التى لا يُخْطِئها أحد رغم كل أخطائه .

" الفصل الثالث "

بدا أن أبواب عالمٍ آخر ستفتح لبياترو .

لقد كان يعمل طوال يومه فى معشوقه فن الرسم ، وتعلم الأعاجيب الجديدة وهو يشاهد الفنانين العظام يستخدمون الفرشاة والقلم الرصاص .

وفى مرسم الفنان فيروتشيو قابل رجالا طالما سمع بشهرتهم وتطلع إلى أعمالهم بدهشةٍ ووقار ، كان هناك الراهب الدمث الخلق لكنيسة كارمن Carmine "فرا فيليبو ليبى" Fra Filipo Lippi ، والتقى بوتشيللى الصغير Botticelli ، والشاب الذى كان فى مثل سنه والذى كان يُدعى ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci والذى كان يهمس الجميع بأنه سيصبح ذات يومٍ أعظم فنانى عصره !

كانت هذه هى أيام بيروجينو الذهبية – كما كان يُدعى نسبة إلى المدينة التى أقبل منها – وكثرت الصور التى رسمها بيديه وشعت منها عزة النفس الوقورة والهواء الطلق لمشاهد المساء التى رآها حينما كان يحدق عبر سهل أمبريان .

لم تكن هناك ضوضاء القتال ولا الرغبات الآدمية فلقد وقف قديسوه هادئين وقورين، كانت ملامحهم متفردة يجمعها فحسب خيط الاهتمام .

ودائمًا ما كان هناك العالم الواسع والمنفتح وكان الضوء الأبيض المشرق فى السماء ، وخيط النهر الأزرق والأشجار المنفردة تشير إلى أعلى حيث شجر السرو الوقور أو شجر الحور الناعم الملمس .

كان أمام فناننا الكثير ليتعلمه ولعله قد تعلم الكثير من التعليم الصامت لتلك الكنيسة الداكنة اللون .. كارمن ، حيث علمه ماساتشو أكثر الدروس روعةً من خلال رسوم الفريسكو أكثر مما فعل أىٌّ فنانٍ آخر على قيد الحياة .

وجاءت ساعة التتويج حين تسلم بيروجينو دعوةً من البابا للذهاب إلى روما ليرسم كنيسة سيستين Sistine Chapel .

ومن الآن فصاعداً بدأت حياةٌ مختلفة للرسام الشاب، فلا داعي لأن يتساءل أين وكيف سيتناول وجبة طعامه الآتية ،و لم يعد هناك سطحُ خشبيٌّ خشنٌ ليريح عليه جوارحه المتعبة حين ينتهي من عمله .

إنه الآن ضيف ملكي ويشرف الرجال بصحبته، ورغم أنه أحب فلورنسا وكان فخوراً بأن يرسم في روما فإن قلبه دومًا ما كان يحن إلى المدينة التي يحمل اسمها والتي تقبع هناك على التل !

لقد سافر ثانيةً عبر الطريق الملتف وازدادت دقات قلبه عندما اقترب ورأى الأبراج المألوفة لديه في بيروجيا .

لكم تذكر ذلك اليوم الماضي الطويل حين داعب ملمس الحشائش اللطيفة قدميه المتعبتين المغبرتين .

فتوقف ثانيةً ليملأ يديه بالبنفسج الجميل معتقداً أنه أجمل من كل الشهرة والجمال في المدن الزاهية !

وبينما هو يعبر البوابة القديمة متخذاً طريقه عبر الشارع الضيق تجاه المتجر الصغير بدا كما لو أنه رأى ابتسامة أستاذه القديم مرةً أخرى وسمعه يقول :

– سوف تُصبح أعظم رجلٍ في بيروجيا ولسوف لا ندعوك بـ بياترو فانوتشي ولكن بيروجينو Perugino .

وهكذا لم يعد بياترو ولداً جائعًا ذا ملابس رثةٍ ولكن رجلا يُبهج الجميع ويشرفهم .

حقًّا إنه عالم التغيرات !

أضحت حاجة المرسم الأكبر أعظم من حاجة المتجر الصغير القديم، فلقد أصبح لديه صور أكثر ليرسمها ثم إن لديه تلاميذ عدة جميعهم فى شوقٍ للدخول إلى مرسم الرسام العظيم .

وذات صباح أُحضر إليه تلميذ جديد فى الثانية من عمره وتوسل أولياؤه إلى الرسام العظيم أن يُعلمه ويدربه .

نظر بيروجينو إلى الصبى باهتمامٍ ..؛ فنادراً ما رأى وجهًا بيضاويًّا جميلا محاطًا بخصلاتٍ بنيةٍ ناعمةٍ .. وجهًا نقيًّا ومحبوبًا ويختطف القلوب لأول وهلةٍ .

قال الوصى :

– كان أبوه رسامًا ! وهنا عرف رفائيل Raphael كيف يستخدم القلم الرصاص والفرشاة ولذا علينا أن نعلمه عند أعظم الفنانين على الأرض !

تُرك الولد فى المرسم فى بيروجيا بعد حديث طويل ، و يومًا بعد يوم بدأ بيروجينو يحبه أكثر فأكثر .

لم يك رفائيل ماهراً وذكيًّا فحسب مما جعل أستاذه يتعجب !

كان بيروجينو يقول دومًا وهو يرقب الولد أثناء عمله :

إنه تلميذى الآن ويومًا ما سيصبح أستاذى وسأتعلم منه !

والأكثر من ذلك أن طبيعته الطاهرة الحلوة ولطفه المهذب خلبا لب الأستاذ وأسرا قلبه .

فأحب دومًا أن يقربه إليه ولقد كانت سعادته كبيرة فى أن يعلمه .

لم تدم هذه الأيام الهادئة طويلا فى بيروجيا فلقد جاءت نداءات من كل الربوع إلى بيروجينو وكما أحب عمله لم يستطع أن ينتهى من كل ما أراد .

كان فى فلورنسا ذات يومٍ وتوسل إليه رئيس الدير أن يأتى ويرسم جدران الدير بالفريسكو وقد كان رئيس الدير هذا شهيراً جدا بصنع لون أزرق هو الأجمل والأعلى، وكان يتوق لرؤيته مستخدماً فى جدران الدير .

كان الرجل مرتاباً وحقيراً ولم يثق فى بيروجينو وكان يحتفظ باللون الأزرق فى يديه ويوزعه فى حسدٍ إلى كمياتٍ صغيرة بين رغبةٍ فى أن يلون به جدران الدير وكراهةٍ فى أن يقسِّم شيئًا ثمينًا كهذا .

لاحظ بيروجينو هذا ؛ وغضب وعزم على أن يعاقب رئيس الدير ، وحين كان عليه أن يرسم السماء الزرقاء وضع سلطانية كبيرةً من الماء النقى ودعا رئيس الديرأن يضع كميةً صغيرةً من اللون الأزرق فى إناء زهور صغير ، و كان كلما غمس فرشاته فى إناء الزهور كان يغسلها بحركة ملتوية فى الماء ؛ لذا فإن معظم اللون الأزرق تُرك فى الماء وبقى القليل منه فحسب فى اللوحة وقال فى غير ما اكتراث :

– أبتهل إليك أن تملأ الإناء باللون الأزق مرةً أخرى !

وعندما نفد اللون كله تأوه رئيس الدير بصوتٍ عالٍ وتحول بحسدٍ إلى حقيبته الصغيرة وقال وهو يحدق فى الحائط الأبيض الذى غلبه قليل من اللون الأزرق الثمين :

– يا للكمية التى ابتلعها رسم هذا الحائط !

" الفصل الرابع "

قال بيروجينو بابتهاج :

- نعم لقد رأيت بنفسك كيف ينفد اللون !

وحين ذهب رئيس الدير حزيناً بإنائه الصغير الفارغ صب بيروجينو الماء من السلطانية وجمع اللون المترسب فى قاع الإناء .

وقال لرئيس الدير المنبهر :

- يوجد شيء يخصك ، سأعلمك درساً لتثق بالرجال الأمناء ولا تعاملهم كما تعامل اللصوص ، لأجل كل هذا السوء كان من السهل عليَّ أن أسرقك إذا ما أردت !

أثناء كل هذه السنين التى عمل فيها بيروجينو بجد نما فن الرسم بسرعة وازدهر وخرق كثير من الفنانين الجدد قوانينه وأفكاره القديمة وبدأوا يرسمون بطريقة جديدة .

ثمة رجل واحد يدعى مايكل أنجلو Michelangelo -والذى ستسمع قصته مؤخراً - والذى نهض كعملاق بأسلوبه الجديد ومعرفته العظيمة التى جرفت من أمامه كل شيء !

كان بيروجينو غيوراً من كل هذه الأفكار وتعلق بنماذجه القديمة وهدوئه وقديسيه المبجلين ومناظره الطبيعية الرحبة أكثر ، لقد تحدث بإسهاب فى بغضه للطراز الجديد، وذات مرةٍ دار بينه وبين الفنان الكبير مايكل أنجلو شجار خطير !

فى ذلك اليوم تم اجتماع للرسامين فى مرسم بيروجينو ضم فيليبينو ليبى وبوتشيللى وغيرلاندايو وليوناردو، ثم تلميذ كان فى الخلفية يصغى يُسمى رفائيل .

سأل بوتشيللى :

– ما رأيك فى الطراز الحديث من الرسم ؟ إن ذلك يبدو لى غريبًا وغير سار ، الموسيقى والحركة مدعاةٌ للبهجة ولكن هذا الالتفاف القاسى للأعضاء لإظهار العضلات يسىء إلى ذوقى !

قال الشاب ليوناردو متفكرًا :

– إنها مهارةٌ عجيبة !

رد فيلييبنو وهو يهز رأسه المجعدة :

– ولكن هذا بشكل عام لا يناسب رسم القديسين اللائق وكذلك مريم المباركة !

قال غرلاندايو :

– إننى لا أزعج نفسى بهذا ؛ إن الحياة أقصر من أن نخدم بها أعمال الناس إننى أُولى اهتمامى وعنايتى لطريقتى الخاصة .

وهنا أتى مايكل أنجلو بنفسه ليستمع إلى النقد وبدا الوجه الفضولى الخشن للفنان الكبير ذا طبيعةٍ طيبة فى صحبته ولكن يديه المعقودتين لوَّحتا بالتحية وقال موجهًا حديثه إلى بيروجينو :

– لقد كنتَ مشغولا كعادتك فى البحث عن أخطاء فى عملى، تعال يا صديقى بيروجينو وأخبرنى ماذا وجدت فيه لتتأفف ؟

قال بيروجينو وعيناه تومضان بالغضب :

– لا تعجبنى أساليبك وسأخبرك بكل صراحةٍ كأنك تجر فن الرسم من الأشياء السامية العالية إلى الذوق الأرضى ، إن ذلك يسلب الفن كرامته وطمأنينته ويدمر التقاليد العريقة التى تعلمناها منذ أيام جيوتو .

اكفهر وجه مايكل أنجلو غضبًا واحتقارًا وهو يستمع لكل هذا وقال :

– أنت فنان ولكنك أبله وغبي وسوف ترى قريبًا أن أيام القديسين والعذراء قد مضت وسيبطل رسمهم بهذه الطريقة كطفل ينسخ كتابه !

ثم استدار وخرج قبل أن يجيبه أحد !

كان بيروجينو غاضبًا ولم يستمع وأراد أن يذهب قبل مايكل أنجلو للقنصل الكبير Great Council ليعاقبه على كلامه القاسي ، ورفض القنصل أن يفعل فغادر بيروجينو فلورنسا إلى بيروجيا غاضبًا موجوع القلب .

بدا ذلك له صعبًا بعد كل هذا الكفاح والنجاح حيث إنه قد كبر وبدأ الناس يملون من عمله الذى طالما أُعجبوا به وعظَّموه ، و لكن إذا ما خاب أمله فى العالم الخارجى فإن لديه دومًا بيته ليتجه إليه ولديه زوجته الجميلة تشاير Chiare، لقد تزوجها فى بيروجيا وجلبت له كل السرور، ولقد كان فخورًا بجمالها واشترى لها أغلى الملابس والجواهر الثمينة وزينها بيديه بها ، وكانت عيناها البنيتان فى عمق بركة الماء الهادئة ، ووجهها الجميل وروحها الرائعة التى أشرقت هناك فمثلت له أكمل صورة فى العالم .

قال لها بيروجينو :

– سأرسمك يومًا ما ولكن لأجل جمالك النادر جدا فحسب ، سأرسمك لا كأى جمال أرضى ولكنك ستكونين الملاك فى قصة طوبياس Tobias التى تعرفينها .

ورسمها كما قال، وفى معرضنا الدولى ماتزال لدينا هذه الصورة وربما نراها هناك كالملاك الجميل الذى يقود الصغير طوبياس من يديه .

ولقد رسم بيروجينو فى سنوات عمره الأخيرة بذات الجد الذى رسم به دومًا .

ولكن الأيام الآمنة لبيروجيا مضت وحل محلها الحرب والضجيج وعصف بالريف داء الطاعون ومات الناس بالآلاف .

فحملوا بيروجينو إلى المستشفى فى فارتيجينانو Fartignano بالقرب من بيروجيا حين داهمه الطاعون Plague .

ومات هناك ولم يكن وقت للتفكير فى جنازةٍ عظيمة فلقد دُفن النـاس بـأســرع ما يمكن .

ووُرى بيروجينو الثرى فى حقل مفتوح تحت شجرة سنديان ، ومؤخراً رغب أولاده فى دفنه فى أرضٍ مقدسة، ويقول البعض أن ذلك تم بالفعل ولكن لاشىء مؤكد .

ربما لو تسنى له الاختيار لسرَّه أن يرقد فى مثواه تحت الأشجار التى أحب أن يرسمها دوماً .

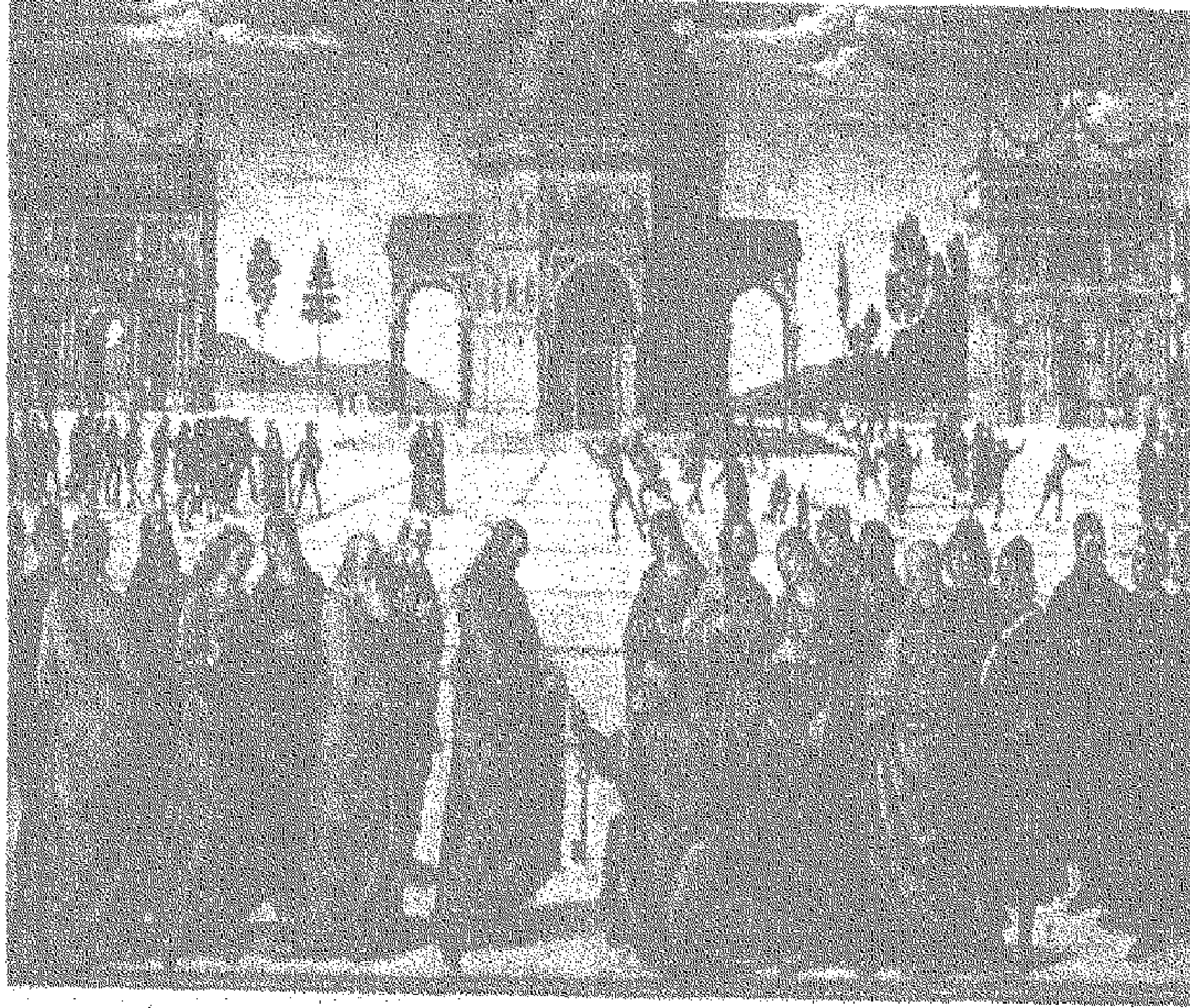
فى هذه الأرض الواسعة جميلة المنظر مذ حدق الولد الصغير عبر سهل أمبريان وغاصت أُعجوبتها فى روحه !



بورترية ذاتي للفنان بيروجينو / رسم من الجص ١٤٩٧ – ١٥٠٠

Self-portrait, 1497-1500

Deutsch: Fresken der Sala d'Udienza im Collegio del Cambio in Perugia,Szene: Selbstportr?t



لوحة تسليم المفاتيح / عمل من الجص / كنيسة سستين روما ١٤٨١

للفنان بيروجينو

Christ Handing the Keys to St. Peter by Pietro Perugino (1481-82) Fresco، 335 x 550 cm Cappella Sistina، Vatican

ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci

١٤٥٢ - ١٥١٩

" الفصل الأول "

على المنحدرات المشمسة لمونت ألبانو Monte Albano بين فلورنسا وبيزا Pisa ترقد مدينة فينشى Vinci الصغيرة عالياً بين الصخور التى توجت جرف التل .

لقد كانت مدينة صغيرة ولقد تجمعت منازل قليلة معًا حول القلعة القديمة فى المنتصف وبدت من بعيد كعش طائرٍ متعلق بالصخور المنحدرة العارية .

هنا وفى عام ١٤٥٢ ولد ليوناردو Leonardo ابن السيد بييرو دافنشى Piero da Vinci فى العصر الذى كان الناس فيه يتنبأون بالنجوم .

فحينما كان يولد طفل كانوا يتطلعون بشوقٍ لأعلى ويقررون إذا ما أشرق نجم محظوظ أو غير محظوظ عند ميلاد الطفل .

وبهذه الطريقة يخبرون أىَّ حظٍ ينتظر المولود الصغير، ولابد أنه أشرق نجم جديد غريب فى تلك الليلة .. ليلة ميلاد ليوناردو .. أكثر إشراقًا ولا يشبه بقية النجوم فى ضوئه الخاطف وقوته وجماله !

كان ليوناردو دائمًا طفلا غريبًا ؛ حتى فى جماله لم يكن كالأطفال الآخرين ؛ لقد كان له شعرٌ أروع يرفرف ويسقط متموجًا كماء فى نافورةٍ كالحرير المجدول وفى لون الذهب .

كانت عيناه زرقاوان صافيتان لهما ضوء غامض لا كضوء الشمس الدافئ، ولكن كالزرقة التى تلمع على جبل الجليد إلى حدٍ ما .

كانت عيناه مرحتين حينما كان يضحك ودائماً ما كانت فيهما النظرة الباردة الغريبة ،وثمة فتنة فى ابتسامته التى لا يقاومها أحد وقد كان محبباً إلى الجميع .

حتى أن الناس قد هزُّوا رؤوسهم وهم ينظرون إليه متهامسين بالعرَّافة التى أعارت معزتها لإرضاع ليوناردو حين كان صغيراً وهى المرأة التى كانت تتعامل بالسحر الأسود والتى عرفت أنه ربما يكون الطفل البديل !

كانت الجدة مونا لينا Mona Lena هى التى ربَّت ليوناردو وأفسدته كثيراً .

لقد كان والده محاميًا وقضى معظم وقته فى فلورنسا، وحين عاد إلى القلعة القديمة فى فينيس بدأ يُعلم ليوناردو وحاول أن يكتشف ما الذى يناسب الصبى .

ولكن ليوناردو كره هذه الدروس ولم يشأ أن يتعلمها وعندما بلغ السابعة أُرسل إلى المدرسة ، و لكن ذلك لم يُحسِّن الوضع !

لم يستمل لعب الأطفال الخشن ليوناردو، ولطالما شحب وجهه بالألم ولا يشاركهم لهوهم حين يراهم يجرُّون أجنحة الفراشات أو يعذبون حيوانًا يقع فى أيديهم.

شق عليه تعلم القواعد اللاتينية أيضًا بينما لم يجد أحداً يعلمه الأشياء التى طالما تاق إليها !

ولقد حدث مراراً أن انسل هاربًا إلى التلال سعيداً كعنزةٍ بريةٍ بدلا من ذهابه إلى المدرسة ، حيث الهواء السماوى المنعش بدلا من هواء حجرة الدراسة الفاسد .

هنا حيث لا أولاد قساة ولا سمجين .. وحيث الحيوانات البرية التى أحبها وهنا استطاع أن يتعلم الأشياء الحقيقية التى كان قلبه يتوق إلى تعلمها، لا الكلمات الصرفة التى لا تعنى شيئًا وتقود إلى لا مكان !

مكث يجلس ساعاتٍ ساكنًا تماماً ، عقباه فى الهواء وذقنه مستندٌ إلى يديه كما لو أنه يرقب عنكبوتًا ينسج شبكته ، متوقف الأنفاس بشغفٍ ليرى كيف تدخل الخيوط الرقيقة وكيف تخرج .

عشق مشاهدة الفراشات الملونة المرحة والنحل الطنَّان والسحالى الخضراء ذات الألسنة الخشنة وفوق كل ذلك أحب الطيور .. آهٍ .. لو أن لديه جناحين فحسب

لحلق كما عصافير الجنة واجتاح وأبحر واندفع ثانيةً ..، ما سر القوة فى أجنحتهم ؟

ربما تعلم هذه القوة بالمراقبة !

أحيانًا ما بدا أن قلبه على وشك الانفجار من فرط شوقه لتعلم هذا السر .

هذا هو السبب الخفى للأشياء التى رغب فى أن يتعلمها، وكما أحب الأزهار فإن عليه أن ينزع بتلاتها واحدة فواحدة ليرى كيف ترتبط ببعضها البعض ويتعجب من الطلع ذى الغبار ويلمس أعضاء التذكير ذات الغطاء العسلى " المحبب " .

وعندما تبدأ الشمس فى الغرق يستدير إلى البيت حزينًا جائعًا جدا بملابس ممزقةٍ وأقدامٍ متعبةٍ ولكن مختزنًا شروق الشمس فى قلبه .

كانت جدته تهز يديها عندما يبدو لها بعد يومٍ من أيام تسكعه وتقول :

– أعرف أنك سوف تجلد بسبب لعبك ! وسوف أعاقبك على تمزيق ملابسك !

وكان ليوناردو يجيبها مبتسمًا لها بابتسامته العجيبة الهادئة وبثقته فى حبها له قائلا :

– آهٍ إنك لن تجلدينى !

وكانت تقول :

– حسنًا إننى أحب أن أراك سعيداً ولن أعاقبك، ولكن إذا تنامى ذلك إلى مسمع والدك فلن يكون لطيفًا معك مثلى !

وفى المرة التالية جاءت الشكوى إلى والده من المدرسة، وحدث أنه كان بالبيت وهنا هبَّت العاصفة وقال السيد بييرو عابسًا حين تمادى غضبه لتواكل ابنه :

– فى المرة القادمة سأجلدك ، و سنرى إذا ما كان السجن الصغير سيصنع منك ولداً أفضل !

وأخذ الولد من كتفيه وقاده إلى دولاب صغير مظلم تحت السلم وأغلقه عليه لثلاثة أيام .

لم يكن هناك طَرق ولا ضرب على الباب المغلق ، فجلس ليوناردو هادئًا فى الظلمة متفكرًا متسائلا .. لماذا تبدو العدالة قليلة فى العالم ؟ وعما قليل عبر هذا التساؤل بعيدًا ، وكعادته حين يكون وحيدًا بدأ يحلم أحلامه حين يتعلم أسرار عصافير الجنة وتكون له أجنحة كأجنحتها !

ولكن إذا ما كانت هناك شكاوٍ مما يكرهه ليوناردو فى الأولاد والقواعد اللاتينية فلم تك ثمة شكوى بشأن الدروس التى أحب أن يتعلمها ، و بدأ بعض الأساتذة حقًّا يخشون أسئلة الولد التواقة والتى كانت أحيانًا أكبر من أن يجيبوا عليها .

وما إن بدأ فى تعلم الحساب حتى أحرز تقدمًا وأراد أن يحل العديد من المسائل التى أدهشت الأساتذة .

لقد بدا عقله تواقًا دائمًا لطلب النور ولم يكتف أبدًا ولم يشبع منه .

" الفصل الثانى "

قضى ليوناردو أسعد لحظاته فى العراء على التلال وأحب كل الزواحف والدواب والطيور مهما كانت قبيحة ، حتى المزارعين الفضوليين الذين ربما كانوا يخيفون أىَّ طفل آخر كانوا جذابين وشيقين بالنسبة له ، و هناك أنصت للطيور المغردة وأحنى رأسه ليلتقط خرير جداول الماء في الجبل ؛ إن حب الموسيقى بدأ يستولى على قلبه .

ولم يهدأ له بال حتى نجح فى الحصول على آلة العود وتعلم كيف يعزف عليها .

وحين تعلم النوتة الموسيقية والقواعد الموسيقية راح يعزف نغمات لم يسمع بها أحد من قبل وغنى أغانى حلوة عذبة تدفقت من النوتة الذهبية صافيةً ونقية كأغنية قبَّرة ذات صباحٍ ربيعى مبكر .

كان البعض يقول إنه "الطفل البديل " وذلك حينما يرون ليوناردو يرفع بين يديه سحلية مسحوقة بلطف أو يلعب بثعبان ملطخ أو عنكبوت كبير مُشعر .

والبعض الآخر قال " ربما يكون بديلا " لكنه حاسر الرأس وله صوت ملاك ، إن الجميع يتوقف لينصت عندما يسمعونه يغنى عبر شوارع المدينة الصغيرة .

لقد كان لغزًا محيرًا للجميع ومع ذلك أسعدهم جميعًا .

ومضت الأيام وحين بلغ الثالثة عشرة أخذه والده بعيداً إلى فلورنسا فربما يتدرب على عمل خاص، ولكن أىُّ عمل؟ كان هذا هو المحك.

إن الولد يتقن أشياء عدة وكان من الصعب أن يثبت على واحدٍ منها .

إبان ذلك كـان يعـيش فـى فلورنسـا رجل مـسن عـارف بعلم النـجـوم ولقـد قـام بحسابات رائعة بشأنها .

لقد كان فلكيًّا Astronomer شـهيرًا لكنه لم يُعر الشـهرة أدنى اهتـمـام، بل عـاش حياةً بسيطة هادئة بمفرده ولم يختلط بالعالم المرح من حوله .

زواره قليلون حيث عُرف عنه أنه لا يستقبل أحدًا .

لذا فقد كانت مفاجأة كبرى للرجل الشيخ توسكانيللى Toscanelli حين طُرق بابه طرقًا لطيفًا ذات ليلةٍ ودخل الولد بهدوء ووقف أمامه .

نظر الرجل الشـيخ وأول مـا خطر ببـاله أن يسـأل الطفل كـيف جـرؤ دونما إذن بالدخول، ثم طلب إليه أن ينصرف ولكنه عندما نظر إلى وجهه الجميل فُتن بالابتسامة الفضـولية وببريق عينيه الزرقـاوين، وبدلا من ذلك وضع يده على شعر الولد الذهبى وقال :

– عم تبحث يا بنى ؟

قال ليوناردو :

– سأتعلم كل ما تستطيع أن تعلمنى إياه .

فابتسم الشيخ وقال :

– انظر إلى ثقة الشباب اللامحدودة !

وحين تحدثا معًا وسأل الولد أسئلته المتلهفة ، استيقظ إعجاب عظيم فى عقل العالم الفلكى وأشرقت عيناه شغفًا .

هذا الولد يملك من عمق الفهم ما لم يجده العالم الفلكى بين أصدقائه المتعلمين ، ويومًا بعد يوم عرج العالم والولد على مسائل عدة معًا واعتاد توسكانيللى Toscanelli

أن يأخذه إلى برجه الوحيد فوق فلورنسا Florence حين يجن الليل ويعلمه علم النجوم ليفهم أشياء عدة .

قال بييرو Piero والد الطفل :

– كل هذا جيد ولكن الولد يجب أن يتعلم كيف يكسب عيشه بنفسه ، و أعتقد أنه يمكننا أن نجعل منه رساماً Painter .

فما كان منه إلا أن جمع رسوم ليوناردو المهملة والمشتتة ذات يومٍ وأخذها إلى مرسم Studio الرسام فيروتشيو Verocchio الذى يعيش بالقرب من بونت فيتشيو Ponte Vecchio وسأله وهو يبسط أمامه رسوم ليوناردو :

– ألا تعتقد أنه يمكنك أن تجعل منه شيئًا ؟

ففحصها الرسام بعينين سريعتين واهتمام عميق وقال :

– أرسله إليَّ فى الحال... إنها موهبة رائعة !

فدخل ليوناردو المرسم كتلميذ وتعلم كل ما استطاع أن يتعلمه بذات السرعة التي يتعلم بها أىَّ شىء يحبه .

كل من رأى أعمال ليوناردو أعلن أنه سيكون أُعجوبة عصره، ولكن فيروتشيو راح يهز رأسه قائلا :

– إنه رائع للغاية ؛ إنه يطمح للكمال ؛ إنه يريد أن يعرف كل شىء ويعمل كل شىء والحياة أقصر من أن تتسع لكل هذا ، إنه لا ينهى شيئًا لأنه دومًا ما يبدأ فى شىء آخر !

كانت كلمات فيروتشيو حقًّا ؛ لقد ندر أن يعمل الولد طويلا فى شىء واحد فلم تكن يداه كسولتين وغالبًا ما كان يصنع طواحين صغيرة للهواء Windmills ودمى عجيبة تعمل بالبكرات والخيوط أو نماذج صغيرة ونفيسة من الصلصال للجياد والحيوانات الأخرى التى أحبها بدلا من أن يرسم .

ولكنه لم ينس شوقه الذى ملأ قلبه طفلا ألا وهو أن يتعلم سر الطيران .

لقد جلس لأيامٍ لا يفكر فى شىء سوى التحليق بالأجنحة ثم ينهض ليبدأ فى صنع آلة غريبة كان يعتقد أنها ستحل هذا السر الذى يبحث عنه .

دمدم فيروتشيو غاضبًا :

– إنك تضيع الوقت ، اسمع، إنك لن تصبح عاملا أفضل إن لم تجلس وتساعدنى فى إنهاء هذه الصورة لـ باتبيزم Baptism أفضل راهب فى فالامبروسا Vallambrosa، أرنى كيف سترسم الشكل المنحنى للملاك !

وقف الولد أمام الصورة بلا حراك كأنما ينظر إلى شىء بعيد ثم استل الفرشاة بيسراه وبدأ فى الرسم بسرعةٍ !

لم يتوقف ليفكر، لكنه عمل كما لو أن الملاك هناك بالفعل وأزال بالفرشاة الحجاب الذى كان يحجبه عن الضوء !

وحين تم العمل جاء الأستاذ وراح يتأمل ما فعله ليوناردو ، فوخزته الغيرة فى قلبه اللحظة !

وعامًا بعد عام راح ليوناردو يعمل ويكد ليصل إلى أنموذجه المثالى .

مرت أيام وليالٍ متعبة ومرهقة وهو يخطو للأمام بالعمل المحض .

وهكذا استطاع الولد أن يرتفع أكثر؛ فلقد وعى كل المعرفة التى عرفها أستاذه بعقلٍ رائع وواعٍ ولكن مشاعر الحسد مرت سريعًا فوضع فيروتشيو يده على كتف ليوناردو .

" الفصل الثالث "

قال ليوناردو بهدوء :

– لقد وجدت أستاذى ولن أرسم أكثر من ذلك .

بدا ليوناردو وكأنه يصغى لكنه مستغرق يفكر فى شىء آخر ونادراً ما يلحظ إن كان الناس يمدحونه أو يلومونه .

لقد امتزجت أفكاره معاً لشىء رآه هذا الصباح فأربكه ؛ ففى طريقه إلى المرسم مر بمتجر صغير فى شارع ضيق حيث رأى بائعاً للطيور مشغولا بتعليق أقفاصه وتثبيتها على الحائط خارج المتجر .

لقد تملكه التفكير فى هذه الكائنات الصغيرة المسكينة وهى حبيسة تضرب القضبان بأجنحتها القاسية وقلوبها تتكسر بالحنين إلى حياتها البرية الحرة ولم يستطع أن يتحمل أكثر، فالتقط قبعته وأسرع متناسياً كل شىء عن ملاكه الراكع ومديح سيده ،و وصل إلى المتجر الصغير واستدعى الرجل من الداخل وصرخ فيه مشيراً إلى الأقفاص الخشبية المعلقة على الحائط قائلا:

– كم تريد ثمناً لهذه الطيور ؟

فأجاب الرجل :

– إنها ستموت قبل أن أستطيع بيعها ؛ إنها لا تساوى قطعة فضية واحدة !

وفى لحظة أخرج ليوناردو النقود ودفعها له واستدار إلى الأقفاص يفتحها واحداً تلو الآخر ليحرر الطيور الحبيسة ،حتى أنه أخرج الطيور الخائفة منها بلطف وأطلقها سعيداً فوق رأسه نحو السماء الزرقاء .

نظر الرجل إلى الأقفاص الخالية مندهشًا ممتقع اللون متسائلا عما إذا كان الشاب الوسيم مجنونًا !

لكن ليوناردو لم يعره بالا، بل وقف يحدق فى الطيور حتى اختفت تمامًا من أمامه، ثم تنهد قائلا :

– أشياء سعيدة ، هل سوف تعلمنى سر أجنحتك ؟

سر السيد بييرو سروراً عظيمًا حين تنامى إلى مسمعه أنباء نجاح ابنه فى مرسم فيروتشيو ، و بدأ يأمل فى أن يصنع الولد اسمه .

وحدث أن قدم بييرو فى زيارةٍ إلى قلعته فى فينشي فأتاه مزارع يقيم إلى جواره ذات صباح طالبًا منه أن يسدى إليه معروفًا كبيرًا فلقد اشترى ترسًا خشبيًّا خشنًا وقلق بشأن التصميم الذى سوف يُرسم عليه فى فلورنسا ولقد طلب إليه أن يرى إذا ماكان التصميم قد تم أم لا ، و كان المزارع خادمًا وفيًّا ويمد القلعة بالسمك ولحوم الصيد ، لذا فإن السيد بييرو سُر أيما سرور لأن يجيبه إلى طلبه .

فقال بييرو لنفسه :

– إن ليوناردو سيبذل ما فى وسعه ويعمل فيه بيده فلقد حان الوقت لأن يفيدنى .

فأخذ الترس إلى ولده فى فلورنسا .

كان الترس خشنًا وسيئ المنظر فأمسك به ليوناردو ليقومه على النار وبدت يداه رقيقتين جميلتين قويتين كالصلب واستطاع أن يثنى قضبان الحديد بلا أى مجهود ثم أرسل الترس إلى الخرَّاط ليهذبه ويجعله مستديراً وحين أصبح جاهزًا جلس ليتفكر ماذا يرسم عليه ولأنه أحب رسم المخلوقات الغريبة صاح مبتهجًا بالفكرة التى خطرت له :

– سأجعله مخيفًا كرأس ميدوسا Medusa !

ثم خرج وجمع كل المخلوقات الغريبة التى وجدها كالسحالى والخنافس وسمندل الماء وصقر الناموس والجراد والخفافيش وسراج الليل وأخذها إلى غرفته الخاصة حيث لا يسمح لأحدٍ بالدخول وبدأ يرسم منها مخلوقًا عجيبًا، جزء منه سحلية وجزء آخر خفاش وأضاف من كل حيوان شيئًا ما .

وحين أصبح جاهزًا علّقه ليوناردو فى ضوء مناسب إلى جانب ستارة قاتمة فبدأ التضاد واضحًا وبدا أن أعضاءه الملتفة المتموجة مليئةً بالحياة .

سمع ليوناردو طرقًا على الباب ثم أتاه صوت والده متسائلا عما إذا كان العمل قد انتهى فى الترس ، فصاح ليوناردو :

– ادخل !

ودخل السيد بييرو وألقى نظرة على المخلوق المعلق وصرخ واستدار هاربًا !

ولكن ليوناردو أمسك به من معطفه ضاحكًا وطلب منه أن يقترب أكثر وقال :

– إذا كنت قد أخفتك بالفعل فإننى قد نجحت فيما أريده !

ما كاد والده يصدق أن ذلك مجرد رسم، وتباهى بهذا العمل وعزم ألا يفرط فيه وأعطى المزارع ترسًا آخر بدلا منه .

ثم عمل ليوناردو فى رسم الستائر المنسوجة بالحرير والذهب والتى يقدمها الفلورنسيون كهدايا لملك البرتغال **King of Portugal** ولقد بدأ فى رسم صورة كبيرة لراعى العبادة **Adoration of Shepherds** والتى لم تنته أبدًا !

اشتد قلق الرسام الشاب بعد فترةٍ وشعر أن حياة المرسم ضيقة معوقة للحركة ، فتاقت نفسه إلى أن يغادر فلورنسا ويعمل فى مكان جديد .

لم يكن ليوناردو هو المفضل فى بلاط لورينزو **Lorenzo the Magnificent** مثل فيليبينو ليبى **Lippi Filippino** و بوتشيللى **Boticelli** .

لقد أحبهم لورينزو لأنهم تملقوه وفعل ما أمروا به ، بينما اتخذ ليوناردو طريقه بنفسه فى كل نواحى حياته ولم يخبر أحداً بما ينوى فعله .

وحدث أن احتاج لورينزو إلى أن يرسل بهدية إلى لودوفتشو سفورزا دوق ميلان فاختار آلةً موسيقيةً قد انتهى من صنعها ليوناردو.. وهى عودٌ فضىٌّ صُنع على شكل رأس جواد فجاء أعجب وأجمل شىء رآه لورينزو الذى افتُتن به فطلب إلى ليوناردو أن يذهب به إلى ميلان **Milan** قائلا :

– ستأخذه بنفسك كرسولٍ لى ؛ فأنا أشك إن كان باستطاعة أحد أن يعزف عليه مثلما تفعل أنت !

فانطلق به ليوناردو وأسعده أن يتحرر من الحياة الضيقة فى المرسم الفلورنسى .

" الفصل الرابع "

قبل أن ينطلق ليوناردو إلى ميلان كتب إلى الدوق Duke موضحًا له بكل بساطة كل الأشياء التى يستطيع فعلها ومخبراً إياه بما يمكنه الإفادة فيه أيام الحرب وأيام السلم .

بدا أن ليس ثمة شىء لا يستطيع ليوناردو فعله .

إنه يستطيع أن يصنع الأبراج ونسف القلاع وحفر القنوات ولقد اخترع مدفعًا جديداً ،ويستطيع بناء السفن وحفر الأنفاق أيام السلم وبناء المنازل وصنع التماثيل الجميلة والرسم .

كُتب الخطاب بطريقة عجيبة من اليمين إلى اليسار كاللغة العربية أو العبرية وهكذا كان ليوناردو يكتب دائمًا مستخدمًا يده اليسرى؛ لذا فإن هذا الخطاب يُقرأ عند الإمساك بمرآةٍ لرؤية الكتابة فحسب .

اندهشَ الدوق حين وصله الخطاب وقال :

- إما أن هذه الكلمات لعبقرىٍ أو مجنون !

وحين تحدث إلى ليوناردو أول مرةٍ عرف فى التو أى الرجلين هو ليوناردو .

فتن كل أهل البلاط بوجه ليوناردو الجميل وبأساليبه الرشيقة وبعزفه المنفرد حين غنى على عوده أغانيه الخاصة والتى جلبت له الشهرة ،و لكن الدوق أدرك بسرعة أن ليوناردو ليس مغنيًا أو شاعراً فحسب !

لذا فسرعان ما دُبر الأمر أن يُمنح ليوناردو منزلا فى ميلان Milan وأن يتسلم راتبًا سنويًا من الدوق Duke .

لم يعبأ ليوناردو بالمسائل المادية؛ فأحيانًا ما كان راتبه يُدفع له وأحيانًا ما يقبع فى طى النسيان وأحيانًا ما ينال كل ما يريد بطريقة أو بأخرى وأحب دائمًا أن يكون كل شىء جميلاً وأنيقًا .

فملابسه دائمًا ما كانت ثمينة ومكلفة ولم يكن لها ألوان زاهية أو لامعة ، و ليس ثمة ريش أو دبابيس أو مجوهرات فى غطاء الرأس والشىء الملون الوحيد هو شعره الذهبى وفوق ذلك كله يلقى ليوناردو معطفه ذا القماش الأحمر الداكن على كتفيه والذى يرتديه كموضة أهل فلورنسا Florentines كما أن لديه بعض الجياد فى حظيرة جياده حيث أحب الجياد أكثر من أى كائنات آدمية .

أسند الدوق العديد من الخطط والمشاريع التى ائتمنه عليها لاسيما عملين عظيمين دون بقية الأعمال؛ ألا وهما لوحة العشاء الأخير Last Supper على جدران قاعة الدرس فى سانتا ماريا ديل جريز Santa Maria delle Grazie، والآخر هو صنع نموذج لتمثال فارس يمتطى جوادًا من البرونز وفى الخلفية صورة للدوق .

ظل ليوناردو يعمل بجد فى لوحة العشاء الأخير من الفريسكو وأحيانًا ما ينصرف عن العمل لأسابيع أو شهور فلا يلمسه !

ولكنه عادةً ما يعود إلى عمله ثانيةً ويظل يعمل لأيامٍ متواصلة من الصباح حتى المساء ولا يكل أو يفكر فى شىء آخر حتى يضع فرشاته فجأةً ويقف صامتًا لفترةٍ طويلة، ويبدو كما لو أنه يضيع الوقت الثمين فى لاشىء ولكنه يعمل جادًا بعقله حين تتوقف يداه عن العمل .

وعمل فى تمثال الحصان البرونزى ، و توقف فجأةً ومشى بسرعة عبر الشوارع حتى أتى إلى قاعة الدرس وهناك أمسك بفرشاته ورسم خطًا أو خطين وسرعان ما عاد إلى تمثاله .

إلى جانب كل ذلك شغلت ليوناردو خطط مشاريع أخرى لتسلية الدوق .

ولم تنجح أيٌّ وليمة من ولائم البلاط Court fete إلا بمساعدة ليوناردو ولم يصعب عليه تدبير شيء ، و دائمًا ما أتى بالجديد والغريب والرائع .

واتفق ذات مرة أن زار ملك فرنسا King of France مدينة ميلان Milan فأعد له ليوناردو تمثالا عجيبًا لأسدٍ يتقدم عدة خطوات ليرحب بالملك ويفتح فكيه فتفوح منه رائحة عطرة للبنفسج وهو شعار فرنسا وذلك تشريفًا لمليكها .

ولكن بالإضافة إلى عمله فى أشياء أخرى لم ينس ليوناردو قط توقه إلى تعلم الفن السرى للطيران كان كلما واتته أتته فكرة جديدة ينحى كل شيء جانبًا حتى ينتهى من آلته الجديدة والتى أحيانًا ما كانت كجناحى طائر .

ظلت كل اخفاقةٍ جديدة تجعله أكثر تصميمًا على أن يحاول ثانيةً وراح يقول لتلامذته الذين يتعجبونً أحيانًا مما تصنع يداه :

– أعلم أننا يومًا ما سيكون لدينا أجنحة ولكن السؤال هو ... كيف نصنعها ، أذكر حين كنت وليدًا راقدًا فى مهدى فتوهمت أن طائرًا طار إلىَّ وفتح فمى ومسح شفتى بريشه ،وهكذا على ما يبدو قُدر لى أن أتحدث عن الأجنحة Wings طوال حياتى ... !

" الفصل الخامس "

شيئًا فشيئًا راحت لوحة العشاء الأخير Last Supper تكتمل ببطء بين يدى ليوناردو Leonardo وقرب اكتمال العمل فى التمثال أيضًا .

ولكن الأيام العصيبة جاءت على ميلان Milan !

اضطُّر الدوق Duke للهرب قبل أن يدهمه الجنود الفرنسيون الذين اقتحموا المدينة وتمركزوا فيها ، قبل أن يمنعهم أحد ، و بدأوا يطلقون نيران مدافعهم على التمثال العظيم كهدفٍ لمرمى أسلحتهم ،وفى ساعاتٍ قليلة دُمر تمامًا تمثال استمر العمل فيه لستة عشر عامًا!

والأكثر إيلامًا أن أعمال الفريسكو والصورة الأعظم – والتى ربما كانت أجمل ما رُسم – قد أتلفتها رطوبة الحائط وبدأت ألوانها تشتد قتامتها .

حتى أن الرهبان المهملين اخترقوا الجدران وصنعوا مدخلا فى منتصف الصورة تمامًا ،و مؤخرًا حين دخل جنود نابليون إلى ميلان استخدموا القاعة كإسطبل لخيولهم وتسلوا بإلقاء الأحجار على ما تبقى من رسوم الحائط !

ولكن رغم ذلك فلقد تبقى القليل منها الذى يمكننا رؤيته الآن ،و ما زال هناك ما يجعلنا نقف فى دهشةٍ ووقار أمام عبقرية هذا الأستاذ العظيم !

وعلى مقربةٍ من ميلان عاش صديق من أصدقاء ليوناردو وقد أحب ليوناردو زيارته، إنه جيرولامو ملزى Girolamo Melzi وله ولد يُدعى فرانسيسكو Francesc وكان فرانسيسكو هذا يتيم الأم ومعجبًا أيما إعجاب بالرسام العظيم .

ولقد اعتاد ليوناردو والطفل أن يتسكعا معًا للبحث عن حيوانات غريبة وأزهار نادرة، ولطالما شاهدا العناكب تنسج خيوطها وفتّقا الأزهار إلى قطع صغيرة لمعرفة أسرارها ،و لقد أنصت الولد بعينين مذهولتين إلى كل الحكايا التى قصها عليه الرسام العظيم .

وذات ليلة دثر ليوناردو فرانسيسكو الصغير بمعطفه الدافئ بالقرب منه وحمله ليرى النجوم .. إنها ذات النجوم التى علمه توسكانيللى Toscanelli ذاك الشيخ فى فلورنسا أن يحبها فى ذلك الزمن البعيد !

وحين جاء يوم الوداع تعلق الصبى برقبة الأستاذ Master ولم يدعه يذهب ... !

وصرخ قائلا :

– خذنى معك .. لا تتركنى وحيداً .

قال ليوناردو بلطف :

– لا يمكننى أن آخذك الآن يا صغيرى إنك لا تزال صغيراً ولكن فيما بعد سوف تأتى إلىَّ وتكون تلميذى .. أعدك بهذا .

كانت حياة تسكع متعبة لا تزال فى انتظار ليوناردو بعد رحيله عن وطنه ميلان .

لقد بدا أن قدره أن يبدأ أشياء عدة ثم لا ينهى شيئًا .. ولقد عاش لفترةٍ فى روما ولكنه أنجز القليل من العمل هناك !

لقد عاش لسنوات عدة فى فلورنسا وبدأ يرسم صورة معركة ضخمة .. وهناك رسم لوحته الشهيرة الموناليزا والتى توجد فى باريس الآن .

وتعد الموناليزا أروع صوره وأكملها على الإطلاق على الرغم من أن ليوناردو نفسه قال بأنها ليست كاملةً ولم تنته بعد !

ولقد وقعت الأيام السيئة لـ ليوناردو قبل هذا الأوان ؛ فلقد ذهب كل تلامذته ونسيه كل أصدقائه .

وذات ليلةٍ عاصفةٍ كان جالساً أما المدفأة حزيناً وحيداً عندما فُتح الباب ودخل غلام طويل ووسيم .

صاح الغلام :

– أستاذ !

وانحنى راكعًا وقبَّل يدى الرجل المسن وقال :

– ألا تعرفنى .. إننى فرانسيسكو الصغير ، جئت لتفى بوعدك أن أكون يومًا خادمك وتلميذك .

وضع ليوناردو يديه على رأس الولد الجميل ونظر إلى وجهه وقال :

– لقد كبرتُ ولا يمكننى بعد أن أفى بما وعدتك به ؛ إننى الآن فقير جوَّال .. هل هذا ما تريد أن تشاركنى إياه بالفعل ؟

رد الصبى :

– لا يهمنى شىء سوى القرب منك ، سأذهب معك إلى آخر الدنيا !

لذا فحين تلقى ليوناردو دعوةً من ملك فرنسا الجديد أخذ الصبى معه وبنيا معًا منزلهما فى القلعة الصغيرة كلاكس **Claux** قرب مدينة أمبويز **Amboise** .

أضحى شعر الأستاذ فضيًّا ولحيته بيضاء كالثلج وبدت عيناه الزرقاوان المتحمستان متعبتين منهكتين من الحياة وقد خط الهمُّ تجاعيدَ عميقةً على وجهه الجميل وصاحبته الأفكار الكئيبة وبدا أن كلمة " فاشل " قد كتبت عبر حياته ، فما الذى فعله ؟ لقد بدأ أشياء كثيرة وأنهى القليل ، حتى رسوم الفريسكو **Fresco** أضحت بعيدةً .. وباهتةً ومعتمة وملطخة !!

ولقد دُمر تمثال الحصان العجيب وتبقى من الصور القليل ولكنها لم تصل أبداً إلى مثله الأعلى .

والزحام الذى حلَّق حوله ذات زمان كأعظم الفنانين يتحدث اليوم عن مايكل أنجلو Michelangelo والصغير رافائيل Raphael فحسب !

إن مايكل أنجلو نفسه قال له ذات مرةٍ باحتقار إنه فاشل ولا يستطيع أن ينجز شيئًا !

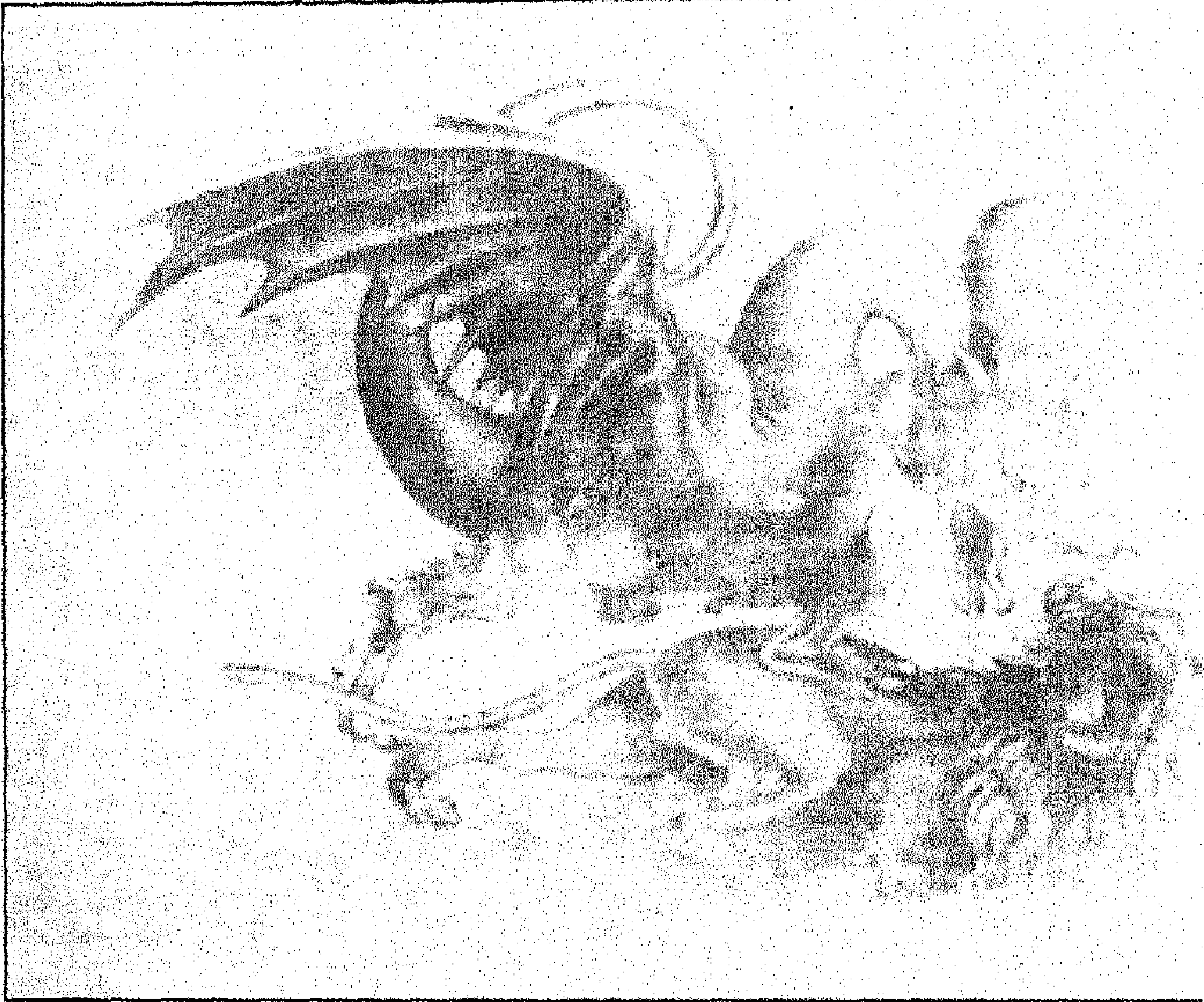
كان ليوناردو سعيداً أن غادر إيطاليا تاركًا كل ذكرياتها خلفه وأمل أن يبدأ العمل ثانيةً فى منزله الفرنسى الهادئ الصغير .

ولكن الموت دنا منه وقبل أن تمضى سنوات قليلة أضحى أضعف من أن يمسك بالفرشاة أو القلم الرصاص !

ثم جاء فصل الربيع حين حانت النهاية ،فتح فرانسيسكو Francesco النافذة وبلطف حمل الأستاذ Master The بيده القويتين فربما آن لـ ليوناردو أن يلقى نظرةً أخيرة على العالم الذى أحبه بإعزاز ، ارتدت الأشجار حلتها الأنيقة من اللون الأخضر الرقيق وانقشعت الغيوم عن السماء الزرقاء وغمرت شمس أبريل الحجرة ، و بينما عيون ليوناردو المتعبة تنظر إلى الخارج صاح :

– انظر .. ! لقد عادت طيور السنونو ، إنها ستعيرنى أجنحتها لعلى أطير بها بعيداً وأستريح !

غردت طيور السنونو وحلَّقت فى دوائر فى هواء الربيع المنعش وهى مشغولة ببناء خططها ولكن فرانسيسكو اعتقد أنه سمع رفيف أجنحةٍ أُخرى بينما تتحرر روح ليوناردو من الجسد المنهك الذى حُمل فى النهاية عاليًا أعلى مما تستطيع أىُ أجنحةٍ أرضيةٍ أن تُحلق ! ! !



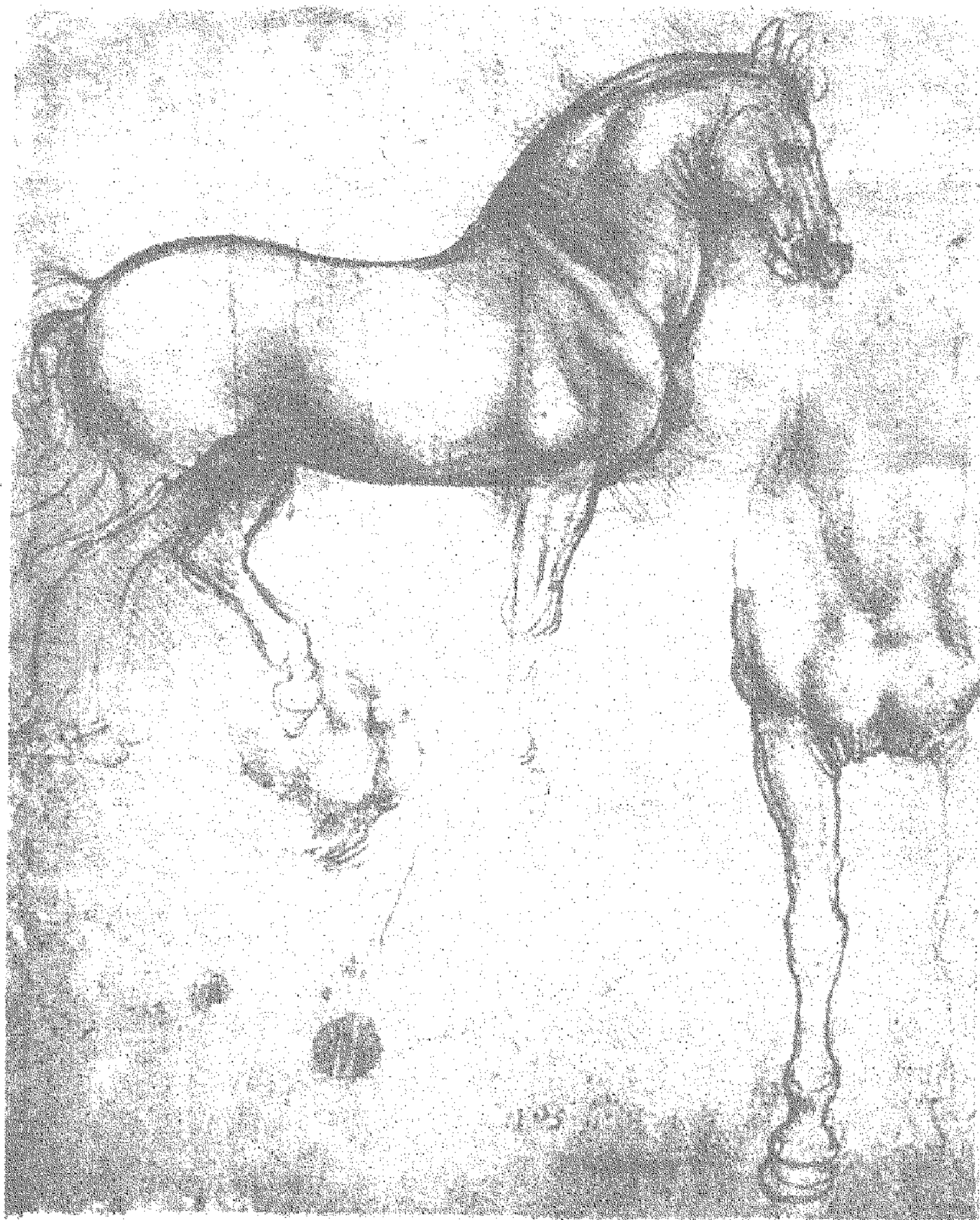
رسم من أعمال ليوناردو دافنشي

Drawing of Leonardo Da vinci



وادى أرنو / رسم مبكر لـ ليوناردو ١٤٧٣

Study of a Tuscan Landscape (c.1473 by Leonardo Da vinci)



رسم دراسى يوضح عضلات الحصان كما صورها ليوناردو / من صحف ليوناردو

Study of horse Leonardo da Vinci



لوحة العشاء الأخير / إحدى روائع ليوناردو

The Last Supper, showing Jesus, at the center, saying to his disciples, "One of you shall betray me"

رافائيل Raphael

١٥٥٦ - ١٤٨٣

" الفصل الأول "

من بين الحكايات الغريبة الرائعة لألف ليلة وليلة العربية هنالك قصة لعصابة من اللصوص استطاعوا فتح باب سرى لمغارة بها كنوز من الذهب والفضة والجواهر الثمينة المُخبأة بأن يهمسوا بكلمات سحرية .

وعلى الرغم من أن زمان هذه الحكايات المبهجة قد ولى ورحل فإنه لا يزال هناك سحر مؤكد فى بعض الأسماء القادرة على فتح الأبواب السرية للأماكن المختفية للجمال والبهجة .

يُعتبر اسم " رافائيل Raphael " بالنسبة لمعظم الناس تمامًا مثل كلمة "افتح يا سمسم" لزعيم عصابة اللصوص فى الحكاية القديمة .. وفى لحظة .. يُفتح باب لكل العالم كل يوم ، و عبر هذا الباب يرون امتداداً لوطنٍ عذبٍ من الجمال .

هناك تقع عيونهم على عيون العذراء السوداء التى تبتسم بودٍ للطفل السماوى الذى يلعب إلى جوارها أو يرتاح بين ذراعيها !

هنالك أيضًا القديس الصغير جون يرافق المسيح الطفل، والأطفال الورديون مستديرو الأعضاء أنصاف آدميين وأنصاف سماويين ويقف فى الخلفية زحام من الأضرحة ،وجوه هادئة حية ويعلو الجميع لون زاهٍ بهى متوهجٌ بشدة .

إننا نعرف القليل عن حياة هذا الفنان العظيم ، فعندما نسمع اسمه فأول ما يتبادر إلى أذهاننا فى الحال صوره المختلفة الشهيرة فى العالم ،إننا نكاد ننسى الرجل ونحن نحدق فى عمله .

وُلد رافائيل Raphael فى قرية أوربينو الصغيرة Urbino فى أمبريا Umbria، لوالدٍ رسام يُدعى جيوفانى سانتى Giovanni Santi ولقد توارث رافائيل عشق الرسم عنه ووالدته جميلة تُدعى ماجيا Magia وهى سيدة كريمة ورافائيل يشبهها فى شخصيتها وجمالها ... !

ويبدو أن الفتى قد حظى بكل هدية طيبة وهبته إياها الطبيعة .

فإن له وجهًا بيضاويًا جميلا وعينين سوداوين رقيقتين تشعان بالجمال السماوى أكثر منه أرضى وله روح نقية وجميلة كوجهه ، علاوة على أنه قادر على أن يجعل الجميع يحبونه ؛ لذا فلابد أن حياته كانت مشرقةً .

ولكن لا أحد يحيا بلا مشاكل !

فعندما بلغ رافائيل الثامنة ، فإن أول غمامة تجتاح سماءه هى وفاة والدته ، وسرعان ما تزوج والده ثانيةً وكانت زوجة أبيه صغيرة جدا ولم تعبأ بالأطفال كثيرًا ولكن رافائيل لم يعترض على الوضع مادام مع والده ، و بعد ثلاث سنوات اجتاحت سماء حياته غمامة أشد حلكةً وحجبت شمس حياته المشرقة حين توفى والده أيضًا وتركه وحيدًا تمامًا .

أحب الفتى والده جدا وكانت سعادته الغامرة أن يأخذه معه فى مرسمه ويتعلم أن يطحن ويمزج الألوان ويرى هذه الصور وهى تكتمل يومًا بعد يوم .

و لكن كل شىء تغير ، لقد ضج المرسم الهادئ Studio بالأصوات الغاضبة وأصبح المنزل الهادئ مسرحًا للشجار الدائم !

فمن له أن يملك النقود ؟ وكيف تُقسم عقارات سانتى Santi ؟

فزوجة الأب والعم فى مشاحنة من الصباح حتى المساء، ولم يُعر أحدهما للطفل رافائيل اهتمامًا وكان ما يعنيهما هو النقود ، و حين بدا أن تدريب الصبى قد أُهمل

تماماً جاءت المساعدة من قبل شقيق والدة رافائيل سيمون دى سيارلا Simon di Ciar-la الذى أتى للعناية بابن شقيقته وفى الحال حمل الطفل من هذه الضوضاء ومن أهل البيت المتنازعين وأخذه إلى بيروجيا Perugia .

قال سيمون لرافائيل وهما يمشيان عبر شوارع بيروجيا :

– إنك ستتلقى أفضل تعليم فى إيطاليا كلها ؛ إن الأستاذ العظيم الذى سنذهب إلى مرسمه له قدره بين جميع فنانى فلورنسا وإن عليك أن تجتهد كى تتعلم كل ما يستطيع أن يعلمك إياه ؛ لذا فقد تصبح رساماً عظيماً مثل والدك !

سأله رافائيل وعيناه تُشعان بالفرح :

– هل سأصبح تلميذاً لبيروجينو العظيم Perugino ؟ لقد سمعت أبى مراراً يتحدث عن صوره المدهشة .

فأجابه خاله :

– سنرى إن كان يستطيع قبولك !

غاص قلب الصبى، فماذا لو لم يقبله الأستاذ كتلميذ .. ؟ هل سيعود إلى بطالته والمكان الذى لم يعد منزلا .. ؟

ولكن سرعان ما هدأت مخاوفه فبيروجينو مثل أىٍّ شخص آخر .. شعر بفتنة هذا الوجه الجميل وأسلوبه اللطيف ، و حين رأى بعض الرسومات التى رسمها الصبى وافق على الفور أن يلتحق رافائيل بمرسمه ويصبح تلميذاً له .

مرت بيروجيا Perugia بأوقات عصيبة قبل هذا الأوان ، لقد كانت الأسرتان العظيمتان أُودى Oddi وباجليونى Baglioni فى حرب معًا ، أيهما ستكون الأقوى وتحكم المدينة وتطرد الأسرة الأخرى .. لذا فإن القتال لم يتوقف فى الداخل أو خارج بوابات المدينة ، وأصبح الريف الآمن مقفراً وخرباً .. !

ولم يعبأ المزارعون بالخروج لحرث حقولهم وتشذيب أشجار الزيتون ، وخشيت الأمهات أن يتركن صغارهن للخروج بسبب الذئاب الجائعة والحيوانات المفترسة الأخرى التى كانت تتجول فى الريف المجدب .

حتى أتى اليوم الذى نجحت فيه العائلة الخارجية أن تزحف بهدوء إلى داخل المدينة، ووقع القتال الأشد شراسة واحتدت المعركة بقسوة حتى أن معظم عائلة أودى قتلت ثم ساد السلام فى بيروجيا وفى أرجاء الريف .

و بمجرد أن التقط الناس أنفاسهم بدأوا يفكرون فى أشياء أخرى بجانب القتال وبدأوا يأملون أن تُنظم مدينتهم وأن تُرمم المبانى التى أُضيرت فى المعارك .

" الفصل الثانى "

سنحت فرصة طيبة من الأمن والسلام لرجال مثل بيروجينو لكى يعملوا أكثر وينجزوا أعمالهم .

ولقد شُغل الأستاذ بيروجينو وتلامذته من الصباح إلى الليل ،و لقد أحب بيروجينو رافائيل أكثر من كل تلامذته، وقد رأى ذات يوم أنه ولد غير عادى ،و كان دائماً ما يقول وهو يرقبه يعمل :

- إنه تلميذى الآن ولكنه سرعان ما سيصبح أستاذى.

لذا فلقد علمه بيروجينو Perugino بكل عناية ممكنة ولم يكل قط من إعطائه النصائح الطيبة، وكان يقول له حينما كان رفائيل Raphael ينظر بعينين تواقتين للألوان والفرشاة فى يد أستاذه :

- تعلم من الجميع كيف ترسم ، ارسم كل ما تراه ، لا يهم ما هو ، ولكن ارسم وارسم ، البقية ستأتى فإذا ما غابت المعرفة فلن ينجح شيء ، احتفظ دومًا بكتاب الرسم Sketch - book فى يديك وارسم فيه بعناية كل ما تقابله عيناك .

لم ينس رافائيل أبداً نصيحة أستاذه الطيبة ولم يُر أبداً بدون كتاب الرسم حتى أن رسومه الآن أضحت شيقة كصوره العظيمة؛ حيث إنها تظهر الفكرة الأولى التى خطرت بباله قبل أن تتهيأ الصورة .

مرت السنون وتعلم رافائيل كل ما استطاع أن يلقنه إياه أستاذه .

بدت لوحات رافائيل فى بادئ الأمر كلوحات أستاذه، حتى أنه كان من الصعوبة أن تدرك أعماله من أعمال أستاذه .

ولكن الأيام الهادئة فى بيروجيا أوشكت على النهاية ؛ فعاد بيروجينو إلى فلورنسا .. وعمل رافائيل لبعض الوقت فى أماكن مختلفة بالقرب من بيروجيا ثم تبع أستاذه إلى مدينة الزهور حيث اشتاق كل فنان أن يذهب .

وعلى الرغم من كونه ما زال شاباً فلقد بدأ العالم بالفعل يلحظ أعماله ، ورحبت فلورنسا سعيدةً بالفنان الجديد ولقد كانت شهرة ليوناردو دافنشى Leonardo da vinci فى أوجها وحين عرض على رافائيل بعض أعماله العظيمة امتلأ دهشةً وإعجاباً فلقد عقدت عبقرية ليوناردو لسانه وقال :

– هذا ما أحلم به فى أحلامى وربما أتعلم سره !

وشيئًا فشيئًا غاصت الأفكار فى قلبه ولم تعد الصور التى يرسمها تشبه صور أستاذه بيروجينو ولكن بدت تستنشق روحًا جديدةً!

وهكذا بدا رافائيل قادراً على أن يجمع لديه أفضل مزية من كل واحدٍ تماماً كالنحلة التى تجوب من زهرةٍ إلى زهرةٍ لتجمع رحيقها فى قرص عسل ذهبى واحد .

عبقرية رافائيل فحسب هى التى صنعت ذلك حيث كانت له لمسته الخاصة والروح التى لم تشبه أى فنان آخر فى صوره .

لقد عاش بعد ذلك لسنوات عدة فى روما Rome حيث تُرى رسوماته من الفريسكو متنوعة ورائعة حتى أن كتباً عديدة كُتبت عنها .

وهناك فى روما التقى بالعذراء مارجريتا Margarita التى أحبها طوال حياته ، إنه وجهها الذى يطل علينا من صورة عذراء سستين Sistine Madonna وربما كانت أشهر عذراء رُسمت ،و تبدو الحجرة الصغيرة فى معرض درسدن كمكان مقدس هناك حيث تقبع هذه الصورة معلقةً .

ومن المؤكد أن شيئًا ساميًا ما فى ذلك الوجه الجميل ،إنها تقف هناك ، ملكة السماء Queen of Heaven والمسيح الطفل The Infant Christ بين ذراعيها بذات

النظرة الغريبة من الجلال والحزن فى عينيها اللتين يجعلانا ندرك أنها حقًّا حريةٌ بأن تكون أم سيدنا .

ولكن الصورة التى أحبها الأطفال أكثر من غيرها هى " عذراء الحسُّون " The Madonna of the Goldfinch وهى صورة للعائلة المقدسة .. المسيح الطفل وأمه والقديس الصغير جون ST John .. المسيح الطفل ذو الرأس الصغير النفيس المموج يقف على ركبة أمه بقدمٍ واحدةٍ صغيرةٍ بيضاء مستنداً إليها .

يداه ممتدتان بالحماية فوق طائر الحسُّون الأصفر Yellow Goldfinch الذى أحضره له القديس جون القوى الذى يكتسى بوبر العنز .

يمتلئ وجه الوليد بالحب الجميل والاهتمام للسجين الصغير الذى يرفرف وتنحنى يده على رأسه لحمايته ويبدو وكأنه يقول للقديس جون :

– لا تؤذِ طائرى إنه ينتمى لى ولأبى .

هاتان فحسب كانتا من الصور التى رسمها رافائيل ... !

رائع أن نفكر كم من العمل قد تم إنجازه خلال حياته القصيرة حيث إنه مات وهو بعد فى السابعة والثلاثين من عمره !

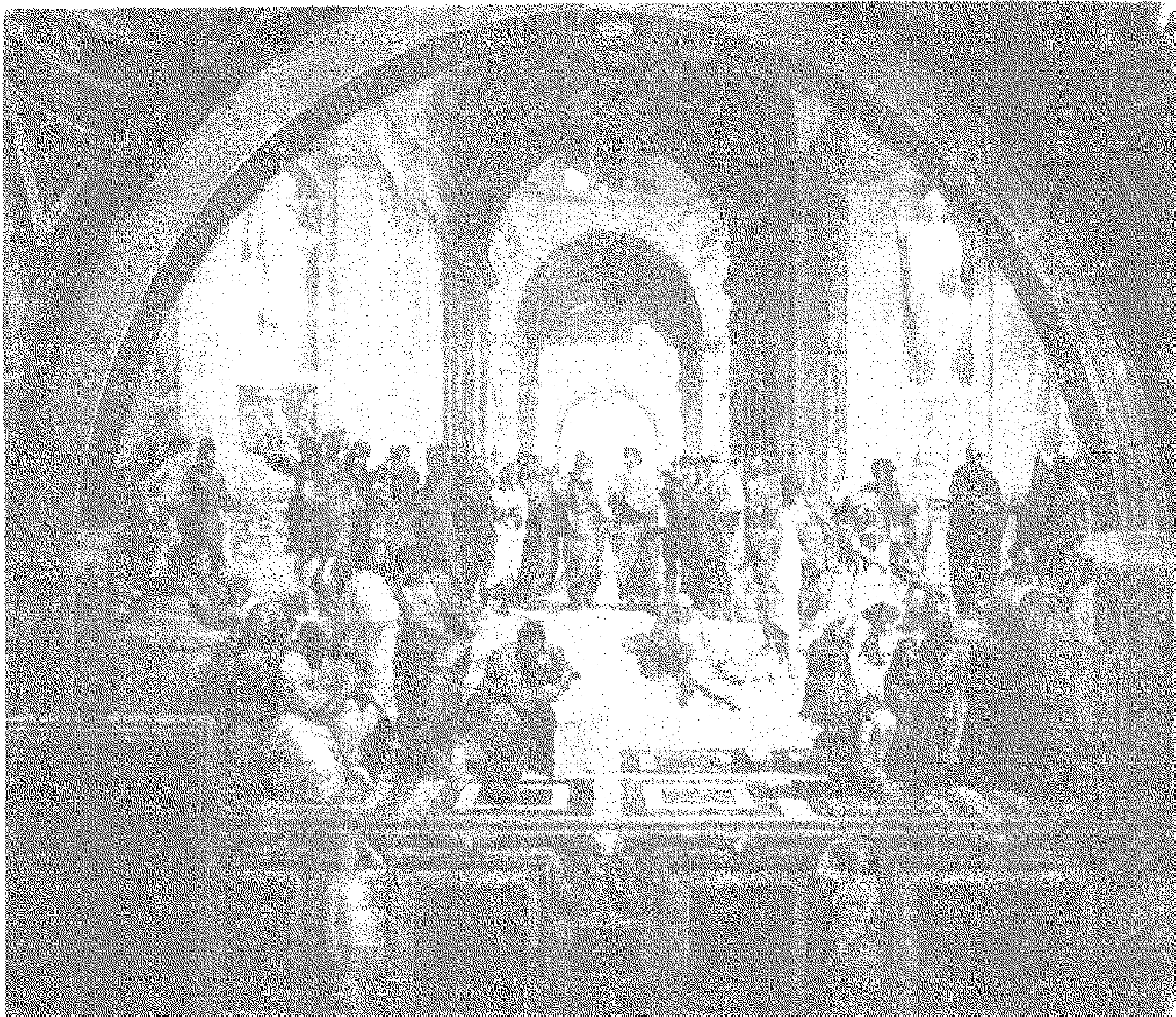
لقد كان فى سانت بيتر يلقى توجيهاته بشأن بعض التغييرات حين اعترته قشعريرة عنيفة، وفى أيام قليلة تفشت الأخبار كالنار فى الهشيم عبر الريف أن رافائيل قد مات! بدا ذلك كما لو أنه حلم وليس حقيقةً ،لقد امتلأ بالحياة والعافية ، والتوق إلى العمل وإرادة الحياة بين الناس ،و لكنه يرقد هناك جميلا فى مماته كما فى حياته وفوق رأسه عُلقت صورة " التجلى " والتى وافته المنية وهو بعد لم يُنهها وألوانها بعد ما تزال لينة ولم تنهها يده الساكنة !

اجتمعت روما كلها فى جنازته وحزن لفقده القاصى والدانى ،لكنه ترك شهرةً لا تموت وراءه أبداً واسماً لم يفقد عظمته أبداً عبر كل هذه المئات الأربعة من السنين !



رسم من أعمال رافائيل

DRAWING BY RAPHAEL



رسم لمدرسة أثينا / ١٥٠٩ / من أعمال رافائيل

School of Athens - Fresco By Raphaello Sanzio

مايكل أنجلو Michelangelo

١٤٧٥ - ١٥٦٤

" الفصل الأول "

أحيانًا ما يرى المرء فى زحامٍ من الناس رجلا طويلا واقفًا بينهم يفوق الجميع طولا وكتفاه ورأسه أعلى ممن حوله أيضًا ، يبدو أعلى من كل الرؤوس فى الأحجام البشرية المعهودة .

ونتعجب ونحن نحدق عاليًا فيه وهو يعلو الجميع فوقنا قائلين : ياله من عملاق !

وهكذا فعبر زحام الرسامين المرتحل عبر طريق الشهرة نرى عملاقًا يعلو الجميع، وهو أعظم وأكثر عبقرية ممن سبقوه أو جاءوا بعده .

عندما نسمع اسم مايكل أنجلو Michelangelo نتصور عملاقًا أشعث ، عملاقًا قويًا – ابنًا حقيقيًا للرعد الذى يشبه تيتانز Titans الذى اتحدت كل قوى الطبيعة لإرادته .

وُلد مايكل أنجلو فى كابريس Caprese بين جبال كاستنتينو Casentino وكان والده لودفيكو بوناروتى Lodovico Buonarroti عمدة كابريس Podesta or Mayor of Caprese وينحدر من أسرة شريفة تميزت بخدمتها لمدينة فلورنسا .

لم يكن يوم ولادة الطفل يوم أحد فحسب ولكن كان صباحًا تتلألأ فيه النجوم، لذا فقد أعلن حكماء القوم أن فضيلة مؤكدة ستخص الصبى الذى يولد فى ذلك التوقيت خاصة وأنه عندها وبلا تردد أصر لودوفيكو أن يُسمى ابنه مايكل أنجلو باسم رئيس الملائكة مايكل Michael .

وكان هذا الرائع كفيلا بأن يزين أى حياة عملية عظيمة .

انتهت أيام لودوفيكو الوظيفية وعاد مع زوجته وطفله إلى فلورنسا ، لقـد كان لديه أملاك فى قرية صغيرة خارج المدينة تُدعى سيتيجنانو settignano حيث استقر هناك .

كان معظم أهالى القرية نحاتين Stone - Cutters ولقد أُرسل الصغير مايكل أنجلو إلى زوجة أحد هؤلاء العمال لتربيه ، لذا فبعد سنوات قال الفنان العظيم إنه إذا ما استحق عقله شيئًا ما فإنما يدين بالفضل فيه إلى هواء الجبل النقى الذى ولد فيه، كما يدين بالفضل أيضًا لحبه نحت الأحجار للتأثير غير المتعمد لمربيته زوجة النحات وبينما هو يكبر وضح أين يضع الطفل اهتمامه ، لقد كان أُميًّا إلى حدٍ ما فى دروسه لكن إذا ما منحته قلمًا رصاصًا وورقة فإن عقله يتسع إلى نحو كبير ، لقد كان يقضى كل وقت فراغه فى الرسم على الجدران فى بيت والده، لكن لودوفيكو لم يُصغ إلى رغبة الولد فى أن يصبح رسامًا ؛ لقد كان هناك العديد من الأطفال والعائلة لم تكن ثرية والأليق أن يعمل مايكل أنجلو فى تجارة الحرير والصوف ويتعلم كيف يجنى الأموال .

ولكن من العبث أن يدرك الطفل هذه الحكمة من كل هذا !

وربما زجروه لذلك ولكنه لم يعبأ بشيء سوى قلمه الرصاص وحتى حين كانوا يضربونه بقسوة كان الولد يزحف عائدًا إلى عمله المحبوب، ولكم غبط صديقه فرانسيسكو Francesco الذى عمل فى متجر الأستاذ غرلاندايو ، لقد كانت فرحته عظيمة أن يجلس ويستمع إلى حكايات المرسم .

ولقد كان يوم أن أحضر فرانسيسكو رسوماتٍ للأستاذ غرلاندايو لعرضها على مايكل أنجلو التواق إلى رؤيتها .. يومًا سعيدًا !

و شيئًا فشيئًا بدأ لودوفيكو يدرك أنه لا فائدة من محاولاته مع ابنه إلا أن ينفذ له رغبته، وفى النهاية حين بلغ مايكل أنجلو الرابعة عشرة من عمره أُرسل إلى مرسم غرلاندايو Ghirlandaio كتلميذ ليتعلم على يديه .

كان ذلك إبان قيام غرلانداير برسوم الفريسكو لكنيسة فى سانتا ماريا نوفيلا Santa Maria Novella، ولقد تعلم مايكل أنجلو الكثير من الدروس وهو يرقب أستاذه يعمل حتى أنه يساعده فى الأعمال الأقل أهمية ، و لكن ذلك يشبه وضع نسر فى عش باز حيث إن النسر الصغير سرعان ما تعلم كيف يحلق عاليًا أعلى مما حلق الباز الكبير وبدأ يمسح السماء وحده قبل كل شيء !

لم يكن ساراً لأستاذه الفلورنسى العظيم الذى أعجب الناس بأعماله أن يصحح له غلام صغير وربما لم يكن مايكل أنجلو متواضعًا معه كما يجب .

فلدى ثقته التامة فى سعة معرفته ، أحيانًا ما كان مايكل أنجلو يلفظ بكلماتٍ حادة ومتعالية ولربما نسى الاحترام الذى يجب أن يكون من التلميذ قِبَل أستاذه .

وهكذا ترك مايكل أنجلو مرسم Studio غرلانداير وهو بعد فى السادسة عشرة ولم يكن له أستاذ آخر !

منذ ذلك الحين أعمل أفكاره الخاصة ولم يُصبح تلميذاً لأحد .

وظل فرانسيسكو صديقًا له، ولقد ذهبا ليدرسا فى حدائق سان ماركو San Marco حيث جمع لورينزو العظيم Lorenzo the Magnificent تماثيل وأعمالا فنية عدة ، وأضحى هناك حقل جديد لمايكل أنجلو ودونما حاجة لتلقى دروس بدأ مايكل أنجلو ينسخ التماثيل فى تيرا- كوتا Terra - Cotta ولقد كانت أعماله ماهرةً حتى أن لورينزو كان مسروراً بها وقال له :

– لنر ما الذى تستطيع عمله بالرخام .. إن تيرا – كوتا فقيرة للعمل فيها !

" الفصل الثانى "

لم يعمل مايكل أنجلو Michelangelo بالإزميل من قبل قط ولكنه نحت الرخام وقطعه ببراعةٍ هائلة حتى لكأن الحياة تنبض فيه .

كانت هناك رأس من الرخام فى الحديقة للإله فون Faun إله الحقول والرعاة عند الرومان وجلس مايكل أنجلو لعمل نسخة منه، ولقد نسخ بالفعل نسخةً رائعةً أدهشت لورينزو Lorenzo حتى أنها فاقت الأصل لأن الصبى قدم أفكاره الخاصة ونحت فمًا ضاحكًا مفتوحًا إلى حدٍ ما يُظهر الأسنان واللسان للإله فلاحظ لورينزو ذلك والتفت إلى الفنان الصغير وقال :

– إنك لم تتذكر أن القدامى لم يحافظوا على أسنانهم قويةً ولقد فُقد بعضها دائمًا.

إن لورينزو كان يمزح بالطبع ولكن مايكل أنجلو تناول مطرقته وهشم العديد من الأسنان مما أبهج لورينزو كثيرًا !

لم يعشق الحاكم الرائع شيئًا كالعبقرية لذا فلقد استقبل مايكل أنجلو Michelangelo فى القصر ورافقه أبناء لورينزو .

لم يحظ مايكل أنجلو بالثروة فحسب ولكن لدهشته فإن لودوفيكو Lodovico وجد أيضًا أن الفوائد والمزايا قد انهمرت عليه وكل ذلك لأجل ابنه الصغير الشهير .

أثرت هذه السنوات الآمنة والهادئة وذات العمل المنتظم عميق الأثر فى حياة مايكل أنجلو العملية، ولقد تعلم الكثير من الرجال المهرة والرائعين الذين احتشدوا فى بلاط لورينزو واستمع أولا إلى ذلك الصوت الرنان الذى كافح لجعل فلورنسا تعلو على

آثامها حين خطب سافونا رولا Savonarola خطبته العظيمة فى ديومو Duomo والتى لست شغاف قلب مايكل أنجلو، ثم تركت هذه الكلمات صداها كالرعد على سقف كنيسة سستين Sistine Chapel .

وكسائر الفنانين ذهب ليدرس فنون الفريسكو عند ماساتشو Masaccio فى كنيسة كارمن الصغيرة Carmine Chapel of the .

ثمة فرقة موسيقية شابة كانت تعمل هناك وسرعان ما أخذوا ينظرون بحسدٍ إلى رسوم مايكل أنجلو وزادت غيرتهم حين اتسعت شهرته وبدأت تزداد .

وفى النهاية وذات يوم لم يعد شاب يسمى توريجيانو Torriggiano يطيق أكثر وبدأ فى إبداء ازدرائه، وراح ينتقم فوجه ضربة لمايكل أنجلو بقبضة لم تكسر أنف مايكل أنجلو فحسب، ولكن صنعت به عاهةً مستديمة عاشت معه طوال حياته !

لقد كان ذا طلعةٍ رثة وخشنة قبلها والآن فلقد منحه الأنف الملتوى تعبيراً قاسياً لن يغادره أبداً !

تتابعت التغيرات بعد ذلك الوقت الهادئ ولقد مات لورينزو وحاول ابنه الضعيف بييرو دى ميديسى Piero di Medici أن يخلفه كحاكم لفلورنسا، ولقد عاش مايكل أنجلو لوقتٍ ما فى بلاط بييرو ، و لكن لم يتشجع للعمل لسيدٍ فاسد الذوق طلب إليه صنع تماثيل من الثلج ! والتى بالطبع ذابت مع أول نسمات الربيع !

لم ينس مايكل أنجلو أبداً أنه مدين لـ لورينزو ولقد أحب عائلة ميديسى ولكن إحساسه بالعدالة جعله غير قادر على أخذ جانبهم حين حدثت الاضطرابات بينهم وبين أهل فلورنسا، وحين بدأ القتال ترك فلورنسا وذهب إلى فينيسيا Venice ثم إلى بولوجونا Bolgona .

ومن هناك سمع أن بييرو الضعيف أُخرج من المدينة ولكنه شعر بمنتهى المرارة حين جاءت الأنباء أن الصوت الدافئ الوقور للمبشرالعظيم سافونا رولا Savonarola قد صمت إلى الأبد .

ثم ملأ الشوق العظيم قلبه إلى مدينته المحبوبة فلورنسا .

أضحى بوتيتشيللى Botticelli كسيراً حزيناً مسناً الآن وكبر غرلاندايو أيضاً ولكن فلورنسا ظلت غنيةً بفنانيها ، ليوناردو دافنشى Leonardo da vinci وبيروجينو Perugino وفيليبينو ليبى filippino lippi – كلهم كانوا هناك – وتحدث الناس عن العبقرى العظيم ... رافائيل الصغير القادم من أربينو Urbino .

ثم حان العمل فى كاتدرائية سان مارى Cathedral of St. Mary لعمل زهور على قالب ضخم من الرخام ، و لم يعرف أحد كيف يستخدمها ودُعى ليوناردو دافنشى لنحت تمثال خارجها ولكنه رفض المحاولة قائلا إنه لن يستطيع فعل شيء ، و لكن حين قُدم الرخام إلى مايكل أنجلو لمعت عيناه ووقف صامتًا لوقت طويل أمام هذا القالب الأبيض الضخم وبدا أنه يرى الشكل المعبر بالرخام على الجدران الخارجية ، و ساقه عقله العملاق وقوته العملاقة إلى أن يذهب للعمل لينشئ هذا الشكل الحر ، و حين تم نحت الغطاء الأخير للرخام ظهر شكلٌ رائع للصغير ديفيد David .

ربما يبدو لنا أنه قوى جداً كغلام صغير راعٍ ولكن شكله رائع وربما لو رأته جولييت Goliath لارتعشت لرؤيته كصغير عملاق .

هب الناس لرؤية التمثال العظيم ودارت نقاشات عدة .. أين يوضع التمثال .

لم يتعب الفنانون أنفسهم باعطاء رأى ولا حتى نقاد الفن ، و قال واحدٌ منهم :

– يبدو لى أن الأنف أكبر من أن يناسب الوجه .. ألا تستطيع أن تغيره ؟!

" الفصل الثالث "

لم ينبس مايكل أنجلو Michelangelo ببنت شفة ولكنه تسلق السقالة Scaffold-ing وتظاهر بنحت الأنف بإزميله وفى أثناء ذلك ترك بعض قطع الرخام الصغيرة وبعض تراب الرخام يتساقط على رأس الناقد فى الأسفل ثم هبط قائلا بشجاعةٍ :

– هل ذلك أفضل ؟

فأجابه الفنان الناقد :

– بديع ... لقد منحتها الحياة !

ابتسم مايكل أنجلو لنفسه ،كم يعتقد الحكماء من الناس فى أنفسهم .. حين لا يعلمون شيئًا عما كانوا يتحدثون عنه !

ولكن الناقد بدا راضيًا ولم يلحظ ابتسامة مايكل أنجلو .

إننا نحتاج إلى كتاب كيما نسجل كل أعمال مايكل أنجلو Michelangelo ، وعلى الرغم من أنه قد بدأ الكثير من الأعمال فإنه قد ترك الكثير أيضًا دون أن ينتهى منه !

و لو أنه عاش فى أيام أهدأ لكان عمله قد تم ، و لكن لقد مات عملاؤه واحداً إثر الآخر والبعض قد غير رأيه وجعله يبدأ فى عمل قبل أن يُنهى ما بدأه بالفعل .

لم تنته المقبرة الكبيرة التى أمره البابا يوليوس Pope Julius بالعمل فيها أبداً !

رغم أن مايكل أنجلو قد رسم كل تصميماتها ، ولقد حاول لمدة أربعين عامًا متواصلةً أن يتمها ويدأ البابا يعتقد بأن بناءه للمقبرة بنفسه يُعد فألا سيئًا ، لذا فلقد

غير رأيه بأن يبدأ مايكل أنجلو فى رسم سقف كنيسة سستين Sistine Chapel بالفريسكو بدلا من ذلك .

وعبثًا حاول المثّال العظيم أن يكرر أنه لا يعرف إلا القليل عن فن الرسم !

قال يوليوس Julius :

– ألم تتعلم كيف تمزج الألوان فى مرسم الفنان العظيم غرلاندايو Ghirlan-daio ؟ عليك أن تتذكر الدروس التى علمك إياها بالإضافة إلى أننى قد سمعت عن الرسم العظيم لمشهد المعركة الذى رسمته للفلورنسيين Florentines، ولقد رأيت كثيراً من رسومك وخاصةً الرأس الثائر المرعب للرجل المسن الصارخ فى ثورته .. كما لم ترسم يدٌ من قبل كيدك !

هل هناك ما لا تستطيع فعله إذا ما كانت لديك الإرادة ؟

لقد كان البابا على حق، فبمجرد أن أعمل مايكل أنجلو عقله للعمل تذللت كل الصعاب وراحت تتلاشى !

لم تكن مهمته التى تعهد بها سهلة .. أن يقف منتصبًا وأن يغطى الجدران الفسيحة بالرسوم ، لقد كان ذلك أمرًا شاقًا بما فيه الكفاية ، لكنه اضطُر إلى أن يرقد منبطحًا على سقالة ويرسم السقف الذى فوقه .

إن مجرد النظر إلى السقف لمدة عشر دقائق يؤلم الرأس والرقبة .. إننا لنعجب كيف تمت قطعة واحدة من هذا العمل ؟!

لم يتقبل الأستاذ أية مساعدة ولم يكن له تلاميذ ؛ لقد عمل بمفرده ولم يتحمل أن يراه أحد وهو يعمل ، لقد رقد هناك فى هدوء ووحدة يرسم أعمال الفريسكو العظيمة لقصة الخلق حتى زمن نوح عليه السلام .

لم يجرؤ إلا البابا يوليوس Pope Julius أن يزعج الأستاذ ووحده تسلق السقالة وشاهد العمل .

وكان سؤاله الدائم له :

– متى سوف ينتهى العمل ؟ إننى فى شوق إلى عرض عملك على العالم !

وكان مايكل أنجلو يقول :

– الصبر .. الصبر .. لاشىء جاهز الآن ..!

ويسأل الرجل المسن غير الصبور :

– ولكن متى ستنهيه ؟

ويجيبه الرسام :

– حين أستطيع .

ثم فقد البابا أعصابه لأنه لم يعتد مثل هذه الإجابات وسأل فى غضب :

– هل تريد أن أطيح برأسك من على هذه السقالة ؟ إننى أخبرك أن ذلك سوف يحدث لو لم تنه العمل فى الحال !

لذا كانت الأعمال غير كاملة واضطُّر مايكل أنجلو **Michelangelo** أن يكشف رسوم الفريسكو التى رأتها روما كلها ، كان ذلك قبل أن يتم العمل بسنوات أو قبل أن يرسم رسوم الفريسكو النهائية للقاضى الأخير **Last Judgment** على الجدار الأخير .

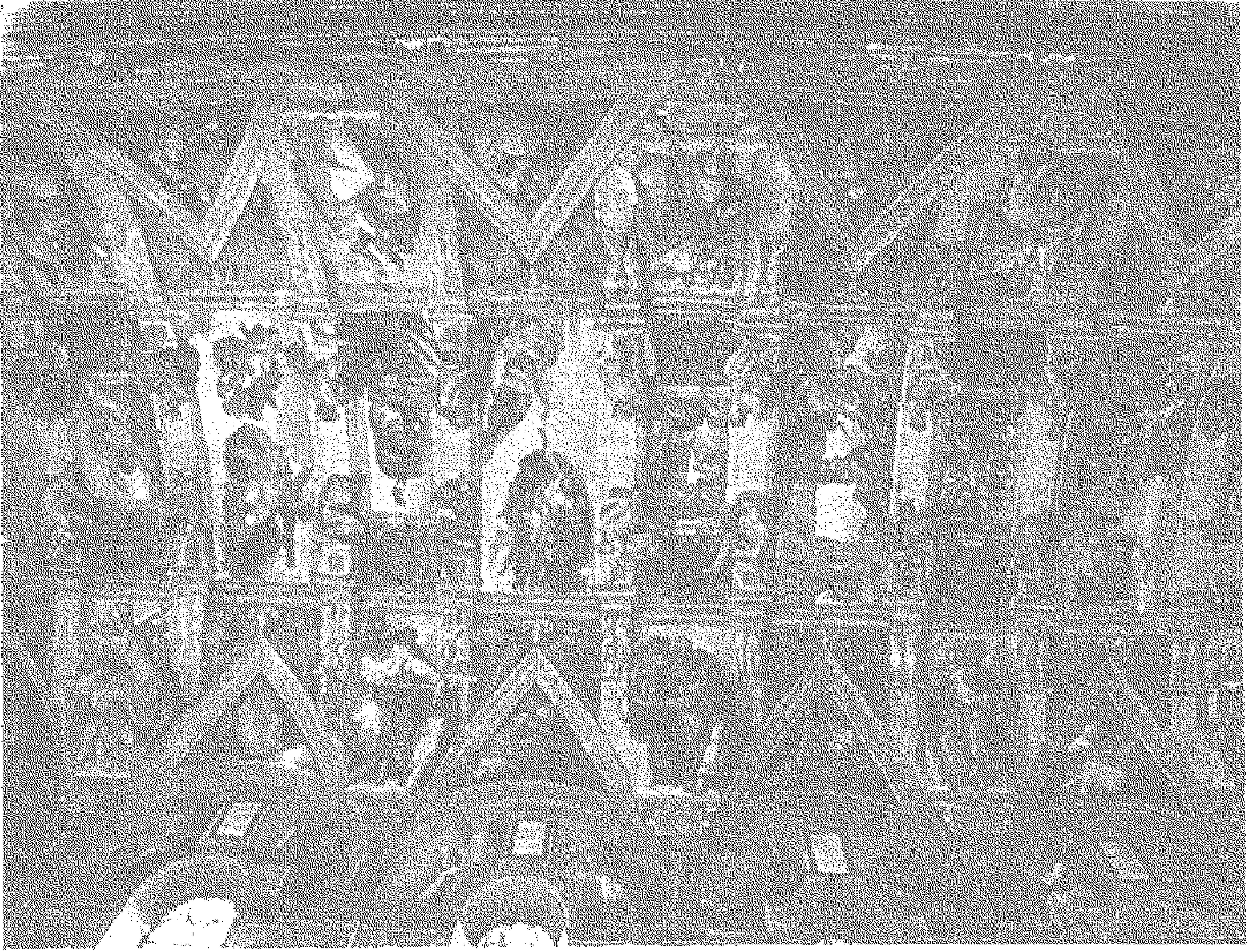
عاش مايكل أنجلو حتى أصبح مسنًّا وكانت حياته منعزلة ، منفردة حتى وفاته والمرأة الوحيدة التى أحبها – فيتوريا كولونا **Vittoria Colonna** – قد ماتت وبموتها خفتت كل بهجته .

على الرغم من أنه عمل كثيراً فى روما .. كانت فلورنسا هى التى أحبها فهناك بدأ فى عمل التماثيل لكنيسة ميديسى **Chapel of the Medici** وهناك أيضًا أسهم فى بناء الدفاعات عن سان ميناتو **San Miniato** حين شنت عائلة ميديسى **Medici** الحرب على مدينة الزهور **City of Flowers** .

لذا فعندما توفى الفنان العظيم فى روما بدا مناسباً أن يُحمل جسده إلى المحبوبة فلورنسا ، إنه يستريح الآن فى كنيسة سانتا كروز Chapel of Santa Croce .. بينما أعماله العظيمة وأفكاره الرائعة والكبيرة تنبض فى الرخام أو تومض على الجدران من كنيسة سستين Sistine Chapel، وتعيش للأبد فى عقول الناس بإعجابٍ ودهشةٍ وهم يحدقون فيها ... !



رسم من أعمال مايكل أنجلو



سقف كنيسة سستين / من أهم أعمال مايكل أنجلو

أندريه ديل سارتو Andrea del Sarto

١٦/ يوليو ١٤٨٦ - ٢١/ يناير ١٥٣١

" الفصل الأول "

لم يوجد فى أى مكان فى فلورنسا رجل أكثر أمانةً أو أفضل علماً من أجنولو Ag-nolo الحائك .

كانت هناك بحق بعض الحكايات السيئة التى يُهمس بها عنه حين فتح متجره فى الشارع الصغير .

كان يقال بأنه ليس إيطاليًّا ولكن أجنبيًّا واضطُّر إلى الفرار من موطنه بسبب شجار شب بينه وبين أحد زبائنه .

ولقد هز الناس رؤوسهم وتحدثوا على نحو غامض عن كيفية استخدامه لمقصه كسلاح مميت فى القتال، قبل ذلك بوقت طويل كانت هذه الحكايات قد تلاشت وعاش الحائك مع زوجته كونستانزا Constansa حياةً سعيدة وحافلة ولقد ربيا أطفالهما الستة جيداً وبعناية .

والآن خمسة من هؤلاء الستة أطفال كانوا عاديين وكما يتوقع المرء من أطفال حائك ولكن الطفل السادس كان كالبطة القبيحة فى الحكاية الجميلة ، لقد كان عصفوراً غريباً لا يشبه الباقين .

فلقد تعلم العوم لمسافات بعيدة وسرعان ما ترك المنزل التافه القديم وراءه .

وكان ولداً حاداً سريعًا ويُدعى أندريه، وسرعان ما أُرسل إلى المدرسة وتعلم القراءة والكتابة قبل أن يتم السابعة من العمر .. !

حيث كان يعد هذا القدر من التعليم قدراً كافياً ، ثم أخذه والده من المدرسة ليعمل مع صائغ للذهب .

من المبكر أن يبدأ أندريه Andrea العمل فى السابعة من العمر ولكنه اعتقد أن ذلك جيد بالنسبة إليه وبمثابة اللعب !

وأسعده أيما سعادةٍ أن يمسك بالورقة والقلم الرصاص، ولقد كانت رسوماته وتصميماته رائعة بحق حتى أن أستاذه بدأ يفخر به ويعرض أعماله على زبائنه !

وإلى جوار الصائغ يسكن فنان مسن يسمى باريل Baril والذى بدأ يبدى اهتماماً عظيماً بأندريه الصغير .

لم يكن باريل فناناً عظيماً ولكن لديه الكثير ليعلمه للصبى ،و هو تواقٌ لأن يتتلمذ أندريه Andrea على يديه ولقد أُعدت العدة لكيما يلتحق أندريه بالمرسم ويتعلم أن يصبح رساماً بدلا من كونه صائغًا للذهب Goldsmith .

عمل الولد لثلاثة أعوام متواصلة مع أستاذه الجديد ولكن باريل أدرك أنه سيحتاج إلى تعليم أفضل مما سيعطيه هو نفسه .

لذا فبعد تفكير عميق ذهب باريل إلى الرسام العظيم بييرو دى كوزيمو Piero di Cosimo وطلب إليه أن يقبل أندريه كتلميذ ... !

ولقد حثه قائلا :

– سوف لا تجد متاعب مع الولد ؛ إنه يملك موهبة رائعةً ؛ ولقد تعلم بالفعل كيف يمزج ألوانه بطريقةٍ مذهلة حتى أنه فى رأيى لا يوجد فنان فى فلورنسا يعرف الألوان أكثر من أندريه الصغير !

هز كوزيمو Cosimo رأسه غير مصدق فما زال الولد طفلا ويبدو هذا الإطراء سخيفًا ،ومع ذلك فإن رسوماته بالفعل خارقةٌ للعادة ولقد أسعد كوزيمو أن يتقبل تلميذاً بارعًا جدا، وشيئا فشيئا شاهد كوزيمو الولد فى عمله وتلاشى عدم تصديقه وكبر إعجابه بالولد حتى أصبح مغرمًا وفخوراً بتلميذه تمامًا كما فخر به أستاذه القديم .

لقد تعامل مع ألوانه كما لو أنه يملك خبرة خمسين عامًا وتحدث بفخرٍ وهو يعرض أعمال الولد على زبون ما جديد .

ولقد اكتسب الولد المعرفة بالرسم والألوان دونما جهد ولم يكن كسولا ولم يكل من العمل وفرح بأجازاته لكى يذهب لدراسة رسومات العظماء مايكل أنجلو **Michelangelo** وليوناردو دافنشى **Leonardo da vinci** ، وغالبًا ما قضى يومه كله ينسخ هذه الرسومات بعناية دقيقة ولم يكل من التعلم أكثر وأكثر .

وكبر أندريه وبدأت فلورنسا كلها تلحظ الرسام الشاب " أندريه ديل سارتو " **An-drea del Sarto** كما كان يُسمى أو أندريه ابن الحائك حيث إن كلمة سارتو تعنى الحائك باللغة الإيطالية .

يا للنجم الرائع الجديد الذى راح يشرق فى سماء الفن !

من كان يتوقع بأنه سوف يشرق هكذا من قبل ؟

ربما غطت شهرته على الاسم السحرى رافائيل **Raphael** ، ولقد كانت ألوانه تامة ورسومه صحيحة ، و لقد أطلقوا عليه " الرسام الكامل " **The faultless Painter** لفرط إعجابهم به !

ولكن هل كانت له بالفعل روح الفنان ؟

هذا هو السؤال .. ، فكما أن رسومه كاملة إلا أنه كان ينقصها شيء ما .. ربما سيعرف كيف يمد رسومه به ... !

فى أثناء ذلك كان أمام الفنان الشاب الكثير من العمل، وحين أنشأ مرسمه الخاص مع رسام شاب آخر دُعى إلى عمل الفريسكو لجدران دير سكالزو **Scalzo** أو الأقدام العارية للراهبين .

لقد كانت تلك أسعد أيام أندريه ؛ فلقد عمل الشابان معًا وقضيا أوقاتًا مرحة مع رفقائهما .

تعلم أندريه أن يضيف رقةً وعذوبةً إلى ألوانه يومًا بعد يوم حتى أضحت ألوانه تتأجج بالحياة حقًا .

وحلم كل يوم بالشهرة والمجد اللذين ينتظرانه وعند انتهاء العمل كان الفنانان الشابان ينطلقان لمقابلة أصدقائهما ويعدان العشاء ويقصان أحدث النكات وأفكه الحكايات وينسيان لوهلةٍ فن الرسم الجاد .

هناك اثنا عشر شابًّا تقابلا معًا وعلى كلٍ منهم أن يُحضر طبقًا للعشاء العام فيما بينهم .

والجميع يفكر فى شىء لطيف وغير مألوف ، و لكن لم يفلح واحدٌ منهم فيما عدا أندريه ، و دائمًا ما كان هناك طبق لا ينساه أحد ؛ على شكل معبد عاموده من السجق والرصيف على شكل مربعات صغيرة من الجيلى الملون ... وقمم العامود من الجبن والسطح من السكر بإطار من الحلوى يجرى حولها .

وداخل المعبد جوقة من الطيور المحمرة مفتوحة الأفواه والراهبان حمامتان سمينتان .

لقد كان أروع طبق عشاء شوهد على الإطلاق !

" الفصل الثانى "

فُتن الجميع بالفنان الشاب ؛ فلقد كان لطيفًا جدا ومجاملا للجميع وطيب القلب حتى أنه من المحال أن يشعر أحدٌ ما بالغيرة منه أو بالحقد عليه للمجد الذى أصابه والشهرة التى انهمرت عليه أكثر وأكثر كلما أنهى صورةً من صوره .

لذا فلقد وعده الجميع بالسعادة والإشراق ... ،و لكن سحابة صغيرة بدت فى سمائه الزرقاء وكبرت وكبرت حتى حجبت كل أمجاد حياته !

فى فيا دى سان جالو Via di San Gallo وليس بالبعيد عن الشارع الذى يقطن فيه أندريه ، عاشت سيدةٌ غايةً فى الجمال تُسمى لوكريزيا Lucrezia ... ولم تكن شريفة الأصل ،كانت ابنة عامل متعجرفةً متكبرةً لكونها جميلة ولم تعبأ بأشياء كالنبل والسمو ؛ لقد كانت جشعةً للمديح وتملؤها الرغبة أن تملك كل شيء على طريقتها ،ومع ذلك بدا وجهها كما لو أنه مرآة لروح جميلة !

وحين رآها الرسام الشاب أندريه لأول مرة توجه قلبه نحوها ؛ لقد كانت حلمه الذى طالما حلم به للجمال المثالى والحسن ومشهد الجمال الذى حاول الإمساك به طوال حياته .

وسأله صديقه وهو يرقبه وفرشاته ملقاة وعمله مهمل غير منتهٍ وهو يذرع المرسم جيئةً وذهابًا على غير راحةٍ :

– كيف سحرتك .. ؟ ! إنك لم تنجز إلا القليل من العمل لأسابيع عدة ... !

فأجاب أندريه :

- لا أستطيع الرسم ... لا أرى إلا وجهًا واحدًا أمامى يحول بينى وبين عملى !

قال صديقه بحزن :

- إنك تُدمر كل الفرص والوجه الذى رأيته لا يستحق التضحية .

فمال أندريه Andrea غاضبًا عنه واندفع خارجًا .

لقد أصبح كل أصدقائه ضده الآن ولم ينبس أحدٌ بكلمة طيبة عن لوكريزيا Lucre-zia، ولكنها بالنسبة إليه كانت تستحق العالم بأسره ولقد أعمل عقله فى أن يتزوجها .

وأتى الشتاء ودقت أجراس الكريسماس Christmas ببشائر عيد الميلاد المقدس حين أبدى أندريه رغبة قلبه وجعل لوكريزيا زوجةً له .

بدت فرحة عيد الميلاد مناسبة طيبة لختام سعادته وقد اعتقد أنه أكثر الناس حظًّا ولم يطلب نصيحة أحد ولم يخبر أحدًا بما انتوى فعله ولكن نبأ زواجه دوى خارجًا !

وساءل الناس فى فلورنسا بعضهم بعضًا :

- هل سمعت بنبأ زواج الشاب أندريه ديل سارتو Andrea del Sarto ... أخشى أن يكون قد وجه ضربة سيئة إلى فرص نجاحه !

لقد تركه أصدقاؤه واحدًا إثر الآخر وهجر العديد من تلامذته مرسمه ؛ لقد كانت لوكريزيا حادة اللسان غير محتملة ، و لقد آذتهم جميعًا ولكن جمالها أعمى أندريه واعتقد أنه سيرسم كما لم يرسم من قبل مادام هذا الجمال بقربه دائمًا ولكن هل عُنيت لوكريزيا Lucrezia بمساعدته فى عمله .

إن صوره لم تعن لها شيئًا إلا حين تُباع وتجلب لها المال الذى تنفقه ، و الأسوأ من ذلك أنها بدأت تحمل الحقد على المساعدة التى يوليها لوالده المسن ووالدته العجوز اللذين هما فى حاجةٍ إلى رعايته .

ومع ذلك ورغـمًـا عن أن أندريه رأى كل هذا فـإنـه لا يزال يحب لوكـريزيا زوجـتـه الجميلة ولا يهتم سوى بما يبهجها ونادرًا ما خلت صورة من وجهها حيث ظلت نموذجه المثالي للعذراء ملكة السماء .

ولم يعد سهلا أن يضع كل قلبه وروحه في عمله ، و لقد رسمت يده كما اعتادت أن ترسم حقًّا ... وبدت ألوانه أجمل ولكن روحه ظلت دائمًا بعيدة ومفتقدة !

قال له الجمال المتكبر وهو مُتعب من الجلوس موديلاً له :

– إنك ترسم ببطء ! لم لا ترسم أسرع وتبيع بسعر أعلى ؟ إنني بحاجة إلى كثير من الذهب ؛ إن المال يبدو عزيزًا أسبوعًا بعد أسبوع !

حقًّا إن المـــال يتـلاشى كالسـحر بينمـا جواهر لوكـريزيا **Lucrezia** وفسـاتينها تزداد ! ! !

تنهد أندريه قائلا :

– عزيزتي كوني صبورة فلا أستطيع سوى أن أبذل قصارى جهدي !

وبينمـا هو ينظر للوجـه الجـشـــع وضــــع فـرشـــاته جـانبًـا وراح يركع إلى جـــوارها قائلا :

– لوكريزيا ... ! هنالك شيء نحتاجه إلى جانب الرسم والتلوين لنصنع الصور ، إنهم يدعونني بالفنان الكامل، ولقـد بدا أنني ذات يوم ٍ ربما وصلت عـاليًا كرافـائيل العظيم أو ربما أعلى مما بلغ ، إن ذلك يتطلب وضع الروح في عملي وإذا لم تساعديني في الوصول إلى نموذجي المثالي فماذا سوف أُرى العالم من فني ؟

قالت لوكريزيا بحدة :

– إنني لا أفـهمك ... إن ذلك مضـيعة للوقت .. دع ذلك وعد إلى فرشـاتك وألوانك وستنال صفقة أفضل من الصورة السابقة !

لا فـائدة .. إنهـا لن تفــهم ، لقـد عـرف أندريه Andrea أنه يـجب ألا يبـحث عن مساعدتها وأن عليه أن يرسم بدلا من العوائق التى تضعها هى فى طريقه .. حسنًا إن عمله لا يزال هو الأفضل وإن عليه أن يصنع أفضله .

جاءت الطلبات من القاصى والدانى من أجل صوره ولقد عرفت بعض أعماله طريقها من قبل إلى فرنسا ولقد تاق ملك فرنسا إلى أن يأخذ الرسام فى بلاطه حتى أنه أرسل إليه دعوة ملكية راجيًا أندريه أن يذهب فى الحال إلى فرنسا ويدخل فى خدمته .

جاءته الدعوة عندما كان فاقدًا الأمل محيطًا ؛ فلم تمنحه لوكريزيا الأمان ، فالمال تبدد وكان يشعر بالضعف وعدم الرغبة فى العمل !

لقد صمم على الذهاب فى الحال إلى البلاط الفرنسى وسوف يترك لوكريزيا Lu-crezia فى مكان آمن ويرسل إليها كل ما يكسبه من نقود .

" الفصل الثالث "

كم كان جميلا أن يترك أندريه كل متاعبه وراءه وينطلق فى ذلك اليوم السعيد من شهر مايو حين تنفس العالم كله حياةً وأملا جديداً ، و ربما مضى شتاء حياته أيضًا وظل الصيف وشروق الشمس مختبآن فحسب .

لقد استُقبل أندريه استقبالا طيبًا وأُطرى عليه فى البلاط الفرنسى ، ولقد عُومل كأمير وأغدق عليه الملك هداياه وأعطاه الملابس الغالية والنقود لشراء كل احتياجاته .

وبدأ فى رسم بورتريه للطفل دوفين **A Portrait of the infant Dauphin** فى الحال وتسلم أندريه لأجل ذلك مائة قطعة ذهبية .

مرت الشهور تباعًا بسعادة ، ورسم أندريه صوراً عديدة وكانت كل صورة تنال الإعجاب أكثر من سابقتها ولكن حلم سعادته لم يمكث طويلا .

لقد كان يعمل بجد ذات يومٍ حين جاءه خطاب من زوجته لوكريزيا ... إنها لم تستطع العيش بدونه ؛ لذا فلقد كتبت إليه أن يذهب إلى البيت فى الحال وإن لم يفعل فلن يجدها على قيد الحياة .

هل يمكن ذلك ، بالطبع ،و لكن إجابة واحدة لكل هذا أن أندريه أحب زوجته لدرجةٍ لا يرفض معها طلباً لها .

أشرفت أيام السلام على نهايتها ؛ فحين راح يقرأ خطابها بدأ يحن إلى رؤيتها ثانيةً وملأته الرغبة فى أن يريها ملابسه الجميلة وهداياه الغالية بالبهجة .

ولكن الملك أبى أن يتركه يذهب ولم يفعل إلا بعد أن وعده أندريه بصدقٍ أن يعود بعد أشهر قلائل من ذلك الحين قائلا :

– لا أستطيع الاستغناء عنك طويلا ولكننى سأدعك تذهب شريطة أن تشترى لى أعمالاً فنية من إيطاليا طالما اشتهيتها وتُعيدها معك .

ثم عهد الملك إلى أندريه بمبلغ كبير من المال ليشترى له أفضل الصور التى يجدها وألا يعود فيما بعد بالفشل .

ارتحل أندريه عائداً إلى فلورنسا وعندما رأى كم كانت فرحة زوجته وبهجتها عظيمة نسى كل وعوده ونسى حتى ثقة الملك وسمح لـ لوكريزيا **Lucrezia** أن تبدد كل النقود التى كان من المفترض أن ينفقها فى شراء الكنوز الفنية للملك فرانسيس .

ثم عادت أيام الشقاء والمتاعب والشجار ، أضف إلى ذلك إحساسه المرعب بأنه خان الثقة ولم يف بكلمته مما جعله أكثر شقاء ودائمًا ما كان يأمل أن يمتلك النقود الكافية للوفاء بدينه .

مرت السنوات وجاءت الأيام السوداء على مدينة الزهور **City of Flowers** ولقد كافح كفاحًا عظيمًا من أجل الحرية وطُردت عائلة ميديسى **Medici** ولكنها تحالفت مع الأعداء وحوصرت فلورنسا لشهورٍ عدة .

ومع كل هذه الاضطرابات ظل أندريه يعمل بثبات وأعار قليلا من وعيه لمصير المدينة .

فحركة الحرب لم تصل إلى مرسمه الهادئ ؛ فهناك ما يكفى من الكفاح فى المنزل ولا حاجة للبحث عنه خارج المنزل !

آنذاك قام برسم صورة لشركة سان جاكوبو **Company of San Jacopo** وقد استخدمت كراية وحُملت فى المواكب ولكن الطقس السيئ والريح والمطر وأشعة الشمس أتلفت جمالها ولكن تبقى الكثير من جمالها ، إنها على الأخص صورة للأطفال حيث رسم أندريه القديس الكبير منحنيًا على طفلٍ صغير فى حُلةٍ بيضاء وهو ينحنى عند قدميه ... بينما ينحنى آخر على ركبتيه بالقرب منه، والطفل يطوى يديه كما لو كان

يصلى بينما يد القديس القوية اللطيفة تحت ذقن الطفل بكل لطف وحب ؛ والطفل الآخر يحمل كتاباً وكلاهما يضغط على حُلة القديس فى حمايته .. !

ورغم أن أندريه استطاع رسم صوره دونما إزعاج والحرب تدور من حوله فلقد كان هناك عدو ينتظر دخول فلورنسا استرعى الانتباه ولا يمكن تجاهله ، فحين دخلت بعض الفرق المنتصرة فى الحرب إلى فلورنسا عن طريق الخيانة جلبت معها كارثةً مميتة ، كانت أشد على فلورنسا من أىٍّ عدو ... إنه المرض القاتل ... الطاعون ! ! !

ربما عانى أندريه من ندرة الطعام الجيد فى أثناء الحصار وربما أسرف فى العمل وتعب كثيراً .. ولكن مهما كانت الحالة فلقد كان واحداً من الأوائل الذين أصابهم هذا المرض المرعب ولقد حارب العدو وحيداً ومات وحيداً.

لقد تركته لوكريزيا بمجرد أن سقط مريضاً حيث خافت من الطاعون المميت ولقد تركها أندريه تذهب وهو سعيد لنجاتها ؛ فلقد أحبها حبًّا عظيمًا خاليًا من الأنانية للنهاية !

وهكذا مضى الرسام الكامل وقد كان آخر العظماء الذين نُقشت أسماؤهم فى السجل الذهبى للفن الفلورنسى **Florentine Art** والذى عُرفت به فلورنسا فى عيون العالم !

أتى كثير من الفنانين بعد أندريه ولكن الفن تضاءل فى مدينة الزهور **City of Flowers** وبدأ مجدها فى الرحيل رويداً رويداً ... !

لا يمكننا تتبع أسماء عظيمة أخرى على صفحات فلورنسا .. لذا فإننا نغلق كتابها الآن وتتجه أعيننا صوب شواطئ البحر الأدرياتيكى **Adriatic** الزرقاء حيث فينيسيا ملكة البحر **Venice، Queen of the sea** تكتب عاماً إثر عام كتابًا يحفل بأسماء فرسانها فى الفن **Knights of the Art** !



بورتريه لرجل / من أعمال أندريه ديل سارتو

The so-called Portrait of a Sculptor, long believed to have been Del Sarto's self-portrait.



أندريه ديل سارتو / بورتريه شخصى

A self portrait

آل بيلليني the Bellini

جنتايل بيلليني / ١٤٢٩ - ١٥٠٧ Gentile Bellini

جيوفاني بيلليني / ١٤٣٠ - ١٥١٦ Giovanni Bellini

" الفصل الأول "

معظم قصص وحكايات حيوات الرسامين التى استمعنا إليها حتى الآن دارت وحلقت حول فلورنسا مدينة الزهور Florence, City of Flowers .. ؛ لقد كانت أمهم العظيمة ولقد أحبها أبناؤها حبًّا جمًّا عميقًا معتقدين ألا شىء يعدل جمالها !

وأينما ذهبوا وتسكعوا تستعيدهم لأن وشائجهم القلبية تعلقت بها وكافح الجميع ليمنحها أفضل ما عنده .. !

ولكننا الآن نأتى إلى قصص رجال تجمعت حيواتهم حول مركز آخر .. بدلا من الأم العظيمة – مدينة بالقرب من أرنو – بأبراجها القوية ومواطنيها الشجعان ولطالما دوت الحرب فى شوارعها ، و من حولها حقولها المزهرة تُطوقها من كل جانب !

إن لدينا الآن فينيسيا .. ملكة البحر Venice Queen of the sea .

لم يعكر واحد من الشجعان الذين يمشون فى الزحام الغاضب جمال شوارعها حيث لا يوجد هنا أرصفة .. الماء فحسب ، الماء الأخضر الجميل الذى يلف جدران قصورها الرخامية ويُرجع صدى الزئير المنغمس وصدى الأصوات الرقيقة العابرة .. بينما تنساب الجنادل عبر طرقها المائية .. ، حيث لا أبراج رمادية عابسة للدفاع هنا .. ولكن قصور جميلة من المرمر الأبيض والملون .. تنهض من المياه كما لو أن حوريات البحر قد بنينها ، هؤلاء اللواتى رسمن على صدفات البحر وأمهات اللؤلؤ !

لا مروج مزهرة هنا ولكن مياه فسيحة من المستنقعات تبعد حتى تلتقى بالقوس الأزرق للسماء أو تلمس الجبال البعيدة التى ترقد كخط أُرجوانى فى الأفق .

وهنا وهناك ترقد جزر صغيرة جدا فى قلبها .. باهتةً كجنيةٍ .. حيث نادراً ما تبدو كأرضٍ قوية .. انعكست على الماء الواضح .

ورغم أن فينيسيا ليس بها مروج تزينها الأزهار ولا ثروة شجرية مزهرة تشرق فى كل ناحيةٍ بألوانها ، فإن قصورها المرمرية البيضاء تتوهج بالضوء الكهرمانى الرقيق ، والماء الأخضر اللطيف الذى يعكس جمال بريقها فى الخواتم الذهبية الزرقاء متحولا من لونٍ إلى لون حيث يغير خرير الماء أشكالها عند الغروب حين تختفى السماء على حافة المستنقع وتترك ذيلها من السحب المتألقة خلفها .

إنها تشبه مدينة الحلم ، تنهض من بحر ذهبٍ ذائبٍ .. مدينة مزدوجة .. حيث ينعكس كل برج من أبراجها ومسلة من مسلاتها وكل قصر وبرج من أبراج الكنائس فى الذهب الخالص فى أكوام من الأصفر الشاحب والضوء الأبيض المرتعش .. مع لمسةٍ محترقة من لون اللهب هنا وهناك !

إنها تبدو وكأنه لا علاقة لها مع المدن القوية المألوفة فى العالم .. إنها ترقد هناك فى جمالها كله هادئةً منفردة تماماً كطائرٍ بحرى أبيض يطفو على قلب المحيط .

دائمًا ما تبدو فينيسيا منعزلة وواضحة عن بقية العالم ، و لم تقع كاتدرائيتها سان ماركو **Cathedral of San Marco** تحت سيطرة روما **Rome** قط .

ولقد حكمها حكامها أو دوقاتها – كما كانوا يُسمون – كملوك ولم يرهقوا أنفسهم بشئون المدن الأخرى .

لقد أبحر أميرها التاجر إلى أقطار بعيدة وجلب معه إلى وطنه غنائم كثيرة ليضيف إلى جمالها .

كان كل شىء ثرياً ونادراً ورائعًا قدر الإمكان لتجميلها فلم تضاهيها مدينة على الأرض ؛ لذا فلقد كان لفنانيها الذين عاشوا وعملوا بها أسلوبهم الخاص فى الرسم ، الذى اختلف عن المدرسة الفلورنسية .

تطلع هؤلاء الفنانون منذ نعومة أظفارهم إلى كل هذا الجمال من الألوان ونما حبها مع نموهم .

الضوء الذهبى على الماء والمرمر اللؤلؤى ذو اللون الرمادى الخفيف والأشرعة الزاهية للسفن القديمة المبحرة فى المستنقعات كفراشات ملونة مرسومة على الماء والامتداد المائى الوسيع الذى ينتهى مع خط السماء البعيد الغامض ... كل ذلك غاص فى قلوبهم ،و لا عجب إذ كافحوا أن يلونوا كل شىء ويصلوا إلى الكمال كما لم يفعل رسامو مدرسةٍ أخرى .

ومثلما هو الحال مع الفلورنسيين علينا أن نتغاضى عن أسماء عديدة الآن ونتعلم أولا أن نعرف هؤلاء الذين لمعت أسماؤهم بوضوح بين العديد من النجوم المشرقة فى سماء الشهرة .

فى بداية القرن الخامس عشر ومنذ أربعمائة عام حين كان فــرا فيليبــو ليبى Fra philippo Lippi يرسم فى فلورنسا ... عاش فى فينيسيا جاكوبو بيللينى Jacopo Bellini .. الرســام الــذى كان لديه ولــدان هما جنتــايل وجيــوفانى Gentile and Giovanni .. ولقد علَّم ولديه بعناية ودربهم بأقصى ما فى استطاعته حيث تاق إلى أن يجعلهما رسامَين عظيمين .

لقد رأى كم هما ماهران وسريعا التعلم ولقد أمل فيهما الكثير .

ولطالما قال لهما :

– لا تفعلا أقل مما فى وسعيكما !

حيث علمهما كيف يرسمان ويستخدمان الألوان :

– لتريا كيف أن فنانى توسكان Tuscan يكافحون معًا لشرف مدينتهم فلورنسا Florence، لذا يا جنتايل Gentile سأجعلك تكافح لتصبح عظيماً .. وأنت يا جيوفانى Giovanni .. اجتهد لتصبح حتى أعظم من أخيك !

ولكن على الرغم من أنهما تعلما أن يحاولا ويتفوقا على بعضهما فإنهما ظلا أفضل صديقين ولم تكن بينهما منافسة غير شريفة قط .

كان جنتايل – الأكبر– مُغرمًا برسم صور القصص التى تحكى تاريخ فينيسيا Venice وصور الدوقات والنبلاء العظام وأناس المدينة وهم يرتدون أثمن حللهم .

لقد أحب أهل فينيسيا الصور التى تعرض مجد مدينتهم ،و سرعان ما دُعى جنتايل ليرسم جدران قصر الدوق بصوره التاريخية .

" الفصل الثانى "

مضت فينيسيا Venice فى تجارتها العظيمة بسفنها العظيمة التى أبحرت إلى أراضٍ أجنبية عدة ،حملت هذه السفن السلع ورست فى موانئ مختلفة وباع التجار بضائعهم أو قايضوا عليها بسلع أخرى أحضروها معهم إلى فينيسيا .

حدث أن حملت إحدى السفن التى أبحرت إلى تركيا على متنها من بين ما حملت صوراً عديدةً رسمها جيوفانى بيللينى Bellini Giovanni .

وعُرضت على السلطان التركى الذى لم ير صورةً قط من قبل(٢) ولقد دُهش وأُبهج أيما بهجة !

---

(٢) عرف الأتراك فن الأبرو فى موطنهم الأصلى بآسيا الوسطى وجنوب القوقاز قبل قدومهم لهضبة الأناضول فى القرن الرابع عشر الميلادى. ويعد فن الرسم بالألوان المزركشة على الورق أو القماش أو الزجاج والسيراميك والقيشانى من بين الفنون الشعبية التقليدية التى تنتشر بآسيا الوسطى والقوقاز منذ القرن التاسع الميلادى وهضبة الأناضول بتركيا. انتقل هذا الفن لأوروبا فى القرن السابع عشر الميلادى مع قدوم الرحالة الأوروبيين لزيارة الدولة العثمانية، حيث أطلق عليه تعبير «الورق الرخامى» وفى بعض الأحيان يسمى بالورق التركى وقد ظهر أول كتاب يتحدث عن فن الأبرو فى أوروبا بمدينة روما بإيطاليا عام ١٦٤٦، تحت عنوان "الورق التركى". أما عن أصل كلمة "أبر" فهى فارسية تحمل معنى السحاب، بينما تعنى كلمة أبرو أو أبرى حاجب العين، وقد تحركت الكلمة فى لسان الناس من أبر إلى أبرو وأبرى بمرور الزمن. أما عند الأتراك فهى تعنى أيضاً حاجب العين، والورق الملون والمجزع أو الورق والقماش الملون بألوان مختلفة بشكل مموج يشبه حاجب العين، أو ألوان حجر الرخام، كما تأتى فى التركية بمعنى الورق أو القماش الملون الذى يستخدم فى تغليف الكتب والدفاتر . (المترجم)

كـان دينه يمنع رسـم الصـور لكنه لم يعـر انتـبـاهًـا لهـذا[٤] وأرسل رسـولا إلى فينيسيا راجيًا الرسام بيلليني Bellini أن يذهب إلى تركيا في الحال .

لم يشأ حكام فينيسيا أن يدعوا جيوفاني حينها ولكنهم سمحوا لجنتايل Gentile بالذهاب حيث قد انتهى عمله في قصر الدوق .

أخذ جنتايل رسومه وألوانه وانطلق مبحرًا على متن واحدةٍ من السفن التجارية ، وسـرعان مـا وصل إلى بلاط عظيم الترك Grand Turk واستُقبل الفنان – الذى رسم صورًا بدت حيةً – استقبالا حافلا وحمَّله السلطان بالهدايا والعطايا وعاش جنتايل كأمير ملكي هناك .

كانوا يرون أن كل صورة يرسمها جنتايل أفضل وأروع من سابقتها .

لقد رسم بورتريهًا للسلطان بل رسم أيضًا صـورةً لنفسه واعتُبرت هذه الصـورة نوعًا من السحر .

---

(٤) رسم ما لا روح فيه لا حرج فيه، كرسم الجبل والشجر والطائرة والسيارة وأشباه ذلك و هذا هو حكم الإسلام ويستثنى من الرسم المحرم ما تدعو الضرورة إليه، كرسم صور المجرمين حتى يعرفوا وحتى يمسكوا، أو الصورة في حفيظة النفوس التى لا بد منها ولا يستطيع الحصول عليها إلا بذلك، و إنا لنعجب من رأى المؤلفة و قد سبق و بينا كيف أن العثمانيين قد برعوا فى فن الرسم على الورق والقماش والزجاج والسيراميك و القيشانى والمنمنمات، ومن المدهش حقا أن يكون المسلمون أول من ابتدع فن الرسوم التوضيحية فى التاريخ. وقد نقلته أوروبا عنهم فى حضارتها المعاصرة، فهذا الفن لم يكن معروفًا عند الإغريق، وفى كتب الطب الإسلامى وفى المخطوطات القديمة نجد الكثير من الرسوم التى تبين لطالب العلم مهمة القضية التى تشرح له. وهذه الرسوم تشمل كل ذى روح من إنسان أو حيوان أو طيور؛ فهناك رسوم تظهر الطبيب والمريض وغرفة الفحص الطبى، وطريقة الكشف على المرضى أو ما يسمى بالفحص السريرى الذى ابتدعه الأطباء المسلمون وعلموا أوروبا فيه أحدث الطرق لاكتشاف المرض ومعرفة أحوال المريض وقد رسم الواسطى مقامات الحريرى (٦٣٤هـ/١٢٣٧م)، وتُعرف هذه النسخة باسم "مقامات شيفر" وهى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. فضل الفنانون تزيين المساجد والكتب الدينية والأماكن المقدسة بالخط والزخرفة العربيين، جاعلين منهما نتاجًا متمايزًا لفهمهم الجمالى ومُمَحورين حولهما كل الفنون التشكيلية الأخرى ومن الملاحظ أن الأشياء غير المزخرفة نادرة بحق فى الفن الإسلامى، حتى أن الفخار الرخيص غير المزجج (الخالى من الطلاء) يتضمن دائمًا شيئًا من الزخرفة. (المترجم)

وهكذا مر عام كامل، ولقد قضى جنتايل زمنًا مبهجًا وكان قانعًا راضيًا حتى عكر ذلك الصفو شيء ما حدث فأقلق هذا السلام .

كان جنتايل قد رسم صورةً لابنة هيروديياس **Herodias** الراقصة وفي يدها رأس يوحنا المعمدان وأحضرها للسلطان وقدمها إليه ، و كعادته فُتن السلطان بالصورة الجديدة لكنه توقف لحظةً أثناء إطرائه على جمالها ونظر متفكرًا إلى رأس القديس يوحنا **John Baptist** ثم عبس قائلا :

- يبدو لي أن هذا ليس صحيحًا تمامًا فأنا لا أعتقد أن الرأس التي قُطعت ستبدو كالتي في صورتك ...!

فأجاب جنتايل بلطف أنه لا يرغب في مخالفة جلالته ولكن ما يبدو له أن أمر الرأس صحيح .

قال السلطان بهدوء :

- سنرى !

والتفت غير مبالٍ إلى حارس من حراسه يقف إلى جواره وأمره أن يقطع رأس واحدٍ من العبيد كيما يرى بيلليني **Bellini** إذا ما كانت هذه الصورة رُسمت على نحو صحيح أم لا(٥) !

(٥) نرى في هذه الرواية مبالغة لا نرضاها حيث إنه ليس من المستساغ من سلطان مسلم محب للفنون إلى هذه الدرجة أن يفعل ما تدعي الكاتبة و هي لم تذكر لنا اسم السلطان و لا سني حكمه فإذا ما كان هذا الذي تدعي الكاتبة في الفترة ما بين عام ١٤٢١ إلى ١٤٥١ فإنها فترة حكم السلطان مراد الثاني و لقد كان مراد الثاني خير ملوك زمانه شرقًا وغربًا مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى، محبًا للعلم والشعر منفقًا على أهل العلم والشعر، وأيضًا كان يرسل صدقات من ماله الخاص لأهل الحرمين وبيت المقدس، فكان تقيًا صالحًا، وبطلا صنديدًا محبًا للخير ميالا للرأفة والإحسان وكان بحق مجاهدًا زاهدًا ورغم أنه قد قضى حياته كلها في الجهاد وطلب الموت في مظانه فإنه قد مات على فراشه في ٥ محرم سنة ٨٥٥هـ، وقد أوصى بألا يبنى على قبره شيء لاتباع السنة في ذلك . لم يكد مراد الثاني يستريح من عناء القتال على الجبهة

كان ذلك فوق ما يطيق جنتايل Gentile أن يتحمله وقال لنفسه :

– من يدرى فربما يريد السلطان the Sultan فيما بعد أن يرى كيف تبدو رأسى بعيداً عن جسدى !

لذا فبينما رأسه الثمينة لا تزال بين كتفيه .. رأى أنه من الحكمة أن ينسل بهدوء بعيداً ويعود إلى فينيسيا مع أقرب سفينة ممكنة .

فى تلك الأثناء كان جيوفانى لا يزال يعمل بثبات وفاق أخاه وأباه ، حقًّا ، وأصبح أعظم رسام فى فينيسيا والأول فى مدرسة الفن الفينيسى التى تعلمت أن ترسم الألوان الرائعة .

بكل هذا الثراء من الظلال الرقيقة الممتدة خارجًا أمام عينيه ومع هذا البحر ذى اللون الياقوتى الخفيف والعجيب والمتغير دومًا والذى يراه من كل ناحية ، لم يكن غريبًا أن يغوص عشق الألوان فى سويداء قلبه .

ونلمح فى صوره التوهج الذهبى الذى يغمر القصور المرمرية ولون الماء الأخضر الصافى والأزرق النقى والألوان القرمزية المحترقة ... كانت كلها واضحة كالكريستال لا ألوان محضة ولكن ألوان حية تنبض بالحياة .

لم يأبه جيوفانى برسم قصص تاريخ فينيسيا بأشكالها المزدحمة العظيمة ، كما فعل جنتايل .

الأوروبية العنيدة حتى أصيب بمصيبة كبيرة وهى وفاة أكبر أولاده وولى عهده الأمير علاء الدين، وهو فى شرخ الشباب، واشتد حزن مراد الثانى على ولده وزهد فى الدنيا والملك ثم نزل عن السلطنة لابنه محمد (الفاتح)، وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأى والنظر من رجال دولته، ثم توجه مراد إلى مدينة (مغنيسيا) فى آسيا الصغرى ليقضى بقية حياته فى عزلة وعبادة لله عز وجل. (المترجم)

لقد أحب العذراء والقديسين أكثر وأحب أشكالا فريدة امتلأت بالعزة والكرامة ، وكان قديسوه أكثر إنسانيةً من هؤلاء الذين رسمهم فرا أنجيليكو Fra Angelico ، ومع ذلك لم يكونوا محض رجال ونساء ولكن شيئًا أسمى وأنبل .

فبدلاً من الملائكة الذين يؤرجحون مباخرهم والذين رسمهم الرسام سان ماركو San Marco بشكل جميل كان ملائكة جيوفانى صبيةً صغاراً بوجوه عذبة .. وأطفالا سعداء فى عيونهم نظرة سماوية وهم يعزفون على آلات العود الصغيرة والماندولين .

وإلى جانب صور القديسين والملائكة كان لجيوفانى هدية رائعة لرسم البورتريهات وجاء معظم عظماء فينيسيا ليرسموا بالقرب منه .

فى المعرض الإنجليزى الدولى National Gallary لدينا بورتريه للدوق لوريدان Doge Loredan .. الذى يعد واحداً من تلك الصور التى تعلمك أشياء عدة حين تتعلم أن تنظر بعيونك .

عمل الأخوان معًا ولكن قبل أن يُبعد الموت أكبرهم سنًّا ليترك جيوفانى وحيدًا ... !

ورغم أنه أصبح الآن مسنًّا جداً فلقد عمل جيوفانى بجد أكثر من ذى قبل، وبدلا من أن تضعف يده صارت أقوى وأقوى وأكثر مهارة !

كان فى التسعين من عمره حين مات وظل يعمل إلى النهاية، ولقد دُفن الأخوان فى كنيسة سان جيوفانى إى بولو Church of SS Giovanni e Paolo .. فى قلب فينيسيا Venice .

هناك فى عتمة الكنيسة الهادئة .. يرقدان .. آمنين من أصوات العابرين فى الميدان الخارجى أو الماء الذى يلعق الخطا .. بينما ينحسر المد ويتدفق من حول مكانهما الهادئ المريح .



لوحة تشيروب من أعمال جيوفاني بيلليني

Bellini Giovanni Virgin_with_Sts_Mark,_Benedict Nicholas_and_Peter,_detail of left musician angel 1500 Santa Maria Gloriosa die Frari Venice.jpg



الرجل ذو العمامة / لجيوفانى بيللينى / معرض أوفيزى – فلورنسا

Florence، Bellini, Giovanni Man with a Turban, Galleria degli Uffizi



بورتريه كاترينا كورنارو / بريشة جنتايل بيلليني / متحف بودابست

فيتوركارباتشيو Vittore Carpaccio

١٤٦٠ - ١٥٢٥

" الفصل الأول "

كسائر الرسامين العظام .. كان لـ بلليني تلامذة يعملون تحت يده .. صبية ساعدوا أستاذهم وتعلموا منه بمراقبتهم لعمله .

من بين هؤلاء التلاميذ ثمة ولد كان يُسمى فيتور كارباتشيو Vittore Carpaccio، كان غلامًا ماهرًا حاداً له عينان متحمستان بارقتان كانتا تلاحظان كل شيء فتعلم بسرعةٍ ونسخ أعمال أستاذه بصدق كما لم يفعل أحد ، و حين حان الوقت أصبح فنانًا شهيراً .

و لقد عكست أعماله إلى النهاية تأثيرات أستاذه عليه .

لابد أن فيتور هذا كان فضولياً .. وعلى الرغم من أننا لا نعرف عنه إلا القليل فإن أعماله تحكي لنا عنه حكايات عدة فى الأيام الغابرة حين كانت فينيسيا فى أوج عظمتها وكانت تقام الولائم الرائعة والعروض الجميلة .

فى الصباح الباكر أيام تلك الأعياد كان كارباتشيو ينسل من المرسم في وقت السحر قبل أن يغادر الآخرون الأسرة – تاركًا العمل وراءه – فمن ذا الذى يعمل وراء الأبواب المغلقة فى هذه الأيام ؟

يوجد شعور بالأجازة فى كل الأجواء والأغانى والضحكات ورجع الأصوات المرحة فى كل مكان ، و بدت المدينة كملعب فسيح حيث كل الأطفال الكبار والصغار مستعدون لقضاء أجازة سعيدة .

القنوات تقطع الشوارع الجانبية الصغيرة فى فينيسيا Venice فتبدو محيرةً لهؤلاء الذين لا يعرفون المدينة ولكن كارباتشيو استطاع أن يسلك طريقه بسرعة من

جسر إلى جسر ومن طرق قصيرة ، و وصل فى النهاية إلى الشارع المائى المركزى الكبير في فينيسيا ، والقناة الكبيرة Grand Canal حيث من السهل أن يجد زاويةً يرى منها المهرجان ويستمتع بمشهد طيب تمامًا كعلية القوم الذين يطلون من شرفات قصورهم المرمرية .

وبرج ريالتو Rialto الذى يلقى بشبحه الأبيض عبر منتصف القناة هو المكان المفضل لدى كارباتشيو حيث يمكنه رؤية الأسواق وطابور القصور المرمرية الطويل من جانب آخر .. ومن جميع النوافذ عُلقت الطُرُز الموشاة والسجاجيد التركية والأقمشة الحريرية وغُطيت الأقمشة الرقيقة الخفيفة بالمطرزات الشرقية .

كان السوق مزدحمًا بسبب زحام الأجازات وحديقة ألوان مشرقة وأطلت النسوة اللواتى يرتدين الملابس الثمينة من الشرفات وكن بمثابة مهرجان من الجمال بشعورهن الذهبية الرائعة وجواهرهن المتلألئة ،بينما الببغاوات الخضراوات والقرمزية ثُبتت بسلاسل ذهبية إلى الدرابزينات المرمرية وهى تصيح وترخى أجنحتها وتبهج عينيه المتحمستين بجمالهما البهى ... !

اكتسحت قوارب الموكب الطريق المائى وأمسك الولد أنفاسه من فرط بهجته حين رأى التوهج اللونى والسفن القديمة الملونة وطوابير البنات اللاتى يرتدين الفساتين المشكلة الألوان بقبعاتهن ذات الريش على رؤوسهن المعقوصة الشعر والنبلاء والحكام فى حللهم القرمزية والستائر الحريرية من كل لون تجر أهدابها الذهبية فى الماء الأخضر الجميل بينما تنزلق القوارب عابرة ... كل ذلك صنع صورةً لن ينساها الفتى أبدًا !

حينئذ وعندما انتهى كل شيء أخذ كارباتشيو طريقه إلى المرسم وحاول أن يرسم المشهد الجميل الذى مثل أمام عينيه - يومًا بعد يومٍ - بكل تفاصيله كما رآه تمامًا .

تعلم كارباتشيو Carpaccio شيئًا آخر من خلال لوحاته ... إنه من المحتم قد أحب الاستماع إلى الأساطير القديمة وقصص القديسين التى اختزنها فى عقله كما اختزن ذكرى المواكب الجميلة والأجنحة المرتخية لتلك الببغاوات القرمزية والخضراء .

لذا فعندما كبر وأصبح رجلا وبدأت شهرته فى الاتساع كانت صوره الأولى والعظيمة التى رسمها للقديسة أورسولا St Ursula تحكى فى تفاصيل جميلة كما يفعل - فحسب - رجل أحب هذه القصة .

" الفصل الثانى "

وعلى الرغم من أن كارباتشيو Carpaccio ربما رسم صوراً مستوحاةً من القصص القديمة فإن ذلك عبر الضباب الذهبى لفينيسيا التى رآها ..

كانت قديسته أورسولا St Ursula سيدة فينيسية أنيقة، وحجرة نومها التى حلمت فيها حلمها الرائع واحدةٌ من حجرات القصور المرمرية مع إناء زهور على عتبة الشباك وحذائها الفينيسى ذى الكعب العالى إلى جوار سريرها .

رسم كارباتشيو المشاهد التى رأتها عيناه واستقرت عليها منذ طفولته كلما كان ذلك ممكناً ... السفن القديمة بأشرعتها المنعكسة على الماء الصافى والفساتين الأنيقة لسيدات فينيسيا والببغاوات ذات الألوان الجميلة والكلاب المدللة .. والقرود الضاحكة الهازئة .

توجد بعض الصور فى كنيسة قديمة فى فينيسيا ويقال بأن كارباتشيو رسمها حين كان طفلا فى الثامنة من العمر .

إنها مشاهد مأخوذة من قصص التوراة وهى مشاهد مرحة جدا ولكنها تبرز حقًّا مهارة يديه وعقله المفكر ، وكيف كانت فينيسيا خلفيةً فى عقله لكل قصةٍ منها .

حيث لقاء ملكة شيبا والملك سولومون Queen of Sheba and King Solomon، وبدلا من أن نرى أورشليم Jerusalem بكل قصصها نرى جسراً خشبيًّا صغيراً حيث سولومون فى جانب وملكة شيبا فى جانب آخر .. يمشيان كل فى اتجاه الآخر كما لو كانا يعبران قناة صغيرة فى فينيسيا .

كان هناك العديد من البحارة الأجانب فى فينيسيا فى الأيام القديمة .. والذين جاءوا فى سفن تجارية من أراضٍ بعيدة كان العديد منهم فقراء وغير قادرين على كسب المال لشراء طعامهم وحينما كانوا يمرضون لم يك ثمة من يعتنى بهم أو يساعدهم .. لذا فإن البعض من الأجانب الأثرياء اتجهوا للرهبنة حيث وجد البحارة المساكين من يساعدهم عند حاجتهم .

هؤلاء الرهبان اختاروا القديس جورج كحامٍ وولى أمر لهم وحينما بنوا كنيسةً صغيرةً .. دعوا إليهم كارباتشيو Carpaccio ليرسم جدرانها بصور من حياة القديس جورج وقديسين آخرين .

لم يجد كارباتشيو ما يناسبه أكثر من ذلك وبدأ عمله ببهجةٍ عظيمة ، فما زال لديه حب الطفولة لهذه القصص ، ولقد رسمها جميلة ورائعة ما أمكنه ذلك .

هناك نرى القديس جورج St . George وهو يرعد ممتطيًا حصانه الحربى وشعره يتطاير وهو يرتدى عُدته الحربية فى أعظم صورةٍ لفارس بطل .. ، ثم يأتى التنين – أعظم تنين يمكن رؤيته – وهو ينفث اللهب والدخان .

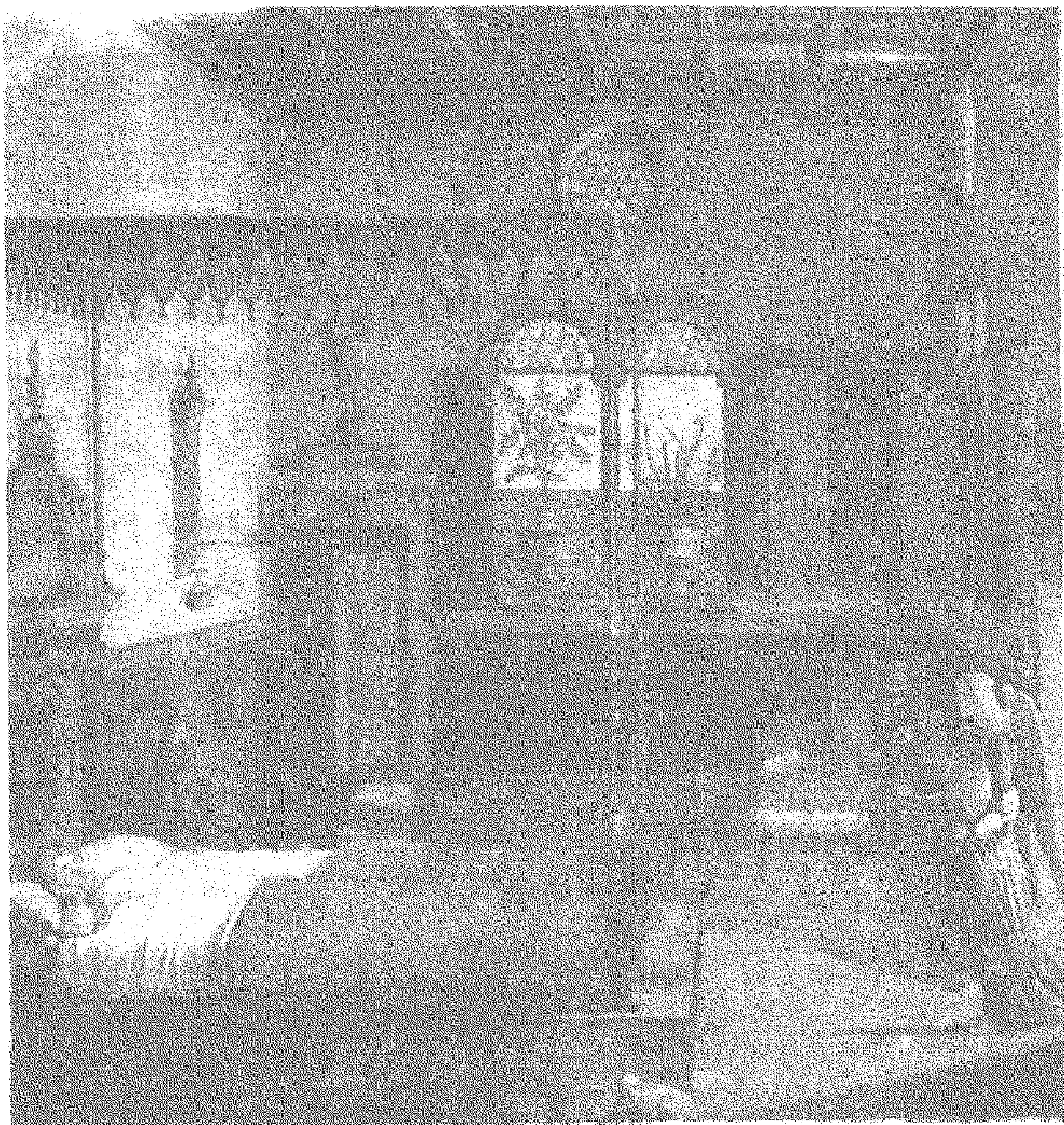
وتوجد أيضًا صورة القديس ترافونيوس St .Tryphonius يروض أفعوانًا خرافيًا .

وقد طوى الولد القديس الصغير يديه معًا ونظر إلى أعلى مبتهلا .. معيرًا قليلا من الانتباه لوميض الشر فى الأفعوان الذى يشب عند قدميه بينما جمع غفير من الخواص فى حُللهم السارة واقفون يهمسون ويشهدون خلف سُلم المرمر وفى الخلفية أيضًا قنوات وجسور فينيسيا والقصور المرمرية والسجاد المُعلق فى النوافذ من الخارج، كان كل شىء على أجمل ما يكون ورُسم بكل عناية ودقةٍ حتى تصميم الفسيفساء للسلم المرمرى .

ونحن نعبر من صورةٍ إلى صورة نأمل أن نكون قد عرفنا كارباتشيو Carpaccio حيث لابد وأنه كان حكاءً رائعًا للقصص .

وكيف أنه جعلنا نرتعد من تنيناته وأُفعواناته الخرافية وجعلـنا نضحـك أيضًا من الأولاد والبنات الغريبى الشكل الذين رسمـهم ،و ببـغاواتـه القـرمـزية وسـحاليـه الخضراء.

وعلى الرغم من أنه لا يمكننا سماعه يحكى قصصه فإنه ما زال يتحدث عبر صوره القديمة الرائعة والتى ستراها يومًا ما حين تزور الأرض الجميلة إيطاليا وتزور فينيسيا ملكة البحر ! !



حلم أورسولا / عمل من الكاناڤا / من أعمال كارباتشيو وهى تمثل أسطورة أورسولا / معرض الأكاديمية / فينيسيا .

The Dream of St Ursula (1495) Tempera on canvas, 274 x 267 cm Gallerie dell'Accademia, Venice

جيورجيون Giorgione

١٥١٠ - ١٤٢٧

" الفصل الأول "

بينما نسترجع معًا سير حياة الرسامين العظام ،نرى كيف أضاف كل واحدٍ منهم معرفةً جديدة إلى تاريخ الفن وكيف أنه بسط الجمال النقى لعيون العالم .

لقد حدث ذلك كله بالتدريج كبرعم يبسط أوراقه إلى أن تبدى الزهور تفتحها وجمالها الكامل عيانًا، ولكننا نجد من بين الرسامين من يمكث بعيدًا عن الجميع ويغرد وحده وعلى طريقته !

إنه لا يُضيف حقائق جديدة بالتدريج إلى الحقائق القديمة ولكنه يصنع خطةً كاملةً من عنده .. جيورجيون **Giorgione** رجل من هذا الطراز واليوم نحكى قصته ...

ذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه ليوناردو **Leonardo** يتحدث باسم الفلورنسيين **Florentine** .. حيث إن هذا العبقرى الآخر يعمل فى فينيسيا **Venice** وأقام لنفسه مكانًا عاليًا فوق كل الذين سبقوه .

وُلد جيورجيــــون بارباريللى **Georrgio Barbarelli** فى قلعة فرانكو **Franco Cas-tle** ... وهى مدينة صغيرة ليست بعيدة عن فينيسيا .. ولقد كانت مدينة بحرية عظيمة وأرسل إليها عندما كبر ودُرب هناك على يدى الفنان الشهير بيللينى **Bellini** .

كان جيورجيون فتى وسيمًا طويلا وحسن البنية وكان ذا هيئة ملكية حتى أن رفاقه منحوه لقب جيورجيون **Giorgione** أو جيورج الأكبر **George the Great** .

و كما هو سائر فى تلك الأيام عَلِقَ به اللقب ؛ لذا فبينما طوى النسيان اسم عائلته تقريبًا عُرف هو باسم جيورجيون .

أفرط جيورجيون فى حبه للموسيقى وكتب الكثير من شعر الطبيعة وألف أغانيه وغنَّاها على ألحانه الخاصة على العود وبدا حقًّا أن الأشياء التى لا يجيدها قليلة !

ولقد كان الرسم هو أروع الأشياء التى يجيدها وبدا الرجال والنساء الذين رسمهم أحياء وحقيقيين ،و لقد أمسك بأجمل الموسيقى المستوحاة فى صوره وكانت عماد رسومه .. !

سرعان ما عُرف جيورجيون كفنان عظيم وحين أضحى شابًّا تم توظيفه فى مدينة فينيسيا ليرسم الجدران الخارجية للبورصة الألمانية بالجص وتسببت الريح والمطر وهواء البحر المالح فى تدمير رسوم الجص هذه كلها الآن .

ولا يوجد الآن سوى القليل من رسوم جيورجيون مما يجعلها أعظم قدراً فى عيوننا .

إن رسومه التى نراها هنا نادرة ومأخوذة عن صورة أكبر فى معرض أوفيزى فى فلورنسا Uffizi Gallary of Florence .

إنها تعرض لرجل فى ملابس فينيسية وهو يساعد امرأتين تصعدان إلى محراب فى قصر مرمرى لكى تشهدا موكبًا يمر ... ولكى تخرجا من الزحام .

توجد الآن صورة فى أكاديمية فينيسيا يقال بأنه رسمها وهى تثير اهتمام كل الأولاد والبنات الذين يحبون القصص القديمة ،و هى تحكى عن أسطورة فينيسية قديمة تكاد تكون فى طى النسيان الآن ولكنها تحكى بأنفاس خفيضة ،و يُعتقد بأنها حكاية تاريخية وهذه هى القصة :

فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٣٤٠ بدأت تثور عاصفة مرعبة حول فينيسيا وهى أكثر رعبًا من أىِّ عاصفة حدثت قبل ذلك .. ولقد جرفت الريح المياه ودوت حول القصور دويًّا !

لقد رجت البحر وجعلت منه أمواجًا عظيمة وهزت المدينة كلها من أساساتها !

لم ينقطع البرق والرعد وانصب المطر ملاءةً مائيةً رماديةً عظيمة حتى بدا وكأن فيضانًا ثانيًا قد حلَّ بالعالم !

وارتفع الماء ببطء ولكن بشكل أكيد أعلى وأعلى وغرقت فينيسيا أسفل ... وأسفل وقال الناس إنه إذا لم تتوقف العاصفة فإن المدينة سوف تنطمس ، و لم يغامر أحد بعبور القنوات ... سوى صياد واحد فحسب كان فى قاربه حيث جرفته قناة سان ماركو ونجح ببالغ المشقة أن يصل إلى الشاطئ ،و كان شاكرًا لكونه آمنًا فربط قاربه بأمان إلى البر وجلس ينتظر حتى تنتهى العاصفة .

وبينما هو جالس هناك يرقب البرق لا يستمع لشىء سوى دوى العاصفة فإذا بشخص ما قد لمس كتفه ودوى صوت غريب فى أذنيه وقال :

– صياد طيب .. هل تجدف بى إلى سان جيورجيو ماجيور San Giorgio Maggiore؟ وسأدفع لك جيداً إذا ما ذهبت بى .

نظر الصياد عبر المياه التى تمور حيث برج الجرس الطويل بعد الجزيرة البعيدة يُرى عبر الشبورة والمطر وسأله :

– كيف يمكن أن أجدف عبر سان جيورجيو San Giorgio ؟

إن قاربى الصغير لن يصمد لمدة خمس دقائق فى هذا الماء الهائج !

ولكن الغريب أصر ورجاه أن يبذل ما فى وسعه، وهكذا ولأن الصياد مسنٌ ومقدام وله روح الشجاعة البارزة حل وثاق قاربه وانطلق وسط العواصف ولكن الغريب أدرك أن الأمر لم يكن سيئًا كما كان يخشى، وقبل أن يصل القارب بأمان بالقرب من سان جيورجيو ماجيور ترك الغريب القارب ورجا من الصياد أن ينتظر عودته !!!

" الفصل الثانى "

وفى الحال عاد ومعه شاب صغير طويل وقوى وبرشاقة فارس . وسأله الغريب قائلا :

– هل تجدف بنا إلى سان نيكولا دا ليدو San Niccole da Lido ؟

فسأله الصياد فى خوف :

– كيف لى أن أفعل هذا ؟

كانت المسافة إلى سان نيكولا بعيدة، ولقد جدف بمجداف واحد كما كانت العادة فى فينيسيا القديمة .

رد الغريب بهدوء :

– جدِّف بشجاعة إن ذلك فى إمكانك وسوف ندفع لك جيداً !

وهكذا رأى الصياد أن تلك هى مشيئة الله فانطلق مرةً أخرى وعندما ذهبوا دفعتهم المياه للأمام بهدوء ويسر حتى وصلوا أبعد من سان نيكولا داليدو San Niccole da Lido .

وانتظرهم هنا رجل مسن ذو لحيةٍ بيضاء، وعندما دخل إلى القارب هو أيضًا أمر الصياد بأن يجدف نحو البحر المفتوح وازدادت العاصفة هياجًا وأتت سفينة سوداء قديمة عبر الزبد الهائج وحملت عليهم وطارت كما لو أن لها أجنحة من الريح وحين اقتربت من الصياد رأى أنها مأهولة بعفاريت من الجن سوداء مخيفة المنظر وعرفوا أنهم فى طريقهم إلى المدينة الجميلة فينيسيا Venice .

انتصب الرجال الثلاثة حين أتت عليهم السفينة القديمة ورفعوا أذرعهم عاليًا ورسموا علامة الصليب فوق أنفسهم وطلبوا من الجن مغادرة المكان وأن يذهبوا من حيث أتوا .

وهدأ البحر فى لحظة وصرخ الجن صرخة مرعبة ورحلوا فى سفينتهم السوداء القديمة واختفوا تمامًا من المشهد .

ثم أمر الرجال الثلاثة الصياد بالعودة كما جاء ... .

فهبط الرجل المسن فى سان نيكولا داليدو وهبط الفارس الشاب فى سان جيورجيو ماجيور وهبط الأخير فى سان ماركو .

وحين وجد الصياد أن عمله قد تم أدرك أن الوقت قد حان ليتسلم أجره .. لذا ورغم أنه رأى المعجزة فإنه لم يشأ أن ينسى أجره !

قال الغريب :

أنت على حق وسوف ندفع لك .. اذهب إلى الدوق Doge وقص عليه كل ما رأيت .. وكيف أن فينيسيا كانت على وشك أن يدمرها شياطين العاصفة وأنا القديس مارك St. Mark حامى المدينة والفارس الشاب الشجاع هو القديس جيورج St. George والرجل المسن الذى أقلناه على السفينة هو القديس نيكولاس St. Nicholas .. أخبر الدوق أننى أرجوه أن يجزل لك العطاء لقاء خدماتك الشجاعة !

فسأله الصياد :

– ولكن إذا أخبرتهم هذه القصة فكيف سيصدقوننى ؟

أخذ القديس مارك خاتمًا من إصبعه ووضعه فى راحة الصياد الخشنة قائلا :

– سوف تريهم هذا الخاتم كبرهان وحين ينظرون إلى كنز سان ماركو San Marco سيفطنون إلى أنه قد فقد من هناك !

وحين انتهى القديس مارك من كلامه اختفى ... !

فى اليوم التالى بكّر الصياد قدر استطاعته وذهب إلى الدوق وأخبره الحكاية العجيبة

وأراه خاتم القديس .

لم يصدق أحد هذه القصة الوحشية فى البداية، ولكنهم عندما بحثوا فى كنز القديس ماركو .. وجدوا الخاتم مفقوداً ؛ فعرفوا أنه لابد وقد كان القديس مارك St.Mark، وتسلم الصياد مكافأته ؛ ولم يعد مضطراً للعمل من أجل العيش ولكنه تسلم عطاء من حكام المدينة وعاش فى رغد بقية حياته ... !

وفى الصورة نرى السفينة السوداء القديمة مأهولةً بالعفاريت وهى تجرف القارب الصغير للأسفل والذى ينتصب فيه الرجال الثلاثة ولم يكن من العفاريت من هو على متن السفينة فحسب، ولكن كان هناك من يمتطون الدلافين والأسماك العجيبة والقارب الصغير محاط بطاقم السفينة المرعب .

لا نعرف عن حياة جيورجيون Giorgione غير أنها كانت قصيرة وحزينة تحوم عليها غيوم الأسى المرير ؛ فلقد أحب فتاةً فينيسية جميلة وأوشك على الاقتران بها حين حملها صديق له – هو أيضاً يحبه – وتركه مسلوب الحب والصداقة .

لم يعوضه شيء عن هذا الفقد وبدا أن الضياء قد خفت فى حياته وبدأت الحياة نفسها تُظلم ،و بعدها أغمض عينيه عن كل جمال ووعدٍ ملأ عالمه من قبل وبالرغم من ذلك فإن لدينا قليلا من صوره .. و هذا القليل وحده كافٍ ليبين لنا أنه كان أكثر من مزاح ذاك الذى جعل رفاقه يلقبونه بـ جيورج الأكبر George the Great !



لوحة من أعمال جيورجيون

DRAWING BY GIORGIONE



بورتريه لرجل فينيسى / جيورجيون وتيتيان / معرض الفن الدولى

Portrait of a Venetian Gentleman - Giorgione and Tizian 1510 National Gallery of Art



بورتريه شخصي لجيورجيون

تيتيـــان Titian

١٥١٠ - ١٤٢٧

رأينا كيف أن معظم الرسامين العظام أحبوا تصوير المشاهد التى رأوها فى طفولتهم ورسموها فى لوحاتهم ولقد تذكروها على نحوٍ واضح وجلى حتى نهايات حيواتهم .

لم ينس جيوتو Giotto قط قطعانه على جوانب تل فيسبجنانو Vespignano العارية .

ولقد رسم فرا أنجيليكو Fra Angelico صوره السماوية بألوان أزهار الربيع على منحدرات فيسول Fiesole .

وكيف أن بيروجينو Perugino ابتهج للرحابة الوسيعة لسهول أمبريان Umbrian على النهر الملتف وشجر السرو الفريد .

وحين نأتى إلى الرسام الفينيسى العظيم تيتيان Titian ننظر أولا باهتمام فى أى نوعٍ من البلاد وُلد وما هى المشاهد التى عكستها الطبيعة على عقله حين لم يزل بعد صبيًّا . عند أقدام جبال الألب وعلى بعد ثلاثة أيام من فينيسيا ترقد مدينة كادور Cadore الصغيرة على نهر بيف وهنا وُلد تيتيان .

فى كل ناحيةٍ ترتفع أكوام من جبال ضخمة وعرة عالية نحو السماء بقمم رائعة وعجيبة غير مستوية ... تطفو الغيوم حول قممها ويلفها الضباب بالظلمة دومًا فيمنحها ملمحًا رائعًا وعجيبًا .

وأسفل الممر الصخرى يزأر التيار الجبلى لبيف ويتمرغ فى طريقه ويصل بعيدًا إلى غابة الأشجار ذات الطقس المتقلب حيث تتعقد سيقانها وتقف ثابتةً أمام عواصف الجبل .

بينما عتمة السحر تحت أغصانها ذات الامتداد الوسيع تبين هنا وهناك ملامح المسافات الأرجوانية البعيدة ..

لا عجب إذن أن عشق تيتيان رسم الجبال فكان أول من رسم مناظر طبيعية أرجوانية، ولقد سكن تلك الجبال الوقورة والريف البرى من حوله والظلمة العميقة فى الغابات والمسافات الأرجوانية البعيدة .

كان والده جريجورو فيسيلى Gregorio Vecelli واحداً من نبلاء كادور لكن أسرته لم تكن ثرية، وحين بلغ تيتيان العاشرة من عمره أرسل إلى عمه فى فينيسيا كيما يتعلم التجارة لكنه كان مغرماً بالرسم دومًا، ويقال إنه حين كان صغيراً جدا وجدوه يحاول رسم صورة برحيق الأزهار .

رأى عمه أنه ولد موهوب فوضعه فى مرسم جيوفانى بيللينى Studio of Giovan- ni Bellini ...

ورغم كونه تعلم الكثير من بيللينى فإنه لما رأى رسوم جيورجيون حلم بما يمكن أن يفعله باللون ...

ومنذ ذلك الحين بدأ يرسم بتلك الروعة من الثراء اللونى مما جعل اسمه شهيراً فى كل أنحاء العالم .

عمل الشاب تيتيان فى البداية مع جيورجيون وبدآ يرسمان معًا جدران البورصة على جسر ريالتو Rialto .

وشيئًا فشيئًا راح جيورجيون يشعر بالغيرة حيث امتُدحت أعمال تيتيان بشكل عظيم حتى اعتقد بأنه أفضل الاثنين فافترقا حيث لم يعد جيورجيون يعمل معه وبدأت فينيسيا تستيقظ على حقيقة تيتيان وأن لديها رسّامًا آخر عظيمًا جلب الشهرة والشرف إلى المدينة الجميلة .

ودُعى إلى إكمال الرسم بالجص فى قاعة القنصلية الكبيرة Grand Council Champer التى بدأها بيلليني ورسم بورتريهات للدوق والحكام .. نالت إعجاب جميع الأمراء والنبلاء الذين رغبوا أن يرسمهم الفنان الفينيسى .

وحين توقف الإمبراطور تشارلز The Emperor Charles V نفسه عند بولوجنا Bo- logna أرسل إلى فينيسيا ليُحضر تيتيان .. ولقد كان مبتهجًا جدا بعمله حتى أنه جعل الرسام فارسًا له معاش مئتا ريال إنجليزى .

أضحت الشهرة والثروة فى انتظار تيتيان Titian أينما ذهب ولم يمض وقت طويل حتى دُعى إلى روما ليرسم بورتريه للبابا .

ولقد التقى هناك بمايكل أنجلو Michelangelo ولقد نظر ذلك الأستاذ العظيم بعين الاهتمام إلى أعمال الفنان الفينيسى وأثنى عليها على نحو جميل للتلوين الذى لم ير مثله من قبل قط .

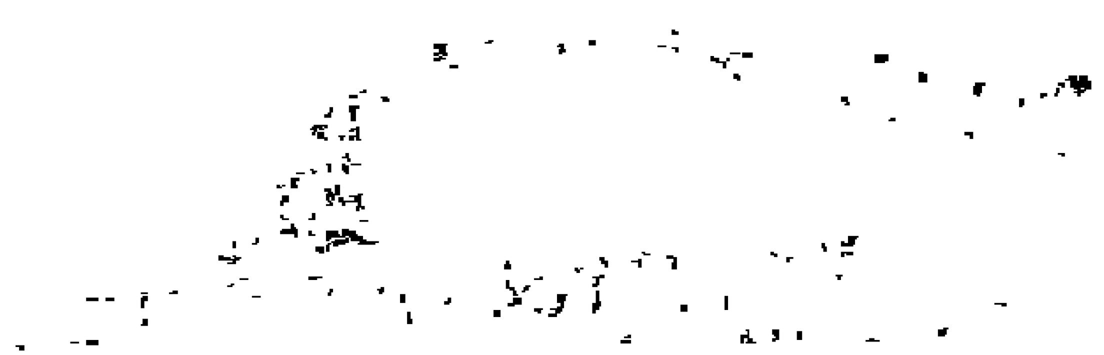
ثم قال مايكل أنجلو بعد ذلك لصديق له :

– إنها الأجمل ولكن للأسف فى فينيسيا لا يعلمون الرجال كيف يرسمون مثلما يعلمونهم كيف يلونون .. ، فلو أن تيتيان هذا يعرف كيف يرسم مثلما يعرف كيف يلون لكان من المستحيل أن يفوقه أحد !

ولكن العين المألوفة لا تستطيع أن تجد خطأً فى رسومات تيتيان ، وتُعد صوره هى الأروع فيما رُسم .

يمتد التوهج الذهبى لفينيسيا كتعويذة سحر على صوره ولقد بلغت المدرسة الفينيسية العظيمة أوجها به .

وإضافة إلى رسم البورتريهات فلقد رسم تيتيان عديداً من الصور الأخرى والتى تعد من التحف الفنية فى العالم كله .



لابد أنه قد كان لهذا الرسام الفينيسي العظيم حب خاص للأطفال ..

فعن طريق صوره نجزم أنه قد فهمهم جيداً وأحب أن يرسمهم ... ، و لقد تعلم الكثير بمراقبة طفلته الصغيرة لافينيا Lavinia وهي تلعب بالبيت القديم في فينيسيا .

لقد توفيت زوجته كان حزنه الوحيد بسبب ابنه الذى خيب آماله ولكن الابنة الصغيرة كانت ضياء عينيه ونشعر كأننا نمسك بلمحات وجهها فى صورته الشهيرة العذراء الصغيرة The Little Virgin تصعد سُلم المعبد .

كانت الحورية الصغيرة وحيدة تماماً حين خلَّفت رفيقاتها وراءها والجموع ترقبها من أسفل .. بينما الكاهن العظيم ينتظرها فى الأعلى وهى تمد يداً واحدةً وبيدها الأخرى ترفع رداءها وهى تعتلى درجات السلم المرمرية .

إنها تبدو طفلة حقيقية جدا بضفيرتها الذهبية الطويلة ووجهها الصغير الجاد .

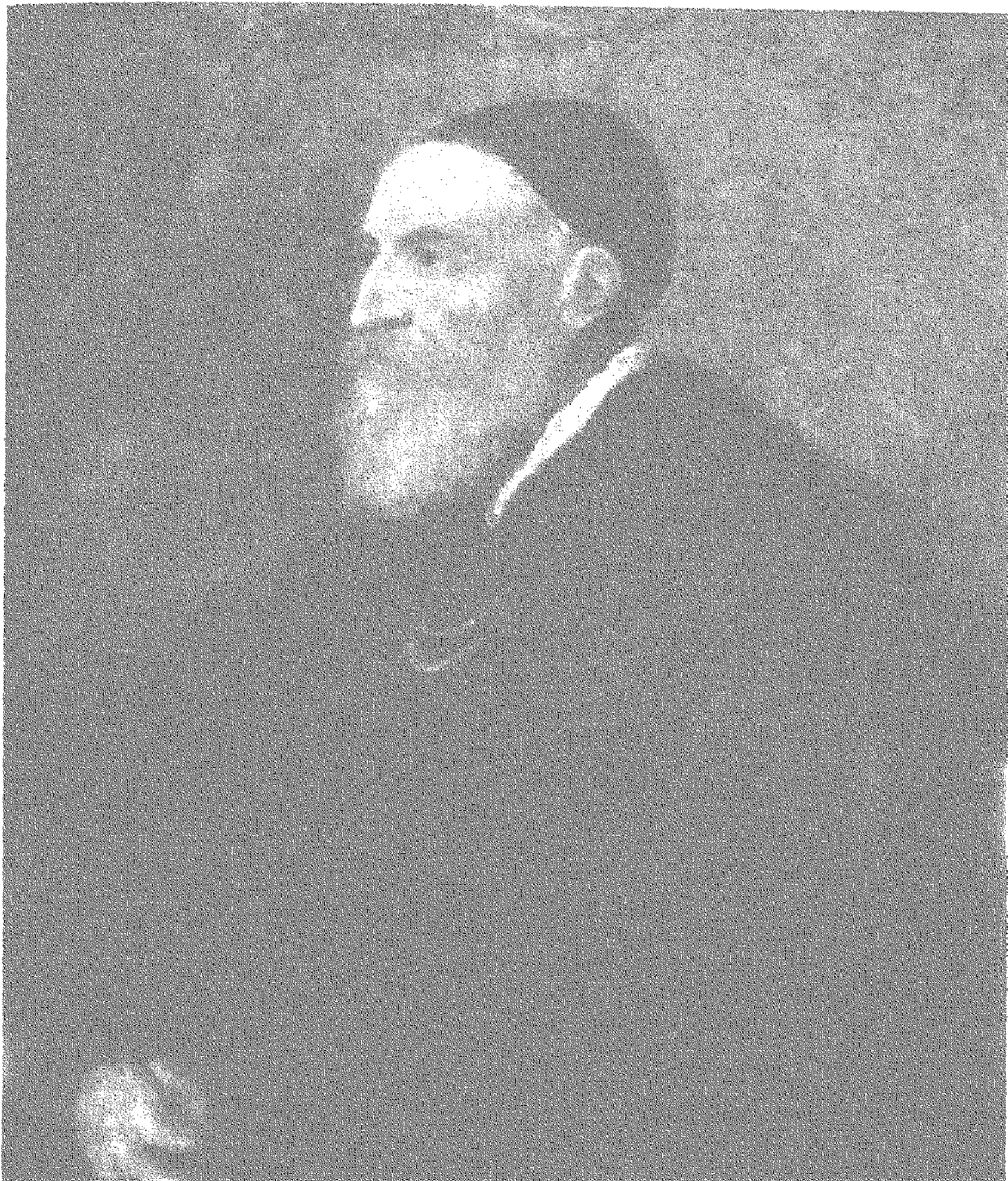
ولا يمكننا أن نجزم أن ابنة الرسام الصغيرة كانت بباله حينما رسم العذراء الصغيرة .

عاش تيتيان Titian حوالى مائة عام حتى أصبح مسنًّا وظل يُرى حتى نهاية عمره وفرشاته فى يده يرسم صوراً جديدةً ؛ لذا فحينما رحل ترك لنا مخزوناً من الجمال لم يزخرف جدران فينيسيا Venice التى أحبها فحسب بل جعل العالم أغنى وأكثر جمالا .



لوحة العذراء الصغيرة / من أعمال تيتيان

THE LITTLE VIRGIN. BY TITIAN



بورتريه شخصى للفنان تيتيان

Deutsch: Selbstporträt



بورتريه لتمثال الإمبراطور تشارلز / بريشة تيتيان – ١٥٤٨

Titian's state portrait of Emperor Charles V at Mühlberg (1548) established a new genre, that of the grand equestrian portrait.

تينتوريتو Tintoretto

٢٩ سبتمبر ١٥١٨ - ٣١ مايو ١٥١٨

" الفصل الأول "

لم تمض أربعة قرون أو خمسة حتى اعتلت فينيسيا عرشها كملكة للبحر Queen of the sea بكل فخر حيث كان لها أعظم أسطول فى البحر المتوسط ، و لقد اشترت وباعت ومارست التجارة أكثر من أى أمة، ولقد هبّت من صدمة الحرب وقهرت جميع أعدائها وآن لها أن تزين نفسها بكل الجماليات التى يبدعها الفن وتنتجها الثروة .

أبحر تجار فينيسيا إلى كل الموانئ وحملوا بضائعهم الرائعة فى سفنهم التجارية، فاشتهرت مدينتهم بصناعة الحرير والقطيفة والدانتلا والديباج الثمين .

ولقد اكتشف أهلها سر الصبغة أى الخضاب Tyrian dyes وكان يوجد العديد من أنواع الخضاب فى فينيسيا خاصةً الخضاب الأرجوانى والذى اشتهر على وجه خاص وكان الأفضل فى جميع أنحاء العالم .

ثم أن أهل فينيسيا تعلموا فن النفخ فى الزجاج وتشكيله على هيئة حوريات وأشكال ضوئية ورقيقة كفقاعات بظلال جميع الألوان وتدويره بمئات الأشكال الثمينة .

حقًّا لم تكن هناك مدينة أغنى أو أجمل من ملكة البحر !

لقد وصل فن الرسم إلى أوج عظمته حين كانت فينيسيا فى أوج عظمتها أيضاً ، وبدأ جيورجيون Giorgione وتنتوريتو Tintoretto يرسمان قصورها ومحاريب كنائسها .

وفى منتصف المدينة تماماً حيث بيوت الفينيسيين Ventians الفقراء المعدمين .. عاش فى ذلك الحين رجل يُسمى باتيستا روبستى وكان صبّاغًا - كما كان يُسمى فى إيطاليا - وأصبح ابنه الصغير جاكو بعد ذلك الفنان الشهير والذى عُرف باسم

" تنتوريتو " والذى لا يعنى شيئًا سوى الصباغ الصغير ولقد سُمى بهذا الاسم نسبة إلى تجارة والده .

لابد أن تنتوريتو قد نشأ وسط الألوان الجميلة فهو لم يلحظ التغييرات اللونية الخفيفة فى العالم فحسب، بل لابد أنه قد شاهد الأثرياء الفينيسيين وهم يرفعون الأنسجة والأقمشة من أوانى الصبغة – فى متجر والده – مثقلةً بالألوان القرمزية والظلال الأرجوانية التى عُرفت بها فينيسيا .

ربما أتعب عينيه الصغيرتين كل هذا التوهج اللونى لذا فإنه عندما أصبح رجلا بين لنا كيف أنه أحب الألوان الوقورة والداكنة .

رغم أنه استطاع أيضًا أن يرسم الألوان الأروع حينما كان يختارها ..

بدأ الصبى تنتوريتو **Tintoretto** يرسم جدران بيت أبيه بالطبع ، وبمجرد أن كبر بما فيه الكفاية تعلم كيف يستخدم الصبغة ويرسم ..

حتى وإن لم تكن له روح الفنان فأنى له أن يقاوم إغراء الرغبة فى أن يبسط هذه الألوان الجميلة على الحوائط البيضاء الملساء .

كل طفل سوف يفعل ذلك ، و لكن أصابع تنتوريتو الصبيانية بالفعل أظهرت علامات الموهبة، وبدلا من أن يعنفه والده لتضييعه الألوان وإتلافه الحوائط ... فلقد شجعه على أن يستمر فى رسمه للصور .

وكبر الصبى وكانت بهجته الكبرى أن يجول حول المدينة ويرقب الناس وهم يبنون القصور الجديدة .

ولكنه تريث فى تجواله بالقرب من الجدران التى كان تيتيان **Titan** وجيورجيون **Giorgione** يغطونها برسوم الجص على الأخص ، و كان يرى الفنان على السقالة عاليًا وهو يرسم، وحلم الفتى وبنى قصورًا فى الهواء حين يصبح رسامًا، وتأمره فينيسيا أن يزين لها جدرانها ...!

كـان تيـتـيـان هـو الفنـان الأعظم فـي العـالم فـى نظر تنتـوريتـو Tintoretto وكـانت أقصى أمانيه أن يتعلم علي يديه ويحظى بهذا الشرف، لذا فربما كان أسعد أيام حياته يوم قرر والده أن يأخذه إلى مرسم تيتيان ويطلب إلى الأستاذ أن يقبله كتلميذ .

ولكن السعادة لم تدم طويلا حيث لم يقبل تيتيان بعمل الولد ورفض أن يحتفظ به فى مرسـمه ليعلمه ،فرجع تنتوريتو مُحبطًا خائب الآمال مسكينًا وشعر كما لو أن الضياء والأمل قد غربا عن حياته للأبد .. لقد كان الإحباط مريرًا بالنسبة إلى والده ووالدته أيضًا حيث قد منيا قلبيهما بأن يصبح ابنهما رسامًا .

ولكن على الرغم من كل هذا فإن تنتوريتو لم يفقد قلبه أو يتخلى عن أحلامه .

لقد عمل بمفرده وعلى طريقته الخاصة ولقد علمته رسوم تيتيان أشياء عدة رغم أن الأستاذ نفسه رفض مساعدته .

حينئذ رأى أعمال العظيم مايكل أنجـــلو Michelangelo وتعلم دروسًا عديدةً منها .

من ذلك الحين فصاعداً كان مثله الأعلى في الرسم هو مايكل أنجلو وفى التلوين تيتيان Titan .

عاش الفنان الشاب فى حجرةٍ بسيطة وفقيرة ،و لقد أنفق معظم أمواله فى شراء التماثيل أو السبائك .

لقد كانت له طريقة عجيبة فى عمل تصميمات صوره بدلا من الرسم الكروكى ، لقد كان يصنع نماذج شمعية صغيرة ويرتبها معًا فى صندوق ورق مقوى أو صندوق خشبى به فتحة ليدخل شمعةً مضاءةً به .

لذا فبجانب تجميع الأشكال كان يرتب الضوء والظل أيضًا .

لكن على الرغم من أنه عمل بجد ، فلقد تأخرت الشهرة عن المجيء إليه فلم يع الناس أسلوبه فى الرسم لأنه لم يكن أسلوب أىٍّ من الفنانين العظام ؛ لقـد كـانوا يخشون أعماله الجسورة الغاضبة إلى حدٍ ما .

" الفصل الثانى "

مع كل هذا عمل تنتوريتو بثبات ودائمًا ما كان يحدوه الأمل، وحين تلوح له فرصة عمل حتى ولو بلا أجر فإنه ينتهزها ... !

حدث أن رتب الفنانون الفينيسيون Venetian الشباب معرضًا لرسومهم واستأجروا غرفةً للعرض فى ميرسيريا Merceria وهى أكثر بقاع فينيسيا ازدحامًا .

كان تنتوريتو فرحًا للغاية بفرصة عرضه لعمله ضمن هذا المعرض فأرسل بورتريهًا لنفسه وآخر لأخيه .

وبمجرد أن رأى الناس أعماله بدأوا يلحظون مهارة الفنان الشاب حتى أن تيتيان نفسه باح بأن أعمال تنتوريتو جيدة وصوره نقية وحية دائما ،و لقد رسم بلمسة قوية وشجاعة كما سترى إذا ما ما نظرت للرسم المعروض - رأس الولد الفينيسى مثل الذين يقابلهم تنتوريتو يوميًا من بين جموع الصيادين فى فينيسيا.

بدأ الحظ يبتسم لـ تنتوريتو منذ ذلك الحين وشيئًا فشيئًا بدأت الأعمال تتوالى عليه فطُلب إليه أن يرسم محاريب الكنائس حتى أنه فى نهاية الأمر حين أضحى شهيرًا دُعى ليرسم جدران قصر الدوق وكان هذا أعلى شرف يُمكن لفنان فينيسى أن يتمناه !

انتهت أيام الفقر والمرسم البسيط والوحيد والحياة الحزينة ولت ،و لم يعد تنتوريتو Tintoretto يكافح الفقر والتجاهل وكان منزله قصرًا جميلا يطل على بحيرة تجاه مورانو Murano .

ولقد تزوج ابنة أحد النبلاء الفينيسيين وعاش حياةً قانعةً سعيدةً ولقد عزفت أصوات الأطفال موسيقى مرحة فى بيته ودب دبيب الأقدام الصغيرة فى هدوء مرسمه وأتته الشهرة أيضاً .

ربما كانت أعماله غريبة .. ولكنها كانت رائعةً جدا ولقد فخرت فينيسيا برسامها الجديد ... !

ولقد أكسبته صوره العاتية لقب " الرسام الثائر " وبدأ العالم يعرف عظمته !

ولكن نور حياته الحقيقى تمثل فى ابنته الصغيرة ماريتا .

فبمجرد أن تعلمت ماريتا المشى وجدت طريقها إلى مرسم والدها وظلت حتى سن الخامسة عشرة معه تساعده كما لو أنها إحدى تلاميذه .

كانت ماريتا ترتدى دومًا زى الأولاد ولم يفطن زائرو المرسم قط إلى أن الصبى الماهر الوسيم ... كان حقًّا ابنة الرسام ... !

هناك الكثير من المدارس الفنية فى فينيسيا فى ذلك الوقت ، و الكثير من العمل يتم فى تزيين جدرانها بالرسوم .

لم تكن المدرسة مكانًا حقيقيًّا للتعلم ولكن مجتمعًا من الناس ارتبطوا معًا فى عمل خيرى لتمريض المرضى ، و دفن الموتى وإطلاق سراح المساجين الذين أُخذوا كأسرى .

ومدرسة سان روكو **Scuola di San Rocco** واحدة من أعظم هذه المدارس ولقد أُعطيت لأيدى تنتوريتو الذى غطى جدرانها برسومه تاركًا حجرةً صغيرةً فحسب للفنانين الآخرين .

و لكن أشهر أعمال رسامنا فى قصر الدوق ؛ فلقد غطى جانبًا كاملا فى الصالة الكبيرة هناك راسمًا " الجنة " **Paradise** وهى أكبر عمل زيتى فى العالم .

بدايةً كانت صورة الجنة مظلمة ... وفسيحة ومزدحمة بمئات الأشكال معًا وبدا اللون داكنًا وكئيبًا ولم يكن بها أحد من الملائكة المتأرجحين بملابسهم البيضاء ولاشيء من أزهار الربيع النقية المبهجة الألوان والتى تجعلنا نعشق الجنة التى رسمها فرا أنجيليكو Fra Angelico !

ولكننا إذا ما تأملناها بما يكفى سوف تسرقنا دهشةٌ كبرى وسننسى البحث عن ألوان زاهية ووجوه ملائكة جميلة ؛ لأن أشكاله تسبح عاليًا ولأنها حقيقية وإنسانية تُظهر لنا الجنة التى نحدق فيها حيث سنقف بأنفسنا هناك ذات يوم .

عندما كان تنتوريتو يرسم كانت ابنته ماريتا قد كبرت وأصبحت امرأة وأضحت رسومها أيضًا شهيرة ، و لقد دُعيت إلى البلاط الألمانى والإسبانى لترسم بورتريهات للملك والإمبراطور ولكنها رفضت أن تغادر فينيسيا ووالدها الحبيب .

حتى حين تزوجت من ماريو لم تبتعد الجوهرة عن البيت وكان تنتوريتو مُغرمًا بابنته الماهرة الجميلة ويزداد فخره بها ليس لأنها تجيد الرسم فحسب ولكنها أيضًا عزفت وغنت على نحوٍ أروع وأضحت أعظم فنانة موسيقية مفضلة بين الفينيسيين .

و لكن تلك السعادة قربت على نهايتها .. ففجأةً توفيت ماريتا Marietta فى ريعان شبابها وفى منتصف عمرها السعيد ، لم يُسر عن الفنان العظيم شيء لفقده ابنته .

ماتت ماريتا ودُفنت في كنيسة سانتا ماريا ديل أورتو Santa Maria dell Orto وهناك طلب تنتوريتو تجهيز مكان آخر لدفنها فلربما يُدفن إلى جوارها .

بدا وكأن الفنان العظيم لن يستطيع العيش دون ابنته ؛ فلم يمر وقت طويل حتى وافته المنية .

انتهت آخر صورة عاصفة وعظيمة للرسام الثائر وبكته فينيسيا كلها وهى توسده الثرى ليرتاح إلى جانب الابنة التى أحبها .. جدا !



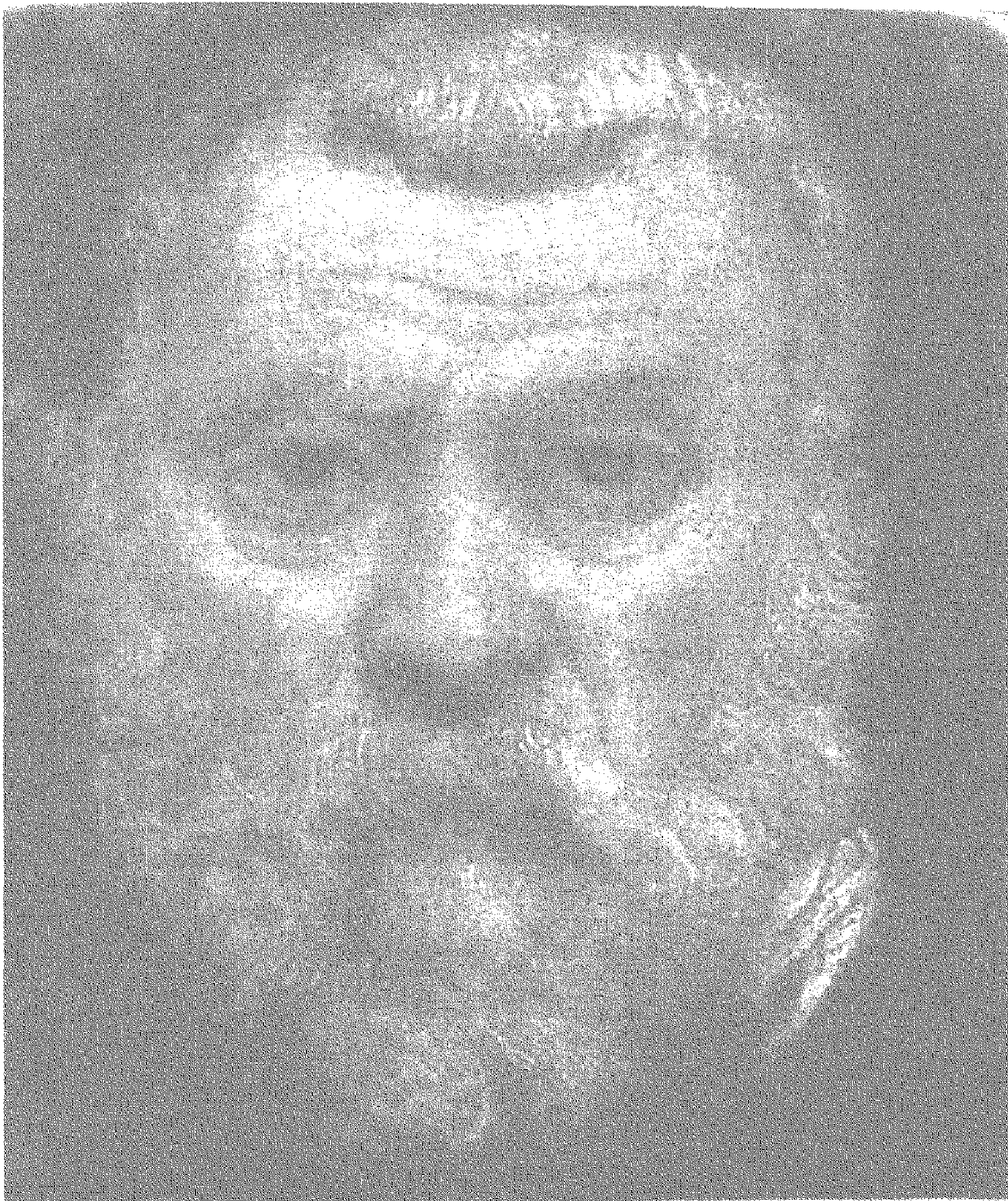
لوحة من أعمال تنتوريتو

DRAWING BY TINTORETTO



لوحة العشاء الأخير لتنتوريتو

Tintoretto 's "Last Supper" (1594). {{PD}})



تنتوريتو / بورتريه شخصي

Detail of a self-portrait

بول فيرونيس Paul Veronese

١٥٢٨ - ١٥٨٨

" الفصل الأول "

وُلد بول كاجليارى Paul Cagliari آخر رسامى المدرسة الفينيسية Venetian School العظيمة فى مدينة فيرونا Verona .

إن اسم تلك المدينة فينيتو Veneto يجعلنا نفكر فى الحال فى ليالى ضوء القمر وجولييت Juliet الجميلة تحدق من شرفتها وهى تودع حبيبها روميو Romeo حيث عاش العاشقان حياتيهما القصيرتين اللتين انتهيتا بكل حزن .

و لكن فيرونا لها العديد من الألقاب تشتهر بها إلى جانب مشهد قصة شكسبير .

و واحد من دواعى فخرها أن منحت اسمها للفنان الفينيسى العظيم باولو فيرونيس Paolo Veronese أو باول فيرونا Paul of Verona كما نقولها بالإنجليزية .

كان هناك العديد من الفنانين فى فيرونا حينما كان باول وصبياً وكان والده مثّالا وعمه رساماً شهيراً لذا فلقد شُجع الصبى على أن يبدأ العمل مبكراً .

ما إن ظهرت بوادر الموهبة على باولو حتى أُرسل إلى مرسم Studio عمه ليتعلم دروسه الأُولى فى الرسم .

لم تكن فيرونا Verona بعيدةً جدا عن فينيسيا Venice ولم يكل باولو من سماع الحكايا عن ملكة البحر الجميلة Queen of the sea .

لقد أحب باولو أن يحاول تصوير روعتها وقصورها المرمرية المطلية بالذهب وحُلل نبلائها الثمينة والصور العجيبة التى تزين جدرانها !

ودوت أسماء فنانيها ... جيورجيون Giorgione وتيتيان Titian كالسحر فى أذنيه وبدا كما لو كانا يفتحان أمامه جنةً رائعةً جديدة .

حيث رجالها ونساؤها العظام يرتدون أثمن الحلل ويتحركون فى عالمٍ متأجج الألوان.

و فى نهاية الأمر جاء اليوم الذى أُرسل فيه إلى مدينة أحلامه ،و دخل إلى عالم الرسم السحرى، فيا لها من بهجةٍ أن يدرس تلك الصور ساعةً بعد ساعة ويتعلم أسرار الأساتذة العظام، إنه أفضل تعليم يتمناه القلب !

لم يلحظ أحد فى فينيسيا ذاك الرسام الشاب الهادئ الذى يعمل بجد ، فلقد عمل بثبات بمفرده لعدة سنوات وجاءت فرصته فى النهاية وكُلف أن يرسم سقف كنيسة القديس سان سباستيان Church of St. Sbastian وحين انتهى منها عرفت فينيسيا عبقريته ورأت أنه يوجد هنا ابن آخر من أبنائها عليها أن تبتهج وأن تشرف به .

إن صوره العظيمة من النوع الذى يفتن الأثرياء الفينيسيين وهؤلاء الأمراء التجار الذين فرحوا بالروعة المكلفة ، فلم يحدث قط أن رسم فنان من قبل مشهداً للعظمة الملكية !

فهنالك صالات للولائم ذات درابزين مرمرى تمامًا كما هو الحال فى قصور الفينيسيين .. والضيوف الذين تزاحموا فى هذه الصالات رجال فُضلاء لطفاء وسيدات شريفات تزينوا جميعًا بالثمين من الحرير المقصب والجواهر المبهرة .

وخدم الرجال والنساء أيضًا وزخارف ثمينة وأطباق ذهبية .. وكل ما يتمناه القلب .

الحق أنه لم تكن ثمة غرف كثيرة لإقامة المشاعر الدينية بين كل هذه العظمة على الرغم من أن الرسام يرسم هذه الصور باسم البابا Pope وسيرسم صورة السيد المسيح Lord our أو العذراء المباركة Blessed Virgin بين هذا الزحام المرح !

و لكن أحداً لم يتوقف ليفكر فى الدين فما الذى يعنيهم إذا ما ارتدى الضيوف من النبلاء والفينيسيين فى "عيد زواج كانا " Marriage Feast of Cana حللهم الثمينة وكان كل شيء مختلفًا قدر الإمكان عن الزفاف البسيط حيث صنع السيد المسيح Christ أول معجزاته !

اتسعت شهرة باولو أكثر وأكثر ورسم صوراً رائعةً أكثر وأكثر وتجد صوراً من أعماله هنا وهناك أكثر بساطةً وفتنة .

فحين رسم القديس الصغير جون St. John وقربة الماء ملقاة على كتفه العارى والصليب في يده كان كالطفل حقًّا وهو ينظر للسماء ويضع يده الصغيرة باطمئنان على راحة اليد الجريحة للقديس فرانسيس St. Francis الذى يقف إلى جواره .

رغم أن الفينيسيين لم يجدوا نقصاً فى الصور الرائعة التى رسمها فيرونيس إلا أن الكنيسة بدأت تُشكك عما إذا كانت صوره مناسبةً للمواضيع الدينية ليزين بها جدران الكنيسة ...

نظر المكتب المقدس Holy office في السؤال وأُمر فيرونيس بالمثول أمام القنصلية وسألوه :

– هل حقًّا كان مهرجو البلاط الملكى والأولاد الزنوج الصغار وحتى القطط والكلاب المدللة التى تظهر فى الصور تناسب أن تزين جدران الكنيسة ؟

أجاب فيرونيس بشجاعة :

– إن تأثير الصورة هو الذى يهم وإننا لا يجب أن نفكر فى التفاصيل !

فزالت الشكوى ...

كانت هذه الصور التي رسمها باولو فيرونيس قطعًا عظيمةً من الديكور رائعةً بأسلوبها ،ولكنها تبين حقًّا أن فن الرسم كان ينحدر بدلاً من أن يسمو ... فلو قُدر لأرواح الأساتذة العظام أن تعود وتحدق فى الأعمال الجديدة فكيف ستكون مشاعرهم

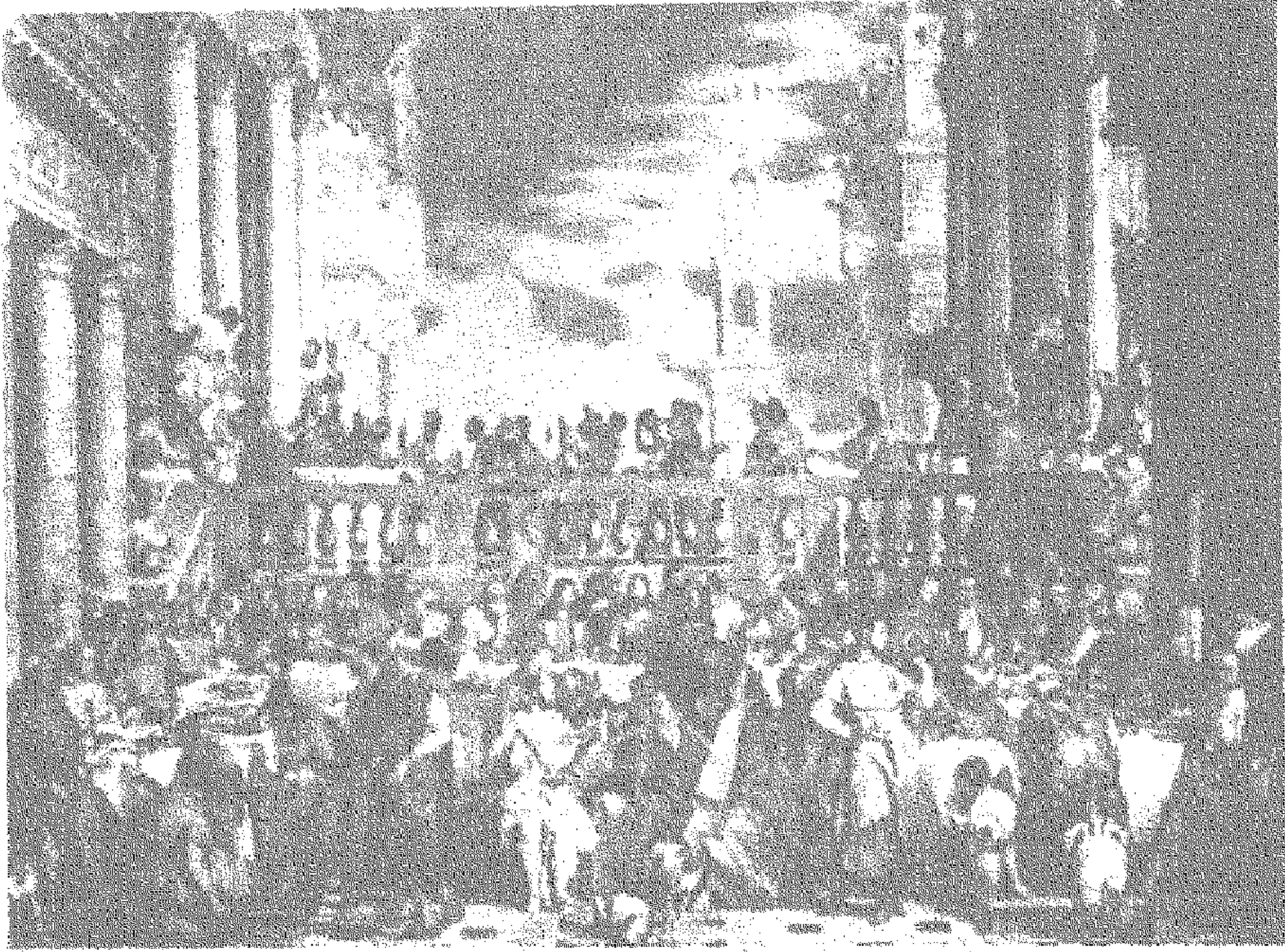
وكيف سيهز جيوتو البسيط رأسه فوق هذه الثروة من الزخارف التى تعنى القليل جدا حتى عندما يروق له عمل ماهر .. !

وكيف أن فرا أنجيليكو Fra Angelico سيستدير آسفًا عن هذا الغرور العالمى التام ويتنهد حين يعتقد أن فن الرسم لم يعد سلسلةً ذهبيةً تربط أرواح البشر بالسماء .

حتى الراهب ذو القلب المرح فرا فيليبو ليبى Fra Filippo Lippi نادراً ما وافق على هذه الصحبة الرائعة .

لقد هز فن الرسم بالفعل القوانين الملزمة للتقاليد القديمة وقد كان فيرونيس حرًّا يتبع خياله البهى ولكن من الذى يُجزم أن تلك الحرية تُعد حقًّا مكسباً ؟

نُغلق سجل الفن الإيطالى ونحن نتنهد بحسرةٍ وندير أعيننا المتعبة بكل روعته وهذا الوهج بشمس الظهيرة عائدين إلى الفجر المبكر حينما كانت روح الرسام تُطل من لوحاته وتلقننا الدرس البسيط ... أن العمل الذى تم من أجل مجد الله أعظم من الذى تم من أجل مديح البشر .



لوحة الزفاف في كانا ١٥٦٣ - ١٥٦٣ / متحف اللوفر - فرنسا

Louvre The Wedding at Cana , 1562-1563



معركة ليبانتو / رسم زيتي على القماش / بريشة باول فيرونيس / معرض الأكاديمية / فينيسيا .

The Battle of Lepanto (c. 1572, oil on canvas, 169 x 137 cm, Gallerie dell'Accademia, Venice)

فهرس اللوحات

الفنـــان **الصفحات**

The Tripute money Florence in Santa Maria Brancacci chapel in Santa Maria del ,Carmen, Fresco

٤ – فرا فيلبيو ليبى

بورتريه لرجل وامرأةٍ عند الباب / من أعمال فرا فيليبو ليبى

Portrait of a Man and Woman at a Casement , c. 1440

بورتريه لفرا وسط تلاميذه

Selfportait with pupils

٥ – ساندرو بوتيتشيلى

Deutsch Zanobi Alter ,Anbetung der Heiligen Drei Könige, Detail: Selbstporträt

Botticelli's Alleged self-portrait of Botticelli, in his Adoration of the Magi

بورتريه شخصى لساندرو بوتيتشيللى

بورتريه لرجل وميدالية من الملك كوسيمو العظيم

بمعرض أوفيزى من أعمال ساندرو بوتيتشيللى ١٤٧٤

Portrait of a Man with a Medal of Cosimo the Elder, 1474

٦ – دومينيكو غرلانداير

لوحة من أعمال غرلاندايو

DRAWING BY GHIRLANDAIO

جد مع حفيدة / رسم على الخشب / لدومينيكو غرلاندايو ١٤٩٠ وهى معروضة بمتحف اللوفر بباريس / فرنسا .

An Old Man and His Grandson by Domenico Ghirlandaio (c.1490) Tempera on wood, 62 x 46 cm Musée du Louvre, Paris

ليوناردو دى ميديسى بين أنتونيو بوتشى وفرانسيسكو ساسيتى وجيوليو دى ميديسى / من أعمال الجص لغرلاندايو .

Ghirlandaio a pucci lorenzo de medici f sassetti

٧ – فيليبينو ليبى

بيتر فى السجن / من أعمال فيليبينو ليبى

ST. PETER IN PRISON. BY FILIPPINO LIPPI

بورترية ذاتى لفيليبينو ليبى

و هو عمل من الفريسكو فى سانتا ماريا / فلورنسا

Self-portrait. Detail from The Dispute with Simon Magus (1471-1472) Fresco.

Brancacci Chapel, Santa Maria del Carmine, Florence, Italy.

٨ – بياترو بيروجينو

بورترية ذاتى للفنان بيروجينو / رسم من الجص ١٥٠٠ – ١٤٩٧

Self-portrait, 1497-1500

Deutsch: Fresken der Sala d'Udienza im Collegio del Cambio in Perugia, Szene: Selbstporträt

لوحة تسليم المفاتيح / عمل من الجص / كنيسة سستين روما ١٤٨١ للفنان بيروجينو

Christ Handing the Keys to St. Peter by Pietro Perugino (1481-82) Fresco, 335 x 550 cm Cappella Sistina, Vatican

٩ – ليوناردو دافنشى

رسم من أعمال ليوناردو دافنشى

Drawing of Leonardo Da vinci

وادى أرنو / رسم مبكر لـ ليوناردو ١٤٧٣

Study of a Tuscan Landscape (c.1473 by Leonardo Da vinci)

رسم دراسى يوضح عضلات الحصان كما صورها ليوناردو / من صحف ليوناردو

Study of horse Leonardo da Vinci

لوحة / العشاء الأخير

The Last Supper, showing Jesus, at the center, saying to his disciples, "One of you shall betray me"

١٠ – رافائيل

رسم من أعمال رافائيل

DRAWING BY RAPHAEL

رسم لمدرسة أثينا / ١٥٠٩ / من أعمال رافائيل

School of Athens - Fresco By Raphaello Sanzio

١١ – مايكل أنجلو

رسم من أعمال مايكل أنجلو

DRAWING BY MICHAEL ANGELO

سقف كنيسة سستين / من أهم أعمال مايكل أنجلو

Español: Techo de la Capilla Sixtina.

The ceiling of the Sistine Chapel

١٢ – أندريه ديل سارتو

بورتريه لرجل / من أعمال أندريه ديل سارتو

The so-called Portrait of a Sculptor,long believed to have been Del Sarto's self-portrait.

أندريه ديل سارتو / بورتريه شخصى

A self portrait

١٣ – آل بيلليني

لوحة تشيروب من أعمال جيوفانى بيلليني

Bellini Giovanni Virgin_with_Sts_Mark,_Benedict Nicholas_and_Peter,_detail of left musician angel 1500 Santa Maria Gloriosa die Frari Venice.jpg

الرجل ذو العمامة / لجيوفاني بيلليني / معرض أوفيزى – فلورنسا

Bellini, Giovanni Man with a Turban, Galleria degli Uffizi, Florence

بورتريه كاترينا كورنارو / بريشة جنتايل بيلليني / متحف بودابست

Deutsch: Porträt der Caterina Cornaro, Königin von Zypern

١٤ – فيتور كارباتشيو

حلم أورسولا / عمل من الكانافا / من أعمال كارباتشيو وهى تمثل أسطورة أورسولا / معرض الأكاديمية / فينيسيا .

The Dream of St Ursula (1495)

Tempera on canvas, 274 x 267 cm Gallerie dell'Accademia, Venice

١٥ – جيورجيون

لوحة من أعمال جيورجيون

DRAWING BY GIORGIONE

بورتريه لرجل فينيسى / جيورجيون وتيتيان / معرض الفن الدولى

Portrait of a Venetian Gentleman - Giorgione and Tizian 1510 National Gallery of Art

بورتريه شخصى لجيورجيون

Deutsch: Selbstporträt (?)

١٦ – تيتيان

لوحة العذراء الصغيرة / من أعمال تيتيان

THE LITTLE VIRGIN. BY TITIAN

بورتريه شخصى للفنان تيتيان

Deutsch: Selbstporträ

بورتريه لتمثال الإمبراطور تشارلز / بريشة تيتيان – ١٥٤٨

Titian's state portrait of Emperor Charles V at Mühlberg (1548) established a new genre, that of the grand equestrian portrait.

١٧ – تنتوريتو

لوحة من أعمال تنتوريتو

DRAWING BY TINTORETTO

لوحة العشاء الأخير لتنتوريتو

Tintoretto 's "Last Supper" (1594). {{PD}})

تنتوريتو / بورتريه شخصى

Detail of a self-portrait

١٨ – باول فيرونيس

لوحة الزفاف فى كانا ١٥٦٢ – ١٥٦٣ / متحف اللوفر – فرنسا

Louvre The Wedding at Cana ,1562-1563 .

معركة ليبانتو / رسم زيتى على القماش / بريشة باول فيرونيس / معرض الأكاديمية / فينيسيا .

The Battle of Lepanto (c. 1572, oil on canvas, 169 x 137 cm, Gallerie dell'Accademia, Venice)

المؤلفة فى سطور :

إيمى ستيدمان

إنجليزية الأصل نشرت كتابها فرسان الفن "قصص حياة الرسامين الإيطاليين" عام ١٩٠٧ ، وكتبت للأطفال فى موضوعات دينية وكتبت فى الأدب "ديكنز" وفى الفن "الفنانين الإيطاليين" .

استُخدمت كتب إيمى ستيدمان للتعليم المنزلى وفى الأكاديميات الخاصة حين لم يكن التدريس ممكنًا فى بريطانيا ومن أهم أعمالها :

١ – الكتاب المدرسى ... قصص الكتاب المقدس .

٢ – أساطير وقصص من إيطاليا ١٩٠٩ .

٣ – قصص الرسامين ١٩١٠ .

٤ – قديسو جزيرتنا ١٩١٢ .

٥ – حكايات مدرسية للأطفال .

المترجم فى سطور:

الحسين محمود خضيرى الحجاجى

مواليد الأقصر ١٩٦٧ – تخرج فى كلية الآداب قسم التاريخ والدراسات الإفريقية ويعمل باحثًا اجتماعيًا فى المجلس الأعلى لمدينة الأقصر .

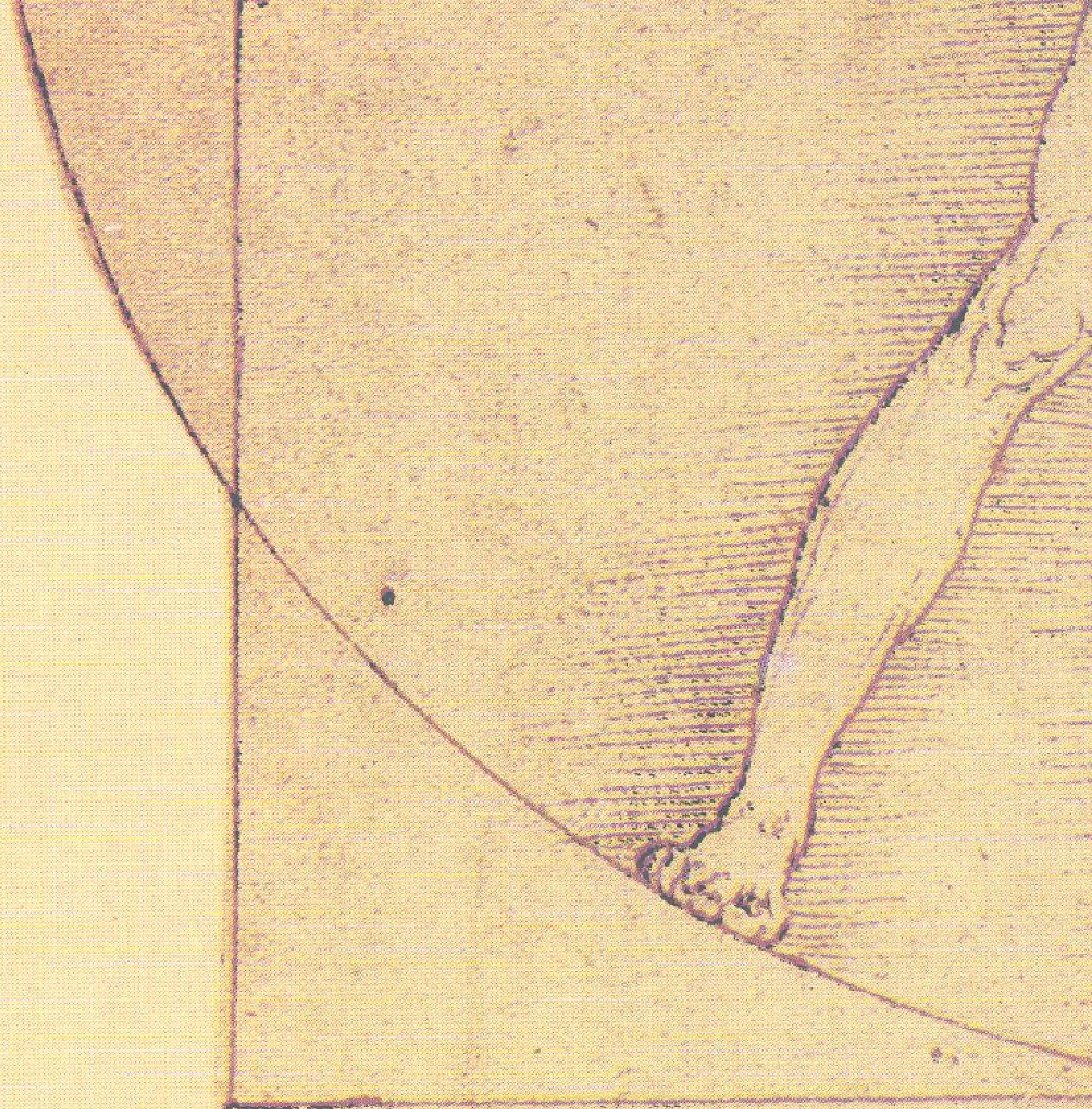
صدر له ديوانان من الشعر الفصيح "أغنية لغدٍ بعيد" عن هيئة قصور الثقافة – "تراتيل المريد" عن سلسلة إبداعات بهيئة قصور الثقافة ٢٠٠٦ .

نشر العديد من القصائد والقصص القصيرة والمترجمة فى مجلات الشعر – الشاهد – الثقافة الجديدة – سطور – زهرة الخليج – الصدى – كلمتنا – عرب الكويتية .

وصحف: الجمهورية – القاهرة – الأهرام المسائى – أخبار الأدب – الرسالة – المستقبل – الموجز – اللواء العربى – صوت قنا – المساء .

تحت الطبع – مدن الغيم "شعر" – شتاء لملكة الغيوم "شعر" – رجل وحيد وأشياء حميمة "قصص قصيرة" .

التصحيح اللغوى : **رجب الصاوى**
الإشراف الفنى : **حسن كامل**



يقدم الكتاب سير حياة الرسامين الإيطاليين الذين أثروا الحياة بأعمالهم الفنية الرائعة من فن الرسم والنحت فى عصر النهضة الإيطالية، والذين شكلوا لبنة مهمة فى صرح الحضارة الأوروبية الحديثة، ومن أمثال هؤلاء: الفنان ليوناردو دافنشى ومايكل أنجلو ورفائيل و جيوتو وتنتوريتو وغيرهم، تتناول الكاتبة قصص حياتهم وكفاحهم من أجل الفن والإبداع، وكيف أنهم عانوا الكثير؛ كى يبهجوا الدنيا ويبهروا العالم بفنونهم الرائعة.

لوحة الخلفية: ليوناردو دافنشى

تصميم الغلاف: نسرين كمال

Bibliotheca Alexandrina
0656454